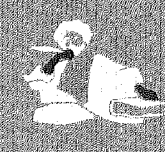
معن زيادة



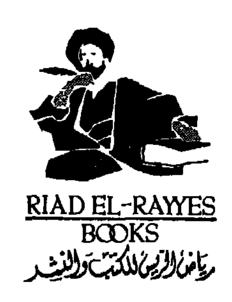


RIAD EL-RAYYES BOOKS



الفصول الأربعة


معن زيادة
الفصول
الأربعة
سيرة
حياة


RIAD EL-RAYYES
BOOKS
رياض الريس للكتب والنشر

FOUR SEASONS
MEMOIRES

BY:

MAEN ZIADEH

First Published in 1999

BEIRUT - LEBANON

British Library Cataloguing in Publication Data available

ISBN 1 85513 256 7

تصميم الغلاف: محمد حمادة

الطبعة الأولى: كانون الثاني/يناير ١٩٩٩

المحتويات

المقدمة

كلما فكرت في كتابة مذكراتي تزاحمت الأحداث في رأسي وتداخلت الأفكار وانتقلت من مدينة إلى أخرى، فأحتار كيف أبدأ ومن أين.. إلاّ أن فكرة واحدة كانت لا تتغير كثيراً وهي أن مراحل حياتي لم تجر في مدينة واحدة أو دولة واحدة، بل كانت كل مرحلة في مَدينة، فكانت مرحلة حياتي الأولى أو مرحلة التكوين الأول في مدينتي طرابلس حيث ولدت وترعرعت وقضيت معظم العقدين الأولين من حياتي، أما المرحلة الثانية فكانت في معظمها في القاهرة حيث تابعت دراستي الجامعية واختلطت بالأدباء والفنانين والمثقفين والسياسيين فكان تكويني الثاني. ولهذه المرحلة امتداد في بيروت حيث عدت إلى لبنان وبدأت عملي في التدريس وفي الصحافة في آن واحد، وفي بيروت كنت على اتصال دائم بالقاهرة التي كنت أتردد عليها، فقد كانت حياتي في بيروت امتداداً لحياتي في القاهرة وقد امتدت هذه المرحلة على طول العقد الثالث (على أكثر سنوات العقد الثالث من حياتي) وانتهت بانتقالي إلى مونتريال حيث التحقت بجامعة ماكغيل McCgill.

المرحلة الثالثة من مراحل حياتي كانت في مونتريال في كندا، وهي مرحلة التكوين النهائي... في مونتريال أو بالأحرى في ماكغيل درست في معهد الدراسات الإسلامية واختلطت بالطلاب من أقطار ودول متعددة من

الشرق والغرب، وانخرطت في النشاطات الأكاديمية والثقافية في أميركا الشمالية.. إلاّ أنني وفي الوقت نفسه تابعت عملي السياسي والذي كنت قد بدأته في طرابلس واستمر معي في القاهرة وبيروت، بل يمكن القول إنني توّجت هذا العمل السياسي واكتسبت من الخبرة والمعرفة ببواطن الأمور الشيء الكثير. وقد تأخذ هذه المرحلة الحيز الأكبر من المذكرات..

أما المرحلة الرابعة من مراحل حياتي فهي مرحلة عودتي إلى بيروت والاستقرار فيها لفترة قاربت العقدين من التدريس في جامعاتها وخاصة الجامعة اللبنانية. ولهذه الفترة امتداد في مونتريال حيث عدت للإقامة والعمل والتدريس في ماكغيل وهذا كله امتداد للمرحلة الرابعة، فهذه المرحلة هي مرحلة الإنتاج بعد أن كانت المراحل السابقة مراحل تكوين أكثر منها مراحل إنتاج..

إلاّ أن القول بأن المراحل الثلاث الأولى كانت مراحل تكوين، فيجب أن لا يؤخذ على ظاهره، فقد كان في هذه المراحل إنتاج بدرجات متفاوتة ونسب مختلفة، ولكن هذه المراحل تدخل في باب التكوين أكثر منها في باب الأنتاج، فقد زادت مدّة التكوين الحقيقي على العقود الثلاثة ببضع سنوات، وهي مدة طويلة، وإن كان التكوين المتخصص في حياتنا المعاصرة يستغرق مدة طويلة من حياة المتخصصين.. صحيح أنني قمت بالتدريس وعملت بالصحافة لعدة سنوات أثناء إقامتي في بيروت في نهاية المرحلة الثانية من مراحل حياتي، كما أنني درست في ماكغيل كمساعد أستاذ أثناء المرحلة الثالثة، إلاّ أن الانتاج الحقيقي جاء في المرحلة الرابعة، ولهذا كان الطابع الغالب على المراحل الثلاث الأولى طابع التكوين.

ولأن البداية كانت طرابلس، فكل مرحلة من المراحل الثلاث التالية كانت تعود إليها، فالمرحلة الأولى مرحلة التكوين الأول أو التأسيس هي المرحلة التي تكونت فيها أفكاري الأساسية ومعتقداتي الرئيسية. ومرحلتا التكوين اللاحقتان كانتا في الحقيقة تعميقاً وتوسيعاً وتهذيباً وإغناءً للمرحلة الأولى.. أستطيع الآن وأنا أستعرض بنفسي مراحل حياتي أن أجزم لنفسي

أولاً أن مراحل حياتي الثلاث اللاحقة هي امتداد للمرحلة الأولى، أو هي توسيع لمعتقداتي وأفكاري.. فمعتقداتي الدينية والسياسية والثقافية عامة وأفكاري الفلسفية والإنسانية ومواقفي من ذاتي ومن الآخر ومن العالم والوجود هي في أساس الأفكار التي تكونت في المرحلة الأولى إلاّ أنها تطورت وتوسعت وتعمقت وتهذبت وزال عنها التطرف وحلّ محله الاعتدال. وهي أفكار ومواقف ومعتقدات ما زلتُ عليها حتى كتابة هذه السطور، فكأن مراحل حياتي أشبه ما تكون بحياة أي إنسان تبدأ بالتأسيس في المنزل ثم تتجذر في المرحلة الابتدائية من الدراسة ثم المرحلة الثانوية، وأخيراً المرحلة الجامعية، أو كأنها أشبه بحياة الدارس في تحصيله العلمي بعد مرحلة الدراسة الجامعية الأولى حيث تأتي مرحلة الدكتوراه بعد مرحلة الماجستير لتليها مرحلة العمل والإنتاج.

ووصولي إلى هذه النتيجة، ناجم عن أن أفكاري في المراحل اللاحقة لمرحلة التأسيس الأولى هي تنقيح وتطوير وتهذيب لأفكاري الأولى، وهذا يتفق مع ما توصل إليه علم النفس الحديث الذي يرى أن شخصية الفرد تتكون في السنوات الست الأولى من حياة الفرد وأن باقي سنوات العمر هي تنقيح وتطوير للمرحلة الأولى من العمر (السنوات الست الأولى) مع تعديلات هنا وهناك لا في الجوهر بل في متعلقات هذا الجوهر.

وعلى كل حال فإني أعتبر أن ثباتي، دون وعي تام بذلك في حينه، على أفكاري الأساسية وطبيعة شخصيتي، ليس من قبيل الموقف الرجعي، لأن مواقفي في حقيقتها وفي غالبيتها العظمى هي مواقف تقدمية وإنسانية بل يمكن أن توصف بالثورية دون تردد. ولعلني لا أخالف في ثباتي على مواقفي غالب الناس، ولكني أريد أن أسجل ملاحظتي بأنني أدركت الآن أنني على أفكاري نفسها، وهي حقيقة كانت غائبة عن شعوري وقد ظننت في بعض الأوقات أنني تغيرت كثيراً، إلا أنني كنت أدرك بحسي الباطني، دون حسي الخارجي، أنني ما زلت الشخصية نفسها التي تحمل المبادىء والأفكار ذاتها رغم أن حياتي يمكن أن تندرج في مراحل أربع كما ذكرت.

ولأن معظم سنوات حياتي يندرج تحت ما أسميه بالتكوين فإنها في حقيقتها تشكل كلاً واحداً يضم مراحل التكوين إلى المرحلة التالية ليكون تاريخي الخاص الواحد المتكامل الذي يظهر حقيقة شخصيتي.

ولكن وبما أن المراحل الأربع على الشكل الذي ذكرت تمثل مراحل حياتي التاريخية المتعاقبة فإنها كما هو واضح، إضافة إلى ارتباطها بأماكن جغرافية مختلفة، فإنها ترتبط بفترات تاريخية مختلفة أيضاً وهي فترة النشوء والشباب الأول على مدى أكثر العقدين الأولين من حياتي، وهي أشبه ما تكون بفصل الربيع بين فصول السنة، في حين أن المرحلة الثانية، وهي فترة الشباب الحقيقي خلال العقد الثالث من العمر، الشباب المليء بالديناميكية وحرارة الحياة وهي أشبه ما تكون بفصل الصيف وقد كانت موزعة بين القاهرة وبيروت، أما المرحلة الثالثة مرحلة تكامل التكوين وبدء الإثمار والعطاء أشبه بفصل الخريف وكان معظمها في كندا. وفي المرحلة الرابعة التي انتهت بمرضي مرضاً مزمناً له دورته الخاصة التي تنتهي بالذبول والموت، فقد شعرت أنني في فصل الشتاء، ليس أي شتاء بل الشتاء الكندي القاسي الذي ينهي دورة الفصول الأربعة قبل بدء فصل الربيع، وانبعاث الحياة بشكلها المثير للدهشة، وكأن كل شيء كان كامناً مستعداً للظهور مجدداً. الشتاء الكندي الذي تصل فيه الحرارة، في مونتريال حيث أقمت، إلى ٣٥ درجة مئوية تحت الصفر وتصل فيه في مناطق أخرى إلى ٥٠ درجة مئوية تحت الصفر. حيث يموت كل شيء ويغفل عن الحياة. وما الموت إلا غفلة عن الحياة! وإنه غفلة دائمة عن الحياة! وهي غفلة لا يعيها الميت وإن كانت، تعني الكثير للآخرين حوله.

لهذا فإنني كلما فكرت في كتابة المذكرات تبادر إلى ذهني أن أعنونها بـ«الفصول الأربعة» وأن أكتبها في أربعة فصول كل فصل يماثل فصلاً من فصول السنة يوازي بدوره فصلاً من حياتي في تدرجها من ربيع حياتي حتى شتائها مروراً بالصيف الحار والخريف البهيج؛ الخريف الكندي الحقيقي لا خريف بلادنا حيث يختلط في معظمه بالصيف فلا نعرف الخريف الحقيقي وجمال الطبيعة فيه وسحرها وسحر الحياة معها.

فإذا اتسعت هذه الفصول وامتدت، أعني فصول الكتاب، وهذا يتوقف على وضعي الصحي، تحولت إلى كتب أربعة كلٌ منها يحمل عنوان فصل من الفصول الأربعة. ولكني أشعر الآن أن الوقت لم يعد يتسع لهذه المهمة، مهمة كتابة وإصدار مذكرات في أربعة أجزاء، فهي مهمة تحتاج إلى شهور طويلة وسنوات خاصة وإني كنت ولا أزال أرغب في أن تكون عملاً أدبياً جميلاً لا مجرد تسجيل لوقائع وأحداث، على أهمية تسجيل الوقائع كعمل مستقل في حدّ ذاته. إلا أن الأُطباء والأبحاث وكل شيء يشير إلى أنني لا يمكنني إنجاز مهمة من هذا النوع فيما تبقى لي من نصيب في هذه الحياة. فالعمل الأدبي الإبداعي يحتاج إلى وقت طويل وساعات عمل وسهر، وقواي البدنية الآن لا تسمح بأي شيء من هذا القبيل. ولهذا فإني سأكتب أهم أحداث كل مرحلة أولاً وأترك الباب للمزيد، فإذا قدّر لي أن أتمّ هذه المهمة وكان عندي المزيد من الوقت انتقلت إلى التوسع التدريجي تاركاً لأحد إخوتي مهمة التحرير ومهمة النشر والإصدار بالشكل والحجم الملائمين.

إلا أنني أشعر أحياناً أن عنوان الفصول الأربعة هو عنوان تقليدي كثر استخدامه ولهذا أقف متردداً أمام هذا العنوان الذي كان يترافق في ذهني مع عنوان «الرحلة والمرفأ» باعتبار أن حياة الفرد أشبه ما تكون بالرحلة، تبدأ بعد الاستعدادات اللازمة وتستمر لمدة من الزمن فيسعد فيها المرء ببعض مشاهداتها ووقائعها وقد تكون ناجحة موفقة وقد لا تكون، ولكن لا بد لها من أن تنتهي، ولأن رحلتي التي انطلقت من مدينتي طرابلس ثم أخذتني في رحلات ضمن الرحلة الواحدة إلى القاهرة ثم بيروت ثم مونتريال ثم بيروت، وبعد ذلك مونتريال وبيروت سويّة، قدمٌ هنا وقدمٌ هناك. وقد تخللت تلك الرحلات التي أقمت فيها في كل من هذه المدن لعدة سنوات لا تقل عن الأربع رحلات كثيرة لأيام أو أسابيع، وهي رحلات تُعدّ بالمئات. فأثناء إقامتي في مونتريال مثلاً تفرغت للعمل السياسي لمدة سنتين زرت خلالها معظم الولايات الأميركية، وقد جاءت فترة من الزمن كنت أسافر فيها كل أسبوع إلى بلدة ما أو مدينة أو ولاية. ولهذا اكتسبت إسم السندباد الذي أطلقته عليّ زوجتي وأبواها. إلا أنني

أتحدث هنا عن رحلات حياتي الأساسية والتي شكلت محطات تحول فيها، وآخرها إقامتي الحالية في مونتريال. ولأن هذه الرحلة لا بد من أن تنتهي بعودتي إلى طرابلس، حسب وصيتي لأدفن بجانب أهلي وعائلتي، فإن انطلاقي من طرابلس المرفأ ينتهي بعودتي إلى المرفأ كما كان ينتهي الأمر بعد كل رحلة من الرحلات التي شكلت أو ساهمت إلى حد بعيد بتشكيل مراحل حياتي بعد انطلاقي في رحلة الحياة.

طرابلس، المرفأ، مرفأي الذي أحن إليه. مرفأي الذي أؤوب إليه بعد عناء كل رحلة لأستمد منه قوة وعزيمة استعداداً للرحلة التالية، كما كان يفعل السندباد بعودته إلى بغداد بعد كل مغامرة من مغامراته، ولهذا كثيراً ما كنت أجد أوجه شبه بين حياتي وحياة السندباد، مع أن رحلاتي ومغامزاتي وغيابي الطويل عن مدينتي ومرفأي كان في عالم البر لا في عالم البحر. فباستثناء سفري الأول من طرابلس إلى القاهرة الذي تم عبر رحلة بحرية من اللاذقية إلى الإسكندرية (وسأعود إلى ذلك لاحقاً عند الحديث عن اللحظة الثانية في حياتي)، فإن رحلاتي كانت برية أو بالأحرى جوية. إلا أن هذا لا يمنع من وجود وجه شبه بين نمط حياتي ونمط حياة السندباد إذا أخذنا الفرق بين العصرين. وكثيراً ما كنت أقص على ولديّ أحداثاً من حياة السندباد أضمنها أحداثاً من حياتي الخاصة، وكان والد زوجتي يستمع بشغف إلى تلك الحكايات. وعندما كنت أتوقف عن القص مع نوم الولدين كان حماي يطلب إليّ الاستمرار مثنياً على ما كان يسمع. وكانت زوجتي تقف على بعض وقائع رحلاتي القصيرة وفيها الكثير من المغامرات فتطلب المزيد. وكثيراً ما كنت أفكر بوضع كتاب تحت اسم السندباد الجديد أو السندباد العصري. وقد تبادر إلى ذهني أيضاً عنوان السندباد العربي، وكان الكاتب المصري حسين فوزي قد وضع كتاباً تحت اسم سندباد مصري، وهو من الآخذين بالوطنية المصرية والمدافعين عنها، وأنا معجب به وإن كنت أختلف معه في آرائه السياسية، ومنذ قراءة كتابه استهواني عنوان السندباد العربي أو السندباد العربي الجديد. إلا أنني رغم هذا أجد أن السندباد الجديد أو السندباد العصري يُغني عن العناوين الأخرى.

الفصل الأول

طرابلس

ولدت ونشأت وترعرعت في بيت يمكن أن يقال إنه ينتسب إلى شريحة البرجوازية الصغيرة، بين أحضان أبي محمد بن أحمد زيادة ووالدتي فاطمة بنت حمد آغا الحسن، في منطقة باب الرمل أو منطقة الحدادين، كما جاء في سجل النفوس.

ولدت على يد القابلة أو بالأحرى «الداية» نور الهدى الرطل، إذا لم تختلط عليّ الأسماء، وكانت تسكن خلف بيتنا، وكان يكفي أن ينادي المرء من خلف سور باحة منزلنا لتسمع الداية الجارة صوت المنادي. وكان منزلنا الذي اشتراه أبي قبل مولدي بعدة سنوات يتكون من أربع غرف ومطبخ وحمام، تطل على باحة واسعة زُرعت فيها كرمة عنب كانت تثمر إلاّ أن عنبها كان يؤكل حامضاً في معظمه قبل أن ينضج ويحلو، فقد كنا ـ نحن الصغار ـ أنا وأخي طارق الذي يكبرني بسنتين نلاحق تلك الكرمة للتسلية قبل كل شيء، فلا نتركها تؤتي أكلها على الوجه الأحسن.
عشت في هذا المنزل عقداً ونصف العقد من الزمان على الأقل قبل

أن ننتقل إلى منزل آخر غير بعيد عن الأول، إلا أن منزلنا الأول كان هو منزل الطفولة على الحقيقة، وكان يقع في ساحة بين مقبرة باب الرمل إلى الجهة الشمالية ومقبرة الزيني والشهداء إلى الجهة الجنوبية. وكانت الساحة أو الحارة واسعة فيها أماكن تتسع للعب ولتجمعات الصغار من مختلف الأعمار، وكانت غير بعيدة عن معلم سياحي من أهم معالم طرابلس المملوكية وهو مسجد طينال. وكان يؤمه المصلون لجماله وهدوئه، فهو قريب من بساتين البرتقال وسائر أنواع الحمضيات. وكان يمكن الوصول إليه وإلى منزلنا من ساحة عبد الحميد كرامي وساحة الدفتردار وشارع العجم عبر ممر بين سور مقبرة باب الرمل شرقاً وبساتين البرتقال غرباً. وقد توسع هذا الممر الآن ليصبح شارعاً واسعاً يصل المسجد بالمدينة الجديدة ومدينة المعارض على وجه الخصوص. إلا أن المسجد اختير ليكون مكان إقامة اللاجئين الفلسطينيين سنة ١٩٤٨، فكنت ولي من العمر أقل من عقد من الزمان أرى تدفق العائلات الفلسطينية، النساء والأطفال والشيوخ، فكان ذلك مدعاة حزن عظيم أثر في نفسي وأسهم في تكوين شخصيتي.

كان منزلنا يقع في الساحة أو المثلث الذي كان يتسع من جهة طريق بيروت - طرابلس القديمة قبل شقّ الطريق الجديدة بين البساتين غربي الطريق القديمة. وكان يضيق من جهة الجامع فيشكل مثلثاً ضلعاه المقبرتان غير البعيدتين. وكانت مقبرة الزيني وفيها مقبرة الشهداء تشتمل على ساحة واسعة كانت قد خصصت لمقابر الشهداء على ما يبدو فلم يكن لأهل طرابلس أن يدفنوا فيها، فظلت ساحة واسعة شغلها الصغار والكبار في إقامة المباريات بين الفرق المحلية أو فرق الأحياء. وقد شكلت مع أخي طارق في فترة من الفترات فريقاً رياضياً لكرة القدم حيث تبارينا مع

فرق أحياء أخرى إلا أن الأمر لم يطل كثيراً وانتهى بمعارك تقاذف بالحجارة حتى انفرط عقد فريقنا على الأقل لننجرف بعد ذلك إلى الاهتمام بالسياسة على صغرنا. لقد نشأت اهتماماتنا السياسية، أخي طارق وأنا، أولاً من دعوة جيراننا لنا إلى قراءة أخبار فلسطين في الصحف اليومية. فقد كان هؤلاء يشترون الجرائد ولا سيما جريدة بيروت المساء لصاحبها عبد الله المشنوق وينتظرون عودتنا من المدرسة. كان أخي هو القارىء الأول لأنه يجيد القراءة أكثر مني وكنت دائماً واحداً من المستمعين، ولم أكن أقرأ للجيران إلا في حال غياب أخي فقد كنت أقل منه طلاقة في القراءة فقد كنت آنذاك في نهاية المرحلة الابتدائية من دراستي وأسماء الأماكن والأشخاص والتعابير السياسية كانت تستوقفني وتبطىء قراءتي. ولكن ومع الأيام أصبحت قارئاً جيداً.

في هذا المنزل أتممت دراستي الابتدائية ثم الإعدادية والتحقت بعد ذلك بثانوية طرابلس، وكانت أول ثانوية رسمية في المدينة، أما مدرستي الأولى فكانت ـ على ما أذكر ـ مدرسة خاصة أشبه ما تكون بالكتّاب أخذني إليها والدي في فصل الصيف تمهيداً لإلحاقي بأقرب مدرسة رسمية إلى بيتنا وهي مدرسة الحدادين كما كانت تسمى والتي تغير اسمها بعد ذلك إلى مدرسة الإمام الغزالي بعد أن انتقلت من أول سوق المدينة القديم من جهته الشمالية قريباً من مقهى موسى أو قهوة موسى كما كانت ولا زالت تُعرف حتى الآن، وهي من أعرق مقاهي طرابلس الشعبية، وقريباً منها وامتداداً لها مقهى آخر كان يشدني إليه رجل ضخم يقرأ كل مساء فصولاً من قصة عنترة العبسي وقصة أبي زيد الهلالي، وقد نعود إلى هذا لاحقاً.

انتقلت المدرسة إلى أول منطقة أبي سمراء واحتلت الطوابق الثلاثة الأولى من بناية حديثة، وكان لها ملعب كبير صيفي وملعب صغير شتوي. كما كان لها باب حديدي كبير يليق بالمدارس المعتبرة يعلوه لوح كبير كتب عليه اسم المدرسة. أما الطوابق العليا من المبنى فكانت بيوتاً سكنية وكان لها مدخلها الخاص من الجهة الشرقية، في حين كان مدخل المدرسة من الجهة الغربية فكنت لا تحس ولا تدرك أنك في بناء مشترك مع عائلات خاصة.

وبما أن البناء كان أقيم على هضبة، فكانت الطوابق الأولى في الجزء السفلي من الهضبة يتقدمها الملعب الكبير يحيط بها بستانان من الجنوب والشمال، وكانت الطوابق العليا بمحاذاة نهاية الهضبة من جهة منطقة أبي سمراء وكان مدخلها بمحاذاة الشارع، فكان قسم البناء السفلي والعلوي مستقلين تماماً.

لم تعجبني مدرستي الأولى، وكانت في أول سوق العطارين وراء مسجد صغير لعله كان مدرسة للتعليم الديني. فهو أشبه بالمدرسة التقليدية منه بالمسجد، وهو لا يبعد كثيراً عن الجامع المنصوري الكبير والمدرسة القرطائية المتصلة به. في السوق الذي كان يجتمع فيه الطلاب والتلامذة في مطلع كل عام دراسي يشترون ويبيعون الكتب المدرسية المستعملة، كنت ترى في مطلع كل عام دراسي حشداً من مئات أو آلاف الطلاب والتلامذة محشورين في سوق ضيق من الصباح الباكر حتى بعد المغيب، فقد كان في السوق عدد من المكتبات أهمها مكتبة الملاح ومكتبة البخاش ومكتبة بدر غانم ثم مكتبة الرحولي، إضافة إلى مكتبات أخرى صغيرة غير ذات أهمية ولا تعادل في أهميتها المكتبات التي ذكرت. وقد اندثرت هذه المكتبات وضاق ببعضها المكان فانتقلت إلى أماكن أرحب في

المدينة الحديثة خارج السوق والمدينة القديمة. أما المكتبات التي لم يدرك أصحابها أن السوق لا يتسع لها ولغيرها من التجارة الأكثر رواجاً من الكتب المدرسية الموسمية، فقد ماتت ببطء ولا سيما مكتبة البخاش والملاح. وقد تحولت مكتبة هذا الأخير الآن إلى شبه بسطة صغيرة لا توجد فيها أي كتب ذات أهمية، حتى الكتب المدرسية اختفت منها، ولم تعد المكتبة ـ إذا جازت تسميتها بالمكتبة ـ تتسع لها. وقد تحوّل صاحبها الملاح إلى صحفي أو سياسي من نوع خاص، فهو محرض يكتب المواقف السياسية الوطنية على الأوراق والألواح من الورق المقوى ويعلقها على الجدران في مكتبته الصغيرة وفي الجوار، يندد فيها بمواقف السياسيين ومواقف السلطة والدول الكبرى ولا سيما مواقف الولايات المتحدة الأميركية، فيقف المارة على ضيق المكان وازدحام السوق يقرأون هذه المواقف معربين عن اتفاقهم مع صاحبها مؤيدين له وهو صامت لا يدخل في مناقشات.

لم تعجبني مدرستي المؤقتة التي كنت أذهب إليها كارهاً تحت ضغوط وتهديدات والدي، ولم تعجبني مدرسة الحدادين وهي مدرستي الأولى على الحقيقة أيضاً، فقد كنت أميل إلى اللعب في الحارة وأفضل البقاء في البيت قريباً من والدتي، ولم أذهب إلى المدرسة في البداية إلا على مضض.

والواقع أنني لم أحب المدرسة في يوم من الأيام ولم أكن من المتفوقين إلا في موضوعات محددة وفي أوقات معينة بحسب الأستاذ وعلاقتي به. وكان ذلك نتيجة النشاط الزائد أو طاقتي العالية والرغبة في اللعب وتصريف الطاقة، ولم أصبح من المتفوقين إلا عند دخولي الجامعة وحصولي على أعلى الدرجات حتى أنني

تخرجت بمرتبة الشرف الثانية وهذا يعني أنني كنت الثاني بين طلاب دفعتي على مدى أربع سنوات وكان عددنا يفوق الـ ١٦٠ طالباً ولا يقل عن الـ ١٠٠ طالب حسب سنوات الدراسة، فقد بدأنا بمائة وثمانين طالباً، ولكن تضاءل العدد في السنة نفسها إلى مائة وستين طالباً ثم بدأ يتضاءل سنة بعد سنة، إلا أن لهذا التضاؤل قصة أخرى.

خلال مرحلة الدراسة الابتدائية كنت ضعيفاً هزيلاً، وكنت كثيراً ما أصاب بالزكام والبرد، وكان موقع المدرسة في أعلى تلة أبي سمراء لا يساعد صحتي كثيراً، إذ كان عليّ أن أسير من ساحة باب الرمل مخترقاً قهوة موسى ثم أصعد الدرج الذي يصلني بالشارع الصاعد إلى أبي سمراء. وكانت تلك مهمة غير سهلة ولا سيما في فصل الشتاء إذ كان الماء المتدفق من التلة أو الهضبة نزولاً إلى المدينة على الدرج والأرصفة يخترق حذائي الذي يستمرّ رطباً طيلة النهار ولم يكن ذلك ملائماً لاستعدادي الشخصي لتحمل البرد والرطوبة في قدمي طيلة النهار، فلم أكن في قوة غيري من زملائي. ولهذا كانت كثيراً ما تنتابني موجات السعال في المساء خاصة، وقد أدى ذلك إلى تخلفي كثيراً عن المدرسة حتى أنني تخلفت في سنة من السنوات لبضعة أشهر وقد أدى ذلك إلى رسوبي في العام الدراسي في تلك السنة.

كانت والدتي تعالجني مع بعض الجارات بالأدوية والوسائل الشعبية: كاسات الهواء التي كانت تُحرق فيها بعض الأوراق الصغيرة ثم تلصق الكاسات الساخنة بالظهر لاستخراج الرطوبة من الجسم، أو زيت الزيتون المحمى على نار خفيفة يمسح به الصدر أو زيت السمسم المأخوذ من صندوق الحلاوة بالطحينة حيث كان

يغطي الصندوق بورقة تتشبع بالزيت. فتؤخذ الورقة وتوضع على الصدر لعدة ساعات قد تستغرق الليل بكامله، ولم تكن والدتي تتوانى عن أخذي إلى الأطباء دون جدوى، إلى أن حدّث بعضهم والدي عن طبيب يختلف حقاً عن سائر الأطباء هو الدكتور أكمل الخربطلي وهو ما زال كما سمعت على قيد الحياة حتى كتابة هذه السطور.

كان الدكتور أكمل لا يتقاضى أجراً ممن ليس له طاقة على دفع أجور الأطباء، وكان يصرف وقتاً طويلاً في تفحص المريض. ومع أنه كان يملك حدساً قوياً في تشخيص المرض، كان يصرف الوقت الطويل مع المريض غير عابىء بالوقت والزبائن، فليس المهم جمع الثروة وتكديس المال بل تشخيص المرض ومساعدة المريض. وقد استطاع الدكتور أكمل أن يعرف علتي أو أن يشخص مرضي. ومهما يكن من أمر فقد استطاع أن يخرجني من ضعفي واستعدادي الخاص للمرض والسعال والزكام والبرد. واذكر وقد مضى على ذلك ما يقارب الخمسة عقود من الزمان أنه قال إن جسمي وعظامي خاصة ينقصها الكالسيوم وإن علي أن آخذ ثلاثين إبرة حقنة كالسيوم على مدى شهر كامل. وقد أبدى استعداده لحقني بهذه الأبر يومياً، فكنت أتردد على عيادته التي كانت بيته ومنزله في آن معاً وكانت تقع عند مدخل مقهى التل العالي من جهة حيّ الزاهرية. ومع ترددي اليومي عليه نشأت بيننا علاقة مودة فكان يسميني «صاحبي» وكان كلما التقى أحداً من عائلتي سأله عني قائلاً كيف صاحبي؟ أو ما هي أخبار صاحبي؟

قلت إن حقَنَهُ قد أفادتني فلم أعد أصاب بالبرد والزكام ولم تعد تنتابني موجات السعال ليلاً ونهاراً. واستطعت المواجهة رغم أني

كنت أكاد أخسر عاماً دراسياً. إلا أني أخبرت والدي أني على غير استعداد لإعادة العام الدراسي وقد راجع والدي المدير وكان في ذلك الحين الاستاذ عبد الله الميقاتي الذي حاول إقناعي بأهمية إعادة السنة ولكن دون جدوى. ولأنه لم يوافق رغبتي في الترفع إلى السنة الرابعة الابتدائية، ذهبت برفقة والدي إلى مدرسة الزاهرية التي أسميت بمدرسة فرح أنطون فيما بعد وقد أعطاني المدير الأستاذ حسيب جرمانوس فرصة للترفع وهكذا انتقلت إلى مدرسة جديدة في حيّ جديد. وكان علي الوصول إلى المدرسة إما بأن أعبر السوق القديم حتى مفرق حي الزاهرية حيث كانت تقع المدرسة وإما أن أخترق ساحة النجمة حتى السراي القديمة ومن هناك أعبر إلى حي الزاهرية.

كانت شخصية المدير شخصية طريفة وجديرة بالاحترام حقاً. كان حازماً قاسياً مع التلامذة. وكان يحمل مسطرة طويلة سميكة يمسك بها دائماً بيده يستخدمها كلما دعّت الحاجة؛ فكان يضرب الطلاب الكسالى بقسوة ولا أذكر أن مسطرته أو عصاه قد وصلتني أو لعلها وصلت مرة واحدة ولكن بشيء من الرحمة والشفقة، فقد كنت أحترمه وأحبه وأبذل جهدي لأن أكون عند حسن نيته وثقته بي. وكان تهكمه الطريف على بعض الكسالى التلاميذ مما يضحك. فقد كان صاحب نكتة من الطراز الأول وكان على احتكاك دائم وتام بالتلاميذ، فكان كثيراً ما يقوم بالتدريس بنفسه عند غياب أحد الأساتذة كما كان يحب تدريس مادة اللغة الفرنسية، ولأن الطلاب كانوا يخشونه، ولأنه كان حريصاً على تقدم المدرسة وإعطائها أحسن النتائج، فإنه لم يكن يتوانى عن التدريس بحماسة بالغة أي موضوع وكل موضوع. أذكر يوماً أنه طلب إلينا أن نكتب موضوع إنشاء حول حادثة

وقعت لكل واحد منا في منزله، وقد كتب أحد الطلاب، ولم يكن من الأذكياء، أنه عندما كان في المنزل دخل عليه ضبع فما كان منه إلا أن أخرج بطارية وفكسها (كذا) في وجه الضبع فهرب الضبع. وقد كان ذلك موضوع تهكم المدير بروحه النقدية الساخرة إذ أين الواقعية في هذه الرواية الغريبة؟ ومن أين أتى الضبع وأتت البطارية؟ وما معنى فكس؟ وما هو مصدر هذا الفعل؟ وكان المدير يردد الفعل في صياغات مختلفة وسط ضحك الطلاب. ولا زلت أضحك كلما تذكرت طريقته في الكلام حتى يومي هذا. فقد كان أسلوبه وتعبيره عن هذا الأسلوب ساخراً متميزاً بسخريته. ولا يكفي أن نردد الكلمات التي كان يقولها لنصل إلى درجة السخرية المضحكة التي كان يحققها دائماً.

كان نسيب جرمانوس صاحب قلب كبير وكان محباً لطلابه وتلامذته رغم قسوته معهم أو مع بعضهم، كان حازماً إلا أنه كان متسامحاً لا مع الطلاب وحسب، ولكن مع الأساتذة أيضاً، لم يكن يشأ أن يكتب التقارير السيئة بالمعلمين وخاصة من أبناء طائفة الروم الأرثوذكس التي كان ينتمي إليها، بل لم يكن سيئاً مع أحد من الأساتذة رغم وجود الكثير مما يدعو إلى ذلك، فقد كان أستاذ الرياضة لا يملك أية كفاءة رياضية وكان يعتمر طربوشاً تهتز شرابته مع كل حركة من حركاته وخاصة في حالة غضبه، وقد كان غضبه كثيراً لأن التلامذة كانوا يتجرأون عليه أحياناً، ومع ذلك فقد حققت المدرسة انتصارات بفضل أساتذة آخرين كانوا يحبون الرياضة، وبفضل المدير الذي كان يرعى كل شيء في المدرسة ولا يضن بجهده ووقته على تلامذته ومدرسته والمعلمين فيها. وأذكر أن أستاذ اللغة الفرنسية في المدرسة، وكان أستاذاً جيداً، كان مبتلياً بلعب القمار وشرب الكحول. وكان كثيراً ما يخسر ويسكر،

فكان يقامر بكل شيء. ولعله قامر في إحدى المرات على حذائه فخسره فلم يكن أمامه إلا المجيء إلى المدرسة منتعلاً حذاء زوجته بكعب مرتفع، لأن المدير لم يكن يتسامح مع غياب المعلمين، وعندما جاء من أخبر المدير نسيب جرمانوس بالأمر، دخل إلى القاعة واستدعى الأستاذ وتحدث إليه في الخارج، ولعله أعطاه بعض النقود وصرفه لشراء حذاء بديل ثم عاد إلى القاعة ليأخذ محله إلى أن عاد المعلم إلى المدرسة بحذاء جديد.

وقصص المعلمين كثيرة، فقد كان يعلمنا الفرنسية أيضاً معلم سمين كان يدخن كثيراً ويشرب كثيراً على ما يبدو وعلى ما عرفنا من التلامذة من جيران هذا الأستاذ. فكان يأتي إلى الفصل فيغلبه النعاس فينام وعندما كان الأستاذ جرمانوس يسمع ضجيجنا ولهونا بينما يكون المعلم غاطاً في نومه العميق يعلو شخيره، يسرع إلى الفصل ويفتح الباب ولا يتوانى عن النيل من المعلم بنكتة أو طرفة من طرائفه التي تأتي بشكل عفوي.

كان عدد التلامذة المسيحيين في المدرسة، أكثر من عدد التلامذة المسلمين نظراً لموقع المدرسة في حي مسيحي، ونظراً لشهرتها كمدرسة مسيحية ضمن إطار التعليم الرسمي، كان التلامذة المسيحيون من أبناء القرى القريبة من طرابلس يتوافدون إليها. وكانت حصة التعليم الديني موزّعة بين رجل دين مسيحي، ورجل دين مسلم، فكان التلامذة يتوزعون في فصلين كل مع رجل دينه. وكان ذلك مثار احتجاج التلامذة في المرحلة التكميلية بشكل خاص. وكان يقوم بتعليم حصّة الدين الإسلامي الشيخ أنور بكري وهو رجل مستنير ومن أحب شخصيات المدينة، صاحب نكتة من الطراز الأول يتبادل نكاته أبناء المدينة من المثقفين، كما ينهلون من

حكمته ومواقفه الوطنية المشرفة وآرائه المتحررة وثقافته الواسعة ويستمعون إلى نكاته وقصصه الطريفة ليبثوها في أنحاء المدينة. ولا يتسع المقام هنا للحديث عن هذا الأستاذ الذي أثّر في أجيال متعددة وما زال حتى الآن.

كان المناخ في هذه المدرسة مناخاً وطنياً، وكان ذلك بفضل عقلية المدير الأستاذ جرمانوس الذي كان يحرص على هذا المناخ ويغذيه، وكان يحرص على التلاميذ المسلمين حرصه على المسيحيين منهم، فكان يشجعهم ولعل هذا ما حداه إلى قبولي في مدرسته. وقد أمضيت في مدرسة الزاهرية، أو فرح أنطون كما عُرفت لاحقاً سنتين حصلت فيهما على الشهادة الابتدائية أو السرتيفيكا كما كانت تعرف قبل إلغائها، ثم سنتين أخريين لأعود إلى مدرستي الأولى مدرسة الحدادين أو مدرسة الإمام الغزالي كما عرفت فيما بعد. قضيت أربع سنوات بمدرسة الزاهرية: سنتين في المرحلة الابتدائية أولاً ثم عدت إليها في المرحلة التكميلية لمدة سنتين أخريين، ولست أدري لماذا صحبني أخي طارق إلى تلك المدرسة دون أن يكون مضطراً إلى ذلك، ولعل والدي وجد أن بقاء الأخوين معاً هو في مصلحتي أو مصلحة الأخوين معاً.

وبعكس المناخ في مدرسة الزاهرية، فرح أنطون، كان المناخ في مدرسة الحدادين، الإمام الغزالي، محافظاً، ولا شك أن ذلك يعود في قسط كبير منه إلى شخصية المدير. فقد كان الأستاذ عبد الله الميقاتي رجلاً محافظاً، دقة قديمة كما يقال، فلم يكن يستسيغ النكت والطرائف، ولم يكن يقبل مخالفته الرأي. كان متشدداً غير متسامح. أذكر ذات مرة أنني وشقيقي قد تأخرنا قليلاً في الانطلاق من المنزل وكنا نتناول إفطارنا في طريقنا، مناقيش بزعتر

وزيت، وكنا آخر الواصلين إلى فصلينا، وقد فتح أخي باب الفصل وعلى يده بعض الزيت من آثار المنقوشة التي أكلها، وتصادف قدوم المدير إلى الفصل للتحدث مع المعلم أو لإعلان نبأ أو خبر أو ما أشبه، وعندما وضع يده على يد قفل الباب أحس بالزيت في راحة يده وعلى أصابعه، فدخل الفصل وتساءل بخبث عن إفطارات التلامذة إلى أن قال من أطيب الإفطارات المناقيش بالزعتر والزيت فهل تناول أحدكم إفطاراً من هذا النوع هذا الصباح؟ فما كان من شقيقي طارق إلا أن بادر برفع يده، فناداه المدير إلى مقدمة الفصل وطلب إليه أن يفتح أو يبسط يده لتناول عقابه ضربات من مسطرة غليظة لأنه لم يتمكن من غسل يده. وقد أخبرني طارق فيما بعد أنه كان ينوي الاستئذان والذهاب لغسل يديه بعد أن يستقر به المقام في الفصل فلا يسجل على نفسه أنه تأخر في الوصول إلى المدرسة والفصل.

وأذكر أيضاً وأنا في المرحلة الابتدائية في السنة الرابعة، وكانت مدة الدراسة في المرحلة الابتدائية ست سنوات، أن المعلم دخل إلى الفصل وطلب إلى التلاميذ إملاء استمارة، وكانت الاستمارات لطالبة في الجامعة الأميركية هي الآنسة ليلى بقسماطي من طرابلس، التي أصبحت زوجة الدكتور عبد المجيد الرافعي نائب الأمين العام لحزب البعث العربي الاشتراكي في العراق. وكان الغرض من إملاء الاستمارات إتمام دراسة تدخل في باب البحث الاجتماعي تتناول عيّنة من التلاميذ في المرحلة الابتدائية. وكانت هذه الاستمارات تبدأ بالإسم، إسم التلميذ ونوع عمل الوالد ثم الدين، ولم تعجبني تلك الأسئلة فأجبت بأني لم أقرر ديني بعد ولم أكن قد تجاوزت العقد الأول من عمري، ومع هذا فقد كتبت بخط يدي على الاستمارة أمام خانة الدين: «لم أقرر بعد». وعندما

وقعت تلك الاستمارة في يد المدير قامت الدنيا ولم تقعد. وبعد محاضرة مطوّلة كان المدير فيها محتداً وغاضباً قال لي: هل تدرك أنك الآن وبقولك هذا تكون مرتداً عن الإسلام تستحق الرجم بالحجارة. فأجبته بأن ذلك يزيدني إيماناً بموقفي وأنه لم تتح لي فرصة دراسة الأديان الأخرى لأختار ديني عن وعي وإدراك. فزاده ذلك غضباً لأن هذا الكلام يأتي على لسان تلميذ في المرحلة الابتدائية يردده أمام أقرانه وزملائه في الفصل. ولم ينته الموقف إلا بطردي من المدرسة حتى إحضار والدي لمناقشة الموضوع والحصول على تعهد من نوع ما مني ومن والدي.

عدتُ في اليوم التالي إلى المدرسة دون أن أخبر والدي وقلت للمدير إن عمل والدي لا يسمح له بالقدوم إلى المدرسة وإني أحتفظ بصورة له فهل هذا يكفي؟ وإن مواقفي أحددها أنا لا أي إنسان آخر حتى ولو كان والدي وولي أمري. فأرغى المدير وأزبد وكاد ينهال عليّ ضرباً، إلا أنه كان يدرك، من جهة أخرى، أن عليه أن يعالج هذه المسألة بالحجة والإقناع لا بالضرب والقمع، وكان في مهمته تلك يريد الاستعانة بوالدي لعلمه أن والدي سيكون في صفّه وإلى جانبه. وانتهى الأمر بعودتي إلى المنزل وإحضار والدي الذي تداول سراً وعلناً مع الأستاذ الميقاتي، وتعهد والدي له بتسوية الأمر مؤكداً للمدير أن هذا كله ليس إلا من قبيل التمرد الذي تميزت به منذ تلك المرحلة المبكرة من عمري.

ومن مظاهره تمردي المبكر أنني كنت أعاكس رجل الدين الذي كان يأتي لإعطاء حصة الدين كل أسبوع. وكان كثيراً ما يضيق بأسئلتي ومواقفي واعتراضاتي، وقد قال أكثر من مرة متسائلاً كيف أطرح هذه الأسئلة وأنا ابن عائلة مسلمة ووالدتي امرأة تقية ورعة

ووالدي كذلك. وعندما رددت أمام والدتي ما قاله رجل الدين هذا تساءلت ضاحكة: كيف يتحدث هذا الشيخ عنّي وكأنه يعرفني وكيف يقول ذلك وهو لا يعرفني وبالكاد يعرف والدك، وإن كان يعرف أن أكثر عائلات طرابلس هي عائلات إسلامية متدينة ومحافظة.

والواقع أن والدي كان رجلاً متسامحاً، وكان يفضل دائماً معاملتنا شقيقي وأنا، بالعقل والحكمة والروية. كان لا يطرح آراءه وتعاليمه بشكل قمعي بل كان يحاول دائماً اللجوء إلى الحجة والإقناع. أما والدتي فكانت، رغم قيامها بواجباتها الدينية من صلاة يومية وصيام وغير ذلك، تساورها بعض الشكوك من حين لآخر، وقد سألتني أكثر من مرة بعد أن كبرتُ ودخلتُ الجامعة وتخرجت عمّا إذا كان هناك آخرة حقاً! وعندما كنت أجيبها بالنفي من قبيل الممازحة وكأني أقول لها إن صلواتها وصيامها غير ذات جدوى، كانت تجيب ضاحكة: لن أخسر شيئاً فإن كان هناك آخرة فأنا أقوم بواجباتي الدينية، وإن لم يكن هناك آخرة فلا يضرني ما أنا فاعلة.

ومن مظاهر تمردي المبكر أيضاً أنني كنت أضجر بالمدرسة والبيت والحارة وكل مكان، وكنت أفضل الخروج إلى الدنيا الواسعة، وذات يوم قررتُ ترك المنزل والرحيل وأنا طفل لا أزيد على العاشرة كثيراً. ولكن إلى أين؟ وليس معي نقود ولا أعرف خارج عالمي الضيق وخارج طرابلس، إلا خالتي في صيدا، وخالاً وخالة في بيروت، وخالاً آخر في قرية والدتي «بتوراتيج» وهي قرية تقع في الكورة جنوب شرق طرابلس على مسافة لا تزيد على عشرين دقيقة بالسيارة. وكنت قد ذهبت إلى تلك القرية بصحبة والدتي وغيرها أكثر من مرة مستقلاً إحدى السيارات القليلة التي كانت

متواجدة في ذلك الزمان، عند أول الخمسينات في منتصف هذا القرن.

وهكذا وجدتني في الطريق المؤدي إلى منطقة البحصاص أولاً، ثم شرقاً عند مفترق قضاء الكورة في الطريق إلى قرية «ضهر العين» أولاً ثم «بتوراتيج» بعد ذلك. إلا أن الطريق الصاعد استغرق من الوقت أكثر بكثير مما كنت أظن، فقد كنت أحسب أنني أستطيع أن أصل القرية بعد ساعتين من الزمان، وكنت قد انطلقت بعد الظهيرة قريباً من العصر، ولكن ها هي الشمس تغيب وأنا ما زلت عند تخوم القرية أصعد طريق وادي الزهر كما عرفت تسميته فيما بعد. وهو وادٍ كان جدي لأمي يملك أراضيَ فيه. شعرتُ بالغربة وأنا أصعد الطريق وقد بدأ التعب والوهن يتسربان إلى جسدي الفتيّ. وكادت الدموع تخرج من عيني وقد أخذ المساء يقترب مسرعاً، وإذا بي أسمع خبب أقدام قطيع. إلتفت واجلاً فرأيت قطيعاً من الغنم وراعياً يحدو القطيع بعد أن تأخر في عودته. نظر إليّ الراعي فعرفني وكان قد رآني في القرية في إحدى زياراتي السابقة. وإذ سألني إن كنت ابن فاطمة بنت حمد آغا، أجبت بالإيجاب واستأنست بالرجل الذي أخذني إلى بيت خالتي فذلك أقرب إليه. وكنت أنوي الذهاب إلى بيت خالي «حسني الحسن» فقد كان أقرب إليّ ومحباً لي وصاحب قلب كبير وعقل مستنير وكان معلماً ومن أوائل الذين درسوا في لبنان في مدرسة داريا وتخرج منها ليدرس هنا وهناك إلى أن انتهى به الأمر المعلم الوحيد في مدرسة قريته بعد أن افتتحت فيها المدرسة لأبنائها وأبناء القرى المجاورة.

أدركت خالتي وعائلتها أن الوضع غير طبيعي وأنها أمام حالة تمرّد

وهروب من المنزل، فاستقبلتني بهدوء، وبعد تناول العشاء على ضوء مصباح الكاز طرحت عليّ الأسئلة، وحرصت في اليوم التالي على إبلاغ أهلي في طرابلس عن مكاني في القرية.

ومن أحداث تمردي المبكر أنني في سن المراهقة وفي المرحلة التكميلية الإعدادية من الدراسة التحقت برحلة كشفية لكشافة من مدينة صور الجنوبية كانوا في طريقهم إلى اللاذقية. وكنت قد انتسبت إلى الكشاف قبل ذلك وشاركت في بعض المعسكرات الكشفية في أحراش قريتي «بشمزين» و«إيعال» من قرى شمالي لبنان. وقد تعرفت في تلك الرحلة إلى اللاذقية إلى بعض كشافة صور، ومنهم شاب كان يكبرني قليلاً وكان يحمل أفكار حزب البعث العربي الاشتراكي. فتحدثنا مطولاً وشدني إليه التزامه وتشابه أفكارنا. فقد كنت بدأت التعرف على النشاطات القومية العربية في طرابلس وغيرها. ولعل أكثر ما شدني إليه صورة له وهو جريح مضمد الرأس بعد أن ضرب بكعب البندقية على أيديّ الدرك، وكان يحمل تلك الصورة في جيبه مباهياً بها غيره، وقد وضعت نفسي في موضعه وتعاطفت معه كثيراً.

وذات يوم وقد سيطر عليّ حال من التمرد مما حولي في المدرسة والحارة والبيت، جمعت أغراضي وبحثت عن بعض النقود وخرجت في طريقي إلى صور وكان معي عنوان صديقي الجديد «حسين نعمة» على ما أذكر. وصلت إلى بيروت وكان معي حقيبة ثقيلة، فاستعنت بأحد الحمالين وذهبت إلى بيت خالتي في أول الطريق الجديدة مستقلاً مع الحمال (الترامواي). وقد حرصت أن أقول لخالتي إنني في طريق زيارتي لخالاتي في صيدا كما حرصت أن لا أخبرها بأني خرجت دون علم أهلي حتى لا يتكرر ما حدث

عند خروجي إلى قرية والدتي. وعلم أهلي بخبري في اليوم التالي. قضيت ليلتي في بيروت ثم غادرت في اليوم التالي إلى صيدا وقد حرصت أن أحمل معي صندوقاً من الحلويات الطرابلسية لكل من خالتي في بيروت وخالتي في صيدا حتى يكون شكل الزيارة رسمياً وعادياً لا يثير الارتياب كثيراً. وكما فعلت في ليلتي السابقة نمت في صيدا وتوجهت في اليوم التالي إلى صور للقاء صديقي الجديد، وهذا ما كان، إلا أن صديقي الذي كان أكبر وأوعى مني، أدرك أن الأمر غير طبيعي، وأنه لا يمكن أن يستمر كذلك وكان قد وجد لي مكاناً أنام فيه في الكلية الجعفرية التي كان تلميذاً فيها. وكانت الفترة فترة عطلة رسمية فبالإمكان استغلال المدرسة لغرض الإقامة المؤقتة مع بعض التلاميذ الداخليين أي الذين يقيمون إقامة دائمة في المدرسة. وقد اتصل حسين بأهلي دون علمي. وبعد أيام قلائل وعند الظهيرة وبينما كنت أقف أمام المسجد الرئيسي عند ساحة المدينة وجدت نفسي أمام والدي وجهاً لوجه. كان لطيفاً وهادئاً وقد فرح بي وفرحت به فبحثنا عن حسين الذي استقبل والدي بحفاوة بعد أن تعرّف عليه. وقد شكره والدي ثم استأذنه قبل اقتراب المساء. وعندما أخبرت والدي أنني أريد العودة إلى صور والدخول إلى الكلية الجعفرية، كان دبلوماسياً في تعامله معي ولم يعترض وأكدّ على ضرورة العودة إلى أمي التي لم ترني منذ أيام على أن يبحث موضوع الكلية الجعفرية لاحقاً.

في طرابلس كان اللقاء حافلاً إلا أنه كان هادئاً أيضاً فقد قرر أهلي معاملتي باللين والتفاهم لا بالزجر والقمع. وبعد مناقشات ومداولات أخبرت والدي أنني لا أريد العودة إلى المدرسة. ومع محاولاته بإقناعي بضرورة العودة إلى المدرسة كنت أزداد إصراراً على عدم العودة. وكان الفصل فصل صيف ووالدي يعرف أن

أمامه المتسع من الوقت لإقناعي، فتظاهر بالقبول ومضى يناقشني في ما أريد أن أعمل، واتفقنا على أن أصبح نجاراً معلماً (معلم نجار) كما يقال، فأخذني إلى ابن عمه واسمه «يمني» وكان نجاراً معروفاً فعملت معه بضعة أسابيع واكتسبت بعض الخبرة التي استمرت معي طيلة حياتي حتى اليوم. وكان أصدقائي في كندا يعرفون بإلمامي بشيء من النجارة وقد أطلق عليّ أستاذي الياباني الدكتور أزوتسو اسم «الفيلسوف النجار».

كان والدي قد اتفق مع ابن عمه المعلم «يمني» أن يقسو عليّ في العمل فلا أرغب فيه بل أعود إلى المدرسة، وبعد بضعة أسابيع فعلاً مع إدراكي التام وقناعتي حتى اليوم أنه كان بإمكاني أن أكون نجاراً مبدعاً ورجل أعمال كبيراً. وقد كنت وما زلت على قناعة تامة بأني أستطيع أن أنجح في أي عمل أختار. أذكر أني في صباي كنت أتردد على «صيدلية ملك» في أحد أسواق المدينة القديمة، وقد تعلمت كيفية تركيب بعض الأدوية، كما تعلمت حقن الأبر للزبائن، وقد أفادني ذلك فيما بعد فكنت أساعد الجيران ولا سيما الفقراء منهم لسنين.

ولولا أن سقطت تمرداتي أمام تصميم والدي الصامت والهادىء في أكثر الأحيان، والذي يلجأ إلى الحجة والإقناع عندما يتكلم ويناقش لا إلى الزجر والضرب كما كان يفعل غيره من أبناء جيله، لكنت الآن في موقع آخر عما أنا فيه اليوم... فالفضل كل الفضل يعود لوالدي الذي كان يكرر بين الحين والآخر أنه قد ورث قطعة من الأرض هي عبارة عن بستان ليمون على طريق «المئتين» التي كان الكثير من بساتينها ملكاً لجدي الأكبر لوالدي. وكان والدي يقول ويكرر أنه لن يتصرف بتلك التركة بل سيتركها لورثته إلاّ إذا

اضطر إلى تعليم ولد من أولاده. ولم يكن معه ما يمكّنه من تلك المهمة.

ذكرت أنني أمضيت سنتين أولاً في مدرسة الزاهرية (فرح أنطون) حصلت فيها على الشهادة الابتدائية بعد أن فزت قبل ذلك في الفصل أو السنة السابقة، وعندما عدت إلى مدير مدرسة الحدادين (الإمام الغزالي) وأخبرته بفوزي أجاب معانداً أنه ما زال عند رأيه وأنه كان من مصلحتي إعادة السنة حتى أواجه السنوات التالية بارتياح.

في المرحلة التكميلية بدأت الأفكار السياسية تغزو العقول الصغيرة شيئاً فشيئاً. بدأنا نسمع بحزب البعث العربي الاشتراكي والقوميين العرب والحزب القومي السوري الاجتماعي وغيرها، وبدأنا نسمع عن الصهيونية واليهودية والشيوعية وغيرها أيضاً. كان عدد من معلمينا ينتسبون للحزب الشيوعي وكانوا لا يتوانون عن طرح أفكارهم علينا يحكّون بها عقولنا البادئة بالتفتح. وكان منهم على ما أذكر الأستاذ كريم الذي كان يعلمنا اللغة العربية والأستاذ حمصي الذي كان يدرسنا العلوم. وكانت الأجواء في مدرسة فرح أنطون ملائمة من جهة أخرى للقوميين السوريين، فقد كان معظم الطلاب من الروم الأرثوذكس وهو المذهب الذي نشأ عليه أنطون سعادة مؤسس الحزب القومي السوري. وفي رأيي أن عنصر هذا المذهب لم يكن وراء حشد بعض الأرثوذكس في الحزب فقط، رغم أن سعادة استطاع أن يخترق الطوائف جميعاً بقوة شخصيته التي كانت شخصية كريزماتية، بل كان إضافة إلى ذلك عاملاً من عوامل صياغة العقيدة الاجتماعية. فلم تكن نسبة المسلمين الكثيفة في البلاد العربية خارج بلاد الشام أو الهلال الخصيب أو سورية

الكبرى لتريح سعادة دون أن يعني ذلك أن هذا العنصر أو العامل هو الأول في صياغة مبادىء الحزب، وعلى كل حال فليس هذا هو موضع مناقشة هذا الموضوع.

وقد حاول بعض السوريين القوميين استمالتنا، أخي وأنا، إلى الحزب تمهيداً لإدخالنا في صفوفه. أبدينا الاعتراضات ودخلنا في مناقشات حامية، خاصة وأن القوميين السوريين كانوا في تلك الفترة، فترة الخمسينات من القرن، متطرفين جداً في مواقفهم من العرب والعروبة بل ومن المسلمين خارج ما أسموه بسوريا الكبرى، رغم علمانية الحزب التي تتبلور في صفوف الأعضاء المبتدئين من الحزبيين من جهة، والتي كانت تحتاج إلى ظروف أكثر ملائمة لا إلى ظروف التجاذب والصراع التي كانت سائدة في تلك الفترة من جهة أخرى. وقد جاء إلى منزلنا في باب الرمل بعض الحزبيين القوميين الاجتماعيين يحذروننا أولاً ثم يتوعدونا ويهددونا بعد ذلك. وقد أثار ذلك شيئاً من الخوف في نفسي إلا أنني سرعان ما استعدت ثقتي بنفسي وجمدت، فكان ذلك كافياً في ردع هؤلاء الذين ما زلت أرى بعضهم عند ترددي على طرابلس واستمتاعي بجوب شوارعها وساحاتها وسوقها القديم وحاراتها العتيقة.

في السنة التكميلية الثالثة عدت إلى مدرسة الإمام الغزالي، وكانت الأجواء قد تغيرت كثيراً، فرغم أن الأستاذ عبد الله الميقاتي كان قد تقاعد واستبدل بمدير لا يقل عنه محافظة هو الأستاذ سميح مولوي، إلا أن انعكاسات هزيمة فلسطين وقيام ثورة الضباط الأحرار في مصر وغيرهما، أطلق العنان للحركات الوطنية ولحركة القومية العربية، وظهر تململ فئات الشعب المختلفة وخاصة المثقفين والطلاب والتلامذة. في هذه الفترة ظهر في مدرستنا وفي المدارس

الأخرى معلمون شبّان وأخذوا ينقلون أجواء النشاطات السياسية والتجمعات الحزبية والتحركات الوطنية والقومية.

كان من هؤلاء الأستاذ طلعت كريّم الذي كان يعلمنا الرياضيات، الهندسة والجبر، وكان شاباً طويل القامة عريض المنكبين أبيض البشرة أزرق العينين أمه ألمانية وأبوه طرابلسي. وقد أخذ عن أمه الشيء الكثير من طباع الألمان. كان قليل الكلام إلا أنه كان ناجحاً في كل ما يعمل. كان مدرساً ناجحاً حاز على شهرة كبيرة، واهتم بالسياسة فتجمع الطلاب حوله وراح يجندهم لمصلحة القوميين العرب. كان ذا شخصية كريزماتية إلى حد بعيد، وعندما أسس الكشاف العربي في طرابلس استطاع أن يجمع حوله مئات من الشبان المعجبين بشخصه. أما عندما ترك التدريس وانصرف إلى العمل وتأسيس الشركات الإنمائية، استطاع أن يجمع حوله نخبة من الشبان الناجحين. إلا أن طلعت كريّم كان قاسياً بحق نفسه، وكان يريد أن يغير طرابلس ولبنان والوطن العربي في ظرف سنين. كان يعمل ليلاً ونهاراً، ويتحرك كثيراً: يوماً في بيروت وآخر في دمشق وثالثاً في دبي أو الشارقة وساعات قليلة في طرابلس وأخرى في بيروت دون كلل ودون ما يكفي من الراحة والنوم. شكل طلعت كريّم ظاهرة فريدة واعدة إلا أنه سقط فريسة طموحه الكبير وأحلامه وآماله الواسعة. لم يحتمل قلبه الإرهاق البدني الذي لم يكن ليعبأ به.

نشأت بيني وبين طلعت كريّم علاقة ودٍ وعندما ترك الكشاف المسلم وأسس الكشاف العربي التحقتُ به، ثم طلبت إليه تنظيمي في إطار حركة القوميين العرب التي كان على اتصال بها في بيروت، فأحالني إلى المهندس برهان غلاييني الذي كان قد تخرج

لتوه من الجامعة اليسوعية في بيروت وانخرط في صفوف الحركة الفتيّة في بداية عمرها. كان برهان يبحث عن عناصر يبدأ بها الخلية الأولى في طرابلس وفي خلال فترة قصيرة تكونت الخلية الأولى من ثلاثة شبان من ميناء طرابلس: مصطفى صيداوي الذي كان معلماً في إحدى مدارس الميناء وقد اغتيل لاحقاً وسط الحرب اللبنانية، في منتصف الثمانينات، ورمضان الشعار الذي لم يطل به الأمر في الحركة بعد أن انتقل إلى بيروت ليعمل في شركة طيران الشرق الأوسط، وفاروق بيضون الذي غادر بعد فترة غير طويلة إلى ألمانيا للتخصص في الطب. إضافة إلى برهان غلاييني الذي أصبح فيما بعد نقيباً للمهندسين في طرابلس قبل أن توافيه المنية، والذي كان ينسق العمل مع مسؤول الخلية السيد مصطفى بيضون الذي كان يحضر أسبوعياً من بيروت للاجتماع بنا في دارة برهان غلاييني في أغلب الأحيان. أما أنا فكنت أصغرهم وتلميذاً في المرحلة التكميلية لا أزيد على خمس عشرة سنة من عمري. ومع انتقال رمضان وفاروق من طرابلس بقي المؤسسون الأوائل الحقيقيون للحركة: برهان غلاييني ومصطفى صيداوي والعبد الفقير. وأنا لا أتحدث هنا عن التنظيم الفلسطيني للحركة الذي نشأ موازياً للتنظيم اللبناني في المخيمات الفلسطينية كالبداوي ونهر البارد وغيرهما.

استهوتني أفكار القوميين العرب حتى قبل بدء تشكيلهم لحركتهم المنظمة، وكنت قد وقفت على هذه الأفكار من خلال بعض البيانات والأخبار التي كانت ترد من بيروت، ولست أدري لماذا نفرت من حزب البعث الاشتراكي والساعين إلى تأسيس فرع له في طرابلس في تلك الفترة أيضاً وكانوا جميعاً من معارفي ومن أصدقاء أخي طارق وزملائه. وكان أخي طارق يميل إلى البعث،

وقد ذهبت معه ومع مجموعة من الشبان الطرابلسيين إلى دمشق، وزرنا مقر الحزب ورأينا صلاح البيطار أحد مؤسسي الحزب وحييناه دون أن نتمكن من الحديث معه. وقد أعجبت بما رأيت، وبعد العودة إلى طرابلس كنا نجتمع في حلقات أسبوعية في بيتنا في لبعض الوقت وفي بيت هشام الأزمرلي في غالب الأحيان القائم في وسط المدينة القديمة في شارع ضيق متفرع من سوق النحاسين وشارع آخر في مواجهة سوق السمك المتفرع من سوق العطارين. ولأن للمنزل أكثر من مدخل وحرصاً على السرية الممكنة للاجتماع، كان منزل الأزمرلي أكثر ملائمة وصلاحية للاجتماع من بيتنا المكشوف على الساحة والحارة. إضافة إلى انكشاف غرفة الجلوس، التي كانت غرفة نوم ليلاً على شارع خلفي ضيق.

كان ذلك في منتصف العقد الخامس من القرن، وكان لي قبل ذلك محاولات لتأسيس تنظيم سري خاص فبدأت بعقد اجتماعات مع بعض زملائي: طارق بغدادي خاصّة الذي انتهى به المقام تاجراً ثم رجل أعمال في سويسرا، وغازي الحلاب صاحب محلات الحلويات الشهيرة في بيروت وقد التحق معي في حلقة من حلقات حركة القوميين العرب بعد ذلك، وعبد الرحمن الرافعي شقيق الدكتور عبد المجيد. وكانت علاقتي بطارق البغدادي قوية وقد استجاب مع أفكاري، فتحدثنا طويلاً عن مبادىء التنظيم وأفكاره، وأخذنا نكتب البيانات بخط أيدينا ونتركها في طبقات زملائنا وفي المحال التجارية لتقع في أيدي الناس فيقرأوها. وكانت تلك البيانات ذات طابع تحريضي. وقد فكرنا بطبعها وتوزيعها على نطاق واسع فلم نتمكن من ذلك إلا في حدود ضيقة بسبب عدم توفر الإمكانات المادية. وقد اقترح طارق البغدادي أن ندعو إلى اجتماع لبعض من كنا نتوخى فيهم الصلاحية ليكونوا النواة

التأسيسية للتنظيم، وتداولنا في الأسماء والأماكن المناسبة لعقد الاجتماع، وفكرنا في استئجار مركب والذهاب إلى جزيرة الأرانب القريبة من الميناء للاجتماع بعيداً عن الرقباء. وقد انتهى كل ذلك باختياري القوميين العرب طريقاً للعمل.

انجرفت في العمل السياسي مع القوميين العرب، وأخذ ذلك أولوية على كل شيء: تشكيل حلقات، تجميع أنصار، الإعداد لندوات، توزيع نشرات. وفي فترة متأخرة ترفيع الأعضاء في الحلقات إلى خلايا الخ.. أما دراستي في نهاية المرحلة التكميلية (الإعدادية) فقد أخذت الموقع الثاني بعد النشاطات السياسية. لم تكن المدرسة تشدني إليها كثيراً، إلا أن تواجد بعض المعلمين الذين كنت أحبهم وأحترمهم في المدرسة ورغبتي في إثبات كفاءتي العلمية أمامهم وأمام زملائي ورفاقي في العمل السياسي وإدراكي، حتى في تلك المرحلة المبكرة، أن الدرس يرفع معنوياتي ويحسن من صورتي أمام من أعمل معهم، كل ذلك جعلني أحرص على شيء من الدراسة يضمن لي الحد الأدنى من النجاح.

وأذكر أنني قبل موعد إجراء الامتحانات البريفيه الرسمية (= الشهادة التكميلية أو الإعدادية) بأيام قليلة ذهبت بصحبة بعض الزملاء والأصدقاء للسباحة على شاطىء البحر، وكان الموسم حاراً والشمس قوية، وعند عودتي إلى البيت في المساء أصبت بحمّى شديدة طرحتني في الفراش لأيام ومنعتني من القدرة على تناول الطعام، فكنت أتقيّأ كل ما آكله. وقد زاد ذلك جسمي ضعفاً وهزالاً. وقد تشكك والداي في قدرتي على المشاركة في الامتحانات الرسمية، ناهيك عن النجاح، فقلت لوالدتي إنني سأتقدم إلى الامتحانات وأنجح. فضحكت وقالت ممازحة غير

جادة: لو تمّ ذلك سأطوف الشوارع وفي يدي حلّة أقرع عليها.
وفي صباح يوم الامتحان قرر والدي أن يحضر سيارة أذهب بها إلى مكان الامتحانات في المدرسة السلطانية (وهي أقدم مدارس طرابلس الرسمية الحديثة، تأسست أيام الدولة العثمانية، وقد زارها الشيخ محمد عبده عندما أبعد من مصر إلى لبنان وألقى فيها بعض الدروس والمحاضرات) لأن قدميّ لم تكونا تقويان على حملي، وبعد قليل عاد والدي مع عربة تجرها الأحصنة، وكانت تستخدم بدلاً من سيارات الأجرة التي كانت قليلة جداً. وكانت هذه العربات تتخذ لها موقفاً في الشارع العام قريباً من مقهى موسى غير بعيد من منزلنا. ذهب والدي معي إلى المدرسة السلطانية وهو مهموم متفكر وتركني عند الباب بعد أن حاول أن يجد من يساعدني على الدخول والوصول إلى مكاني. وتقدمت من الامتحانات، وكانت تجري على مدى يومين، إن لم تخني الذاكرة. وعندما ظهرت نتائج الامتحانات بعد أسابيع قليلة كنت في عداد الناجحين، وكانت تلك مفاجأة للأهل خاصّة. وأذكر، دون أن أستطيع أن أؤكد ذلك، أنه كان عليّ أن أذهب بعد ذلك إلى بيروت للتقدم من الامتحانات الشفهية في مدرسة حوض الولاية، إلا أن ذاكرتي تتردد أمام هذه الواقعة التي تكون قد اختلطت في مخيلتي مع واقعة أخرى. وعلى كل فقد كان لشهادة البريفيه قيمة علمية. وكان بعض معلمينا، وخاصّة في مدرسة الزاهرية ومدارس أخرى، لا يحمل أكثر من تلك الشهادة.

بانتقالي من المرحلة التكميلية أو الإعدادية إلى المرحلة الثانوية من الدراسة وانتقالي إلى ثانوية طرابلس، وكانت تقع عند أحد منعطفات شارع عزمي، ومديرها الدكتور حسن الحجة، وهو أول مدير لها ومن الأوائل الذين حصلوا على درجة الدكتوراه الجامعية

الفرنسية التي شاعت لفترة قصيرة من الزمن، اختلف عملي السياسي واختلفت نشاطاتي وتحركاتي وعلاقاتي مع المشتغلين بالسياسة من الحزبيين وغيرهم ولا سيّما البعثيين. في السنة الثانوية الأولى ترشحت كعضو في رابطة طلاب المدرسة وفزت بأعلى نسبة من الأصوات ونجح معي عدد قليل من الأنصار، إلا أن البعثيين سيطروا على الرابطة وكان ذلك طبيعياً لأن كثيراً منهم كانوا في الصفوف العليا. وقد حسّن نجاحي الساحق من قدراتي على العمل بين زملائي، وكنتُ ألقى تشجيع بعض الأساتذة، وكان أحدهم قد انتسب إلى القوميين العرب أثناء دراسته في بيروت فكان سنداً قوياً لنا. صحيح أنني كنت قد انتخبت مندوباً عن مدرستي وأنا في المرحلة التكميلية، واشتركت في اجتماعات المندوبين، وكان بعضها يعقد في مقهى التل العالي، كما ساهمت في تنظيم الاضرابات والتظاهرات المتعددة، إلا أن الإطلالة من موقع الطلاب الثانويين تختلف كثيراً، وقد مكنتني من لعب دور داخل الحركة الطلابية أكسبني خبرة. إضافة إلى توطيد علاقات عبر التنسيق في طرابلس ومع بيروت.

بعد قضاء سنتين في ثانوية طرابلس انتقلت في السنة الثانوية النهائية إلى كلية التربية والتعليم الإسلامية، وكانت في بداياتها من أحسن المدارس. وهي ثانوية خاصة كانت تعد طلابها للالتحاق بالجامعات المصرية وتمنحهم المعدلات العالية التي تمكنهم من اختيار الكليات والفروع التي يرغبون بها، على عكس المعدلات الرسمية التي كانت دائماً متدنية جداً. ومع أنني حصلت على معدلات عالية إلاّ أنني اخترت كلية الآداب، قسم الفلسفة في جامعة القاهرة، وهو ما لم يكن يحتاج إلى معدلات مرتفعة، فالمعدلات

المرتفعة لكليات الطب والهندسة وغيرهما. إلا أنني لم أرغب إلا بدراسة الفلسفة لأسباب قد أعود إليها.

تابعت أثناء فترة الدراسة الثانوية، عملي السياسي والحزبي وأعطيته الأولوية على كل ما عداه، واستطعت مع قلة من الرفاق أن نؤسس العديد من الحلقات التي تعد الأشخاص للدخول في الخلايا التي شكّلنا بعضاً منها والتي كانت تتزايد مع الأيام. وكان يقوّي من عضدنا بعض الطلاب من بيروت والقاهرة وقد انتسبوا إلى الحركة أثناء دراستهم، وعودة بعض العمال من الكويت حيث تم تجنيد بعضهم في حلقات أو خلايا. كنت، إضافة إلى كسب المناصرين وتجنيدهم في الحركة، أقوم في البداية بتوزيع نشرات القوميين العرب على قائمة واسعة من الأسماء ولا سيما نشرة «الثأر» التي كانت تصدر منتظمة لعدد من السنوات، فكنت أغطي مساحة واسعة تكاد تشمل طرابلس كلها. كنت أنتقل من محل الخطاط إلى النجار إلى الساعاتي إلى الحلواني إلى صانع الأحذية. وكنت أتداول مع كل واحد منهم في بعض الموضوعات السياسية والوطنية قبل أن أمضي إلى غيره. كنت أميل إلى العمل مع العمّال والصناع وأرغب في تجنيد أكثر من يمكن منهم وإن كان عملي الأساسي بين صفوف تلاميذ المدارس، والمعاهد. وقد كان العمل بين هؤلاء أسهل من العمل بين العمّال والصنّاع بسبب المستوى الثقافي ودوام العمل وغير ذلك.

كان علي إضافة إلى ذلك، أن أوسع من ثقافتي ودائرة قراءاتي تكملة لدوري. وكنت منذ صغري أحب القراءة وأقتني الكتب والمجلات. كنت وشقيقي، ونحن في المرحلة الابتدائية من الدراسة نجمع ما توفر لدينا من المال القليل لنشتري الكتب والمجلات. كان

أولها مجلة الهلال القاهرية وكتب الأدب العالمي المترجمة. وقد اقتنيت الكثير منها بعد ذلك مما كان قد بدأ يصدر عن دار العلم للملايين. وما زلت أحتفظ ببعض الطبعات الأولى لهذه الكتب. ثم بدأت أميل إلى المجلات والكتب العسكرية كمجلة الجيش والجندي وغير ذلك. فكان عندي نواه مكتبة لا تتوفر عند من هم من عمري. وقد توسعت هذه المكتبة أثناء عملي السياسي الأول، وزادت عليها كتب السياسة الفكرية لقسطنطين زريق ونقولا زيادة ونبيه فارس وغيرهم، إضافة إلى سير العظماء وروّاد الفكر والسياسة. وكانت الحركة تمدنا ببعض الكتب أو بعض العناوين على الأقل، فكنت أقوم بقراءة هذه الكتب وتلخيصها وعرضها على الحلقات وحث الآخرين على القراءة والمناقشة في الحدود الممكنة. والواقع أن قراءاتي قد ساعدتني على النجاح في دراستي دون أن أبذل الجهد الذي كان يبذله غيري في دراسته ولا سيما في المرحلة الجامعية.

وفي سنة ١٩٥٧ أسّسنا النادي الثقافي العربي في طرابلس، وهو فرع للنادي الثقافي في بيروت، وكنت أحد المؤسسين القلائل ولا تحضرني الآن أسماء المؤسسين الآخرين وهي مدوّنة في سجل النادي، وكنت طالباً في المرحلة الثانوية. وقد كان لوجود مكان للنشاط والاجتماعات واللقاءات دور كبير في توسيع دائرة العمل. كثرت التحركات من مختلف الأشكال، الأمر الذي أثار حفيظة السلطات السياسية والأمنية خاصّة. وفي إحدى التظاهرات ألقي القبض على أحد الرفاق، يونس يونس، وكان من الناشطين في النادي، فزرع له أحد عناصر الأمن قطعة حشيش في جيب سترته في محاولة لاتهامه وزجّه في السجن والإساءة إلى سمعة النادي.

وقد تجند للدفاع عنه عدد من المحامين بمن فيهم المحامي نزار قباني أحد أعضاء الحركة في بيروت.

كان يونس يونس في تلك الفترة أقرب أصدقائي ورفاقي إليّ. كنا نعمل سوياً يومياً، وكنا في عمر متقارب ومرحلة دراسية واحدة. واستمرت صداقتنا الحميمة لسنوات. ولما كان يونس من فلسطينيي البداوي، فقد عرفت من خلاله حياة المخيمات الفلسطينية في لبنان. صحيح أني كنت قد زرت نهر البارد مراراً قبل ذلك إلا أن معايشتي ليونس وزيارتي الدائمة له، حيث كنا ننام سوية في بيته غالباً وفي بيتي أحياناً، جعلني أقف على معاناة الفسطينيين في المخيمات. وعندما تفرقت بنا السبل وسافر يونس ليعمل في قطر، وسافرت أنا إلى القاهرة للدراسة، ظلت الصداقة قائمة، وكان يونس يمدني بالهدايا والمال أحياناً باعتباره منتجاً في حين كنت أنا أتابع دراستي. ولم ينه هذه الصداقة سوى تصفية يونس جسدياً على يد أمن الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين الذي كان مسؤولاً فيه نتيجة خلافات داخلية واتهامه بالعمل لحساب فتح داخل الجبهة. ولا أحتاج لوصف مشاعر الغضب التي تملكتني عند معرفتي بقتل يونس وقد واجهت قيادة الجبهة وحاولت فضح هذه الممارسات إلى أن هُدِّدْتُ بمصير مماثل لمصير رفيق وصديق كان أعزّ الأصدقاء، بل كان بمثابة أخ حقيقي.

استمر النادي مركزاً للنشاط حتى منتصف الستينات عندما عصفت به التيارات الإيديولوجية التي قضت بعد ذلك على حركة القوميين العرب فتفرقت. وكنت قبل ذلك وبعد عودتي من القاهرة متخرجاً قد أصبحت رئيساً للنادي رغم إقامتي في بيروت، وقد وضعت برنامجاً ثقافياً للنشاط من محاضرات وندوات وأمسيات

شعرية شارك فيها أعلام مثل: محمود تيمور، زكي نجيب محمود، توفيق يوسف عواد، الشاعر القروي، وأدونيس الخ..

عند قيام الوحدة بين مصر وسوريا سنة ١٩٥٨، أصبح النادي مركز الاحتفالات والنشاطات الوحدوية. أذكر أننا كنا ننظم الرحلات إلى دمشق للاستماع إلى خطب الرئيس الراحل عبد الناصر ورؤيته فوق شرفة قصر الضيافة. وكانت الاستجابة الشعبية واسعة. وذات مرة نظمنا رحلة ضمت عدداً كبيراً من الحافلات ومئات المشاركين. فقررت النوم في النادي لأكون أول الحاضرين لتنظيم الرحلة وتوزيع الأشخاص بأسمائهم على الحافلات كل واحدة تحمل رقمها الخاص. كنت المسؤول عن أكثر هذه النشاطات وفي الليل شعرت ببرد شديد ولم أتمكن من النوم فوصلت الليل بالنهار. وعندما عدنا من دمشق مساءً لم أستطع النوم بسهولة من فرحي بنجاح الرحلة ـ الموكب.

إلا أن الحدث الهام والشخصي في نهاية مرحلة الدراسة كان قيام الانتفاضة المسلحة ضد كميل شمعون سنة ١٩٥٨ لاختياره حلف بغداد ومحاولة تطويق دولة الوحدة الفتية. وفي بداية هذه الانتفاضة قامت عدة مظاهرات في المدن اللبنانية ومنها طرابلس. وكان رشيد كرامي رئيس الحكومة السابق قد اعتكف في طرابلس احتجاجاً على نهج شمعون رئيس الجمهورية. وفي أحد الأيام الأولى للانتفاضة دعونا للتجمع في باحة المسجد المنصوري الكبير ـ كما جرت العادة ـ تمهيداً للتظاهر. وفي أثناء التجمع جاء رشيد كرامي فحمله أنصاره وبدأ يتحدث بهدوء عن ضرورة التهدئة والاحتكام للعقل لنرى ما سنفعله. فطلبت من الرفاق حملي على الأكتاف لإلقاء كلمة وقاطعته قائلاً إننا نريدها ثورة وحدوية تطيح

بالعملاء والخونة والمتآمرين ضد إرادة الجماهير، فهز رشيد كرامي رأسه وهو يتبسم وكأنه يتفق معي. وعند انطلاق المظاهرة وجدنا الجيش اللبناني يطوق مداخل المدينة الجديدة لمنع المتظاهرين. وعندما حاولنا التقدم أطلق الجنود النار علينا فسقط بعض القتلى والجرحى وسقط إلى جانبي أحد الرفاق من آل المرعبي وفارق الحياة على الفور.

بعد تفرق المظاهرة وخلو الشوارع من المارة قررت الذهاب إلى ميناء طرابلس للوقوف على تطورات الوضع هناك. وكانت لنا في الميناء قوى شعبية أكثر من طرابلس، فقد كانت الساحة شبه خالية لنا. وفي الميناء كانت المظاهرة على أهبة الإنطلاق عندما وصلتُ، وواجهت المصير نفسه وسقط إلى جانبي جرحى وقتلى. بعد ذلك وعند عودتي إلى طرابلس ألقت قوى الجيش القبض عليّ ومعي محمد اليماني (ابن أبي ماهر) وعند إنزالنا من الشاحنة أمام سراي طرابلس، حاول الجنود ضربي بكعب البنادق وكان اليماني يحاول حمايتي لمعرفته بأني لا أستطيع أن أحتمل هذا النوع من الضرب الوحشي.

حشرونا في النظارة، وهي غرفة عادية في سجن طرابلس الذي كانت تضمه سراي طرابلس في ساحة التل قبل هدمها. إلا أن عددنا كان كبيراً وقد انضم إلينا بعض الرفاق. فلم تكن النظارة معدة لاستقبال العشرات في وقت واحد. لم ينم إلا البعض القليل، وقد حاولت أن أغفو ولكن دون جدوى. وعندما جاء المحقق العسكري في اليوم التالي، بدأ استجواب كل فرد على حدة. وعندما جاء دوري كان باستطاعتي أن أذكر للمحقق أسماء أقربائي في القضاء، وكان من شأن ذلك أن يجعله يعيد النظر في

أمر إرسالي للسجن، ولكني أبيت ذلك. وكان ما كان فأرسلت إلى السجن. كانت التهمة الموجهة لي كبيرة وهي التحريض على العصيان المسلح والاشتراك في عصابة مسلحة.

وضعونا في غرفة كبيرة (قاووش) مستطيلة قاتمة الجدران، كان في القاووش العشرات، وكان أكثرهم من المجرمين واللصوص وأصحاب السوابق. إلا أننا لم نبق طويلاً في سجن طرابلس، ففي منتصف ليل اليوم التالي ساقونا في سيارة أو شاحنة عسكرية إلى بيروت. وكانت الشاحنة تضم ما يمكن تسميته بالمعتقلين السياسيين، وتواكبها قوة حراسة كبيرة. وعند ساعات الصباح كنا في سجن الرمل في بيروت. وقد هدمه أبناء بيروت أثناء حرب السنتين وضمت أرضه إلى جامعة بيروت العربية، ولم يبق منه إلا مدخله.

بقيت في سجن الرمل في بيروت ما يقرب من الشهرين ونصف الشهر، ثلاثة وسبعين يوماً على ما أذكر، كانت أياماً صعبة إلا أنها أكسبتني معرفة واسعة في العلاقات الإنسانية من جهة وفي أمور المخدرات من جهة أخرى.

فيما يتعلق بالعلاقات الإنسانية، اكتشفت أن كل قاووش في السجن يخضع لنظام صارم من العلاقات القائمة على منطق القوة. وأن المجتمع الإنساني الصغير لا يختلف كثيراً عن مجتمع القرود. ولعل المجتمع الإنساني الكبير هو كذلك أيضاً. في كل قاووش زعيم يفرض نفسه على الآخرين بفعل قوته البدنية أحياناً أو بفعل قوته القائمة على مناصريه ومؤيديه. وهو لا يصل إلى هذا الموقع إلا بعد صراع مع منافسيه الذين يضطرون للخضوع له. يجلس الزعيم عند مدخل القاووش ويتم التعامل مع المساجين من خلاله. كل

الطعام الخاص والهدايا التي تصل إلى الأفراد تخضع لرقابته فيختار منها ما يشاء ويترك الباقي لصاحب العلاقة. حول هذا الزعيم يجلس المقربون منه ويليهم أصحاب الحظوة... إلى أن نصل تدريجياً إلى الفقراء والضعفاء الذين يجلسون في أقصى القاووش قريباً من غرفة الخلاء الوحيدة في القاووش والتي يفصلها ستار من القماش هو بمثابة الباب.

حار المساجين في أمرنا، كيف يعاملوننا؟ وقد كنا كتلة وإن كان بيننا من لا نعرفهم ممن اعتقل معنا؟ جلسنا في صدر المكان في موقع هو أقرب إلى المدخل منه إلى قاع القاووش، فسكت الزعيم محاولاً اكتشاف قوتنا وموقعنا الاجتماعي من خلال ثيابنا وحركاتنا وكلامنا وعلاقاتنا. إلا أنه سرعان ما اكتشف أنه يجدر به احترامنا ومعاملتنا معاملة مختلفة عن الآخرين، وقد كان بعضهم بمثابة خدم وعبيد له ولحاشيته. وقد استطعنا بالتدريج أن ننتزع القيادة من هذا الزعيم التقليدي وأن نفرض نظاماً جديداً خالياً من الابتزاز ومصادرة حقوق الآخرين.

عقدنا الندوات السياسية والحلقات التثقيفية في القاووش، وهددنا بالإضراب عن الطعام في حال عدم الاستجابة لمطالبنا التي بدأت كبيرة ثم أخذت تتضاءل تدريجياً بحسب تطور الأحداث السياسية والحركات العسكرية. وقد نصحني آمر السجن ـ وكان من آل الحسامي، وكانت أكثر من توصية قد جاءته بحقي ـ أن لا أصعّد الموقف لأن الدولة بأسرها غائبة ومعطلة وأن الإضرابات عن الطعام وغيرها قد تذهب هباء دون نتيجة.

في السجن كان تجار المخدرات ناشطين، وكان بعضهم من المساجين الذين نقلوا تجارتهم إلى داخل السجن أو بالأحرى

وسعّوها فامتدت إلى السجن إضافة إلى استمرارها في الخارج. وكان بعض رجال الدرك من المشتغلين لحساب هؤلاء التجار. وقد عرفت من بعض المدمنين الذين كانوا معنا كل أنواع المخدرات وتأثيراتها المختلفة. وكنت أشهد بعضهم يتناول هذه المخدرات بما فيها حقن المورفين، وإن كانت نادرة، والهيروين والكوكايين وغيرها... وكان لكل صنف اسم خاص متعارف عليه بين التجار والمدمنين، كالعصفور والبلبل وغير ذلك. وكان تجار المخدرات يوفرون لهم كل ما يحتاجونه. وكانوا يغدقون على البعض فيكسبون ودّهم. أذكر أنني كتبت مذكرات تفصيلية عن المخدرات وعن انطباعاتي أثناء إقامتي في السجن، ولكني لا أعلم مصير هذه المذكرات الآن وقد تكون بين أوراقي المتروكة في بيروت، كما أتمنى، فهي تضيف الكثير إلى ما أذكره الآن وكله من الذاكرة التي بدأت تخبو وقد غاب عنها الكثير، ولا سيما الأسماء والتفاصيل.

في السجن كان بعض المساجين من غير المدمنين يقعون فريسة سهلة. ففي البداية تقدم المخدرات كهدية أو كتكريم أو رغبة في مساعدة شخص على نسيان همومه ومحنته، وبعد أن يتحكم به المخدر أو الصنف المعين يصبح ألعوبة في يد وسطاء التجار. وعندما كان رجال السلطة يفتشون المساجين كان المدمنون هم الضحية لا التجار والوسطاء، مع علم المسؤولين بحقيقة الوضع داخل السجن.

كان وضعي في السجن جيداً: علاقة طيبة بآمر السجن، احترام من قبل رجال الحرس أو الدرك، علاقة ممتازة مع رفاقي في السجن وخاصّة اليماني وغازي حلاق، طعام يأتي باستمرار. كان متعهد الطعام في السجن أحد رفاقنا وهو يمدنا بما نشاء، وهو خالد الوزان. وقد عرض عليّ يوماً أن يأتيني بمسدس، وبعد تداول

الفكرة رفضت العرض فقد أدركت أن ذلك يشكل خطراً كبيراً خصوصاً لأننا كنا بين مساجين عاديين ومجرمين، وكان بعضهم في حال يأس وعلى استعداد لفعل أي شيء. وقد وقع عدة قتلى أثناء إقامتي في السجن. وكان السلاح المستخدم قطعة من الصفيح تحف على الأرض حتى يصبح طرفها حاداً كالسكين.

قلت إن الوضع كان مقبولاً في السجن، وهذه قضية نسبية طبعاً، فمن جهة لم نتعرض لأي إهانات أو ضرب أو ما يشبه ذلك مما كان يقع لمساجين آخرين. وكان الطعام يأتي من الخارج ولم نأكل من طعام السجن إلا قليلاً، خاصّة وأن ابنتي خالتي سميرة ورفيقة كانتا تزودانني بالطعام والفاكهة. فخالتي كانت تقيم في بيروت وكانت سميرة ورفيقة من الناشطات في حركة القوميين العرب، وقد زاد ذلك من شدة العلاقة بيننا، كما كان دافعاً قوياً لزيارتي بشكل مستمر. وبسبب الطعام الوفير وقلة الحركة في السجن زاد وزني وابيض لوني، إلا أن ذلك لم يستمر طويلاً بعد خروجي فقد عدت إلى سابق عهدي مع عودتي إلى نشاطي المتواصل.

إلا أن الوضع في السجن عموماً كان سيئاً جداً، فالاستحمام مرة واحدة في الأسبوع وفي مكان مفتوح ولمدة دقائق حيث تسدل ستارة على باب غرفة ضيقة ويقف السجين تحت الماء الفاتر لمدة دقائق قليلة يصرخ فيه الدركي ليخرج بسرعة... وبسبب عدم توفر شروط النظافة، أو حتى الحد الأدنى من النظافة، كان القمل منتشراً بين المساجين. وقبل خروجي من السجن غزاني القمل كما غزا جميع المساجين، وكان منه نوع يسمى قمل طاطاي. وكان غير القمل العادي، يستقر عند جذر الشعرة في الرأس والحواجب وشعر الساقين والعانة... وكان المساجين على خبرة بهذا النوع من القمل

الذي يستطيع الانتقال سبعة أمتار في اليوم الواحد على حدّ زعمهم... ولم يكن من الممكن التخلص من هذا النوع من القمل إلاّ عن طريق حلاقة الشعر من جهة والمعالجة بالأدوية التي لم تكن متوفرة في السجن من جهة أخرى. فكان علي الانتظار حتى خروجي من السجن لأتخلص من هذه الآفة المزعجة جداً جداً...

في الشهر الأخير من إقامتي في السجن، التحق بنا محسن إبراهيم، فبقي معنا أسبوعاً ثم خرج بكفالة لأتبعه أنا وباقي الرفاق، فكانت نهاية تجربة مهمة لن أنساها.

في يوم خروجي من السجن توجهت إلى طرابلس، ولم أدر كيف وصلت. فقد كانت بيروت موزعة بين الجيش ورجال المقاومة، وكذلك كان الوضع في طرابلس. كان رجال الجيش وأهل السلطة يسيطرون على المدينة الجديدة، ورجال المقاومة يسيطرون على المدينة القديمة. وعمليات القنص متبادلة بين الطرفين، وأذكر بعد ذلك أننا كنا نمشي في طرق خاصّة لا تراها أعين القناصة في انتقالنا من مكان إلى آخر في المدينة القديمة، ولا سيما عند الهضبات كمناطق الرفاعية وأبي سمراء والقبة.

التحقت بالرفاق في الحركة لأجد أن تطورات كثيرة قد حصلت أثناء غيابي وابتعادي، منها دخول عناصر كثيرة جديدة في صفوف المقاومة كما كانت تسمى وفي صفوف الحركة. ومنها إيفاد عناصر قيادية في الحركة من مناطق أخرى لتنظيم هذه العناصر الجديدة. وكان من هذه العناصر القيادية نايف حواتمه الذي سرعان ما توطّدت العلاقة بيني وبينه واستمرت كذلك. وقد استطاع نايف حواتمه أن يلعب دوراً جيداً بين صفوف العناصر الشعبية. ورغم التطورات الكثيرة اندمجتُ في العمل، وكُلّفتُ بإدراة إذاعة

خاصة كانت تبثّ من فوق سطح إحدى العمارات في منطقة أبي سمراء. إلا أنها كانت إذاعة بدائية تفتقر إلى الكثير، وكان علي أن أكتب وأقرأ وأذيع في أكثر الأوقات وأضع بعض الأغاني أثناء فترة البث، أما الأوقات الأخرى فكنت أقضيها في الاجتماعات والاتصالات والتنقل والحركة الدائمة. وقد استمر الأمر كذلك حتى انتهاء الأزمة التي عرفت باسم ثورة ١٩٥٨.

طبعاً لم ترقَ حركة العصيان والتمرد هذه إلى مستوى الثورة، فكل شيء عاد بعد انتهاء الأزمة إلى سابق عهده. ومع ذلك حملت هذه الحركة بذور ثورة حقيقية: شهداء ورجال على استعداد للموت في سبيل قضية يؤمنون بها، وعناصر شعبية وضعت طاقاتها في خدمة القضية ومدت يدها للقيادات الحزبية والتنظيمية متعاونة معها، ورجال فكر وعلم جندوا طاقاتهم. حتى أن المحامين حرصوا على إنشاء محاكم شعبية حتى تكون المحاكمات عادلة ووفق منطق القانون والعقل والمصلحة العامة. شباب وشابات، صغار وكبار، طلاب وعمال كانوا على استعداد لوضع طاقاتهم. في خدمة قضية آمنوا بها. ولكن أين القيادة التي تستطيع أن تتحول بهؤلاء جميعاً إلى حركة جماهيرية منظمة واسعة وواعية؟

مع تقدم فصل الصيف سنة ١٩٥٨ بدأت الأزمة بالحلحلة التدريجية، وراح الطلاب يستعدون للامتحانات وخاصّة طلاب السنوات النهائية في الثانويات لأنهم كانوا على أبواب الجامعات. وهكذا استعددتُ قليلاً للامتحانات ودخلتها مع زملائي في كلية التربية والتعليم الإسلامية التي كنت قد انتقلت إليها لأنها تعدّ الطلاب للدراسة في الجامعات المصرية. وقد حصلت على معدلات عالية ولكنني لم أكن أرغب في دخول الكليات العلمية

والتطبيقية كما كانت تخولني علاماتي أو معدلاتي العالية. وعندما تقدمت بطلبي إلى الجامعات المصرية اخترت دراسة الفلسفة والفلسفة فقط. كان على الطالب أن يسجل أولوياته بالتدريج، الطب، الهندسة، التجارة الخ... ولكني اخترت الفلسفة دون غيرها. وهكذا قبلت في قسم الفلسفة في كلية الآداب في جامعة القاهرة، وهو أمر لا يحتاج لمعدلات عالية كما ذكرت. كان في كلية التربية والتعليم التي تخرجت منها في طرابلس بضعة أساتذة متميزين:

- الأستاذ الولي وكان يدرس التاريخ ويقود المظاهرات الوطنية في بعض الحالات، كان وطنياً مندفعاً.

- الأستاذ مكّوك، وكان يدرس العلوم، ويقوم ببعض التجارب المخبرية وكانت له آراء خاصّة في السياسة كاعتبار شمال أفريقيا خارج إطار الأمة العربية.

- الأستاذ تدمري وكان يدرس الفلسفة العربية ـ الإسلامية. وكان فيما يبدو معجباً إعجاباً خاصاً بتوحّد ابن باجّة وعزلته، وقد نقل حب الفلسفة والاهتمام بابن باجّة إليّ. كان يدرّس الفلسفة بكل جوارحه ويسكب فيها عواطفه. وكنت على استعداد لحب الفلسفة لأني كنت أحمل الكثير من التساؤلات عن الكون والعالم والإنسان والحياة. فإذا أضفنا إلى ذلك أنني كنت أعتبر الفلسفة من أهم ما أسهم فيه العرب والمسلمون، وأنها تحمل أسباب الازدهار الفكري وحرية الرأي، عرفنا السبب في رغبتي الملحّة في دراسة الفلسفة.

كانت الاستعدادات للانتقال من طرابلس إلى القاهرة قد بدأت:

ترتيبات مع الحركة وترتيبات عائلية، وترتيبات للسفر، والوقت يمضي سريعاً، والأسرة كأنها مجندة لخطوة الانتقال هذه.

أحداث مهمة وقعت أثناء فترة تكويني الأول، أخطرها وأكثرها تأثيراً، كانت هزيمة فلسطين وقيام دولة إسرائيل. لقد كان من شأن تلك الواقعة أن تهز العروش وتصدع الأنظمة. ففي عقد واحد من الزمان تغيّرت الأنظمة السياسية في كثير من البلاد العربية ولا سيما القريبة من فلسطين. كان أهم تلك التغيرات ثورة الضباط الأحرار في مصر، فقد كان من شأن هذه الثورة كما يحب أصحابها أن يسموها أن تفعل هي بدورها في البلاد العربية شعباً وحكومات ما لا يقل عما فعلته الهزيمة نفسها. صحيح أن الشرارة الأولى كانت من فعل الهزيمة، إلا أن ثورة يوليو طورت تلك البداية واستوعبت كل التفاعلات الأولية الناتجة عن الهزيمة.

كان من نتائج حرب ١٩٤٨ في فلسطين قيام حركات شعبية هنا وهناك صبت في غالبيتها في حركة القومية العربية التي قادها حزب البعث العربي الاشتراكي وحركة القوميين العرب. فقد انتقلت حركة القومية العربية من حركة ضيقة النطاق تتنافس مع تيارات فكرية وسياسية إقليمية ودينية إلى حركة جماهيرية واسعة أصبحت لها الكلمة الأولى في منطقة الهلال الخصيب بالدرجة الأولى وفي أقطار عربية أخرى. انتشرت تنظيمات حزب البعث وحركة القوميين العرب في جميع البلدان والأقطار العربية ولو بدرجات متفاوتة ولم يُستثنَ من ذلك أي بلد عربي. من اليمن إلى الكويت والبحرين وقطر إلى مصر والسودان إلى لبنان والمشرق العربي حيث انطلقت هذه الحركة.

في هذه الفترة كانت بعض الأنظمة تقطف ثمار استقلالها ولا

سيما في ميداني التربية والتعليم وكان بعضها الآخر يقاتل من أجل هذا الاستقلال ضمن إطار حركة تحرر عربي واسعة في المشرق والمغرب، فقد استقطبت حرب الجزائر اهتمام ودعم وتأييد الجماهير العربية في كل مكان. كانت التظاهرات تعم الوطن العربي وكانت حركة الدعم المادي والمعنوي واسعة يرادفها حماس وطني أصيل، فكان ذلك من أهم عوامل تعزيز حركة التحرر العربي هذه...

ثغرة أساسية واحدة كانت تشوب حركة التحرر الوطني وحركة القومية العربية في بدايتها وهي معاداة الشيوعية التي كانت بدورها تبادل حركة القومية العربية العداء نفسه. ومما يؤسف له أن الأمور لم تصطلح إلا متأخرة وأكاد أقول بعد فوات الأوان.

في ظل هذه الأحداث والتيارات والحركات والتطورات كان التكوين الأول. وكان من الطبيعي أن تفعل هذه الأحداث فعلها في تكوين فتى ولد ونشأ في مدينة طرابلس وهي كأي مدينة عربية أخرى. نابلس أو حلب أو بغداد أو بور سعيد أو مراكش، لا يمكن إلا أن تكون وطنية وعربية تصنع أبناءها وتعدهم للمستقبل. في الأسرة وفي المدرسة وفي الشارع السياسي وفي إطار الحركة الوطنية والعربية في العقدين الرابع والخامس من القرن العشرين كان تكويني الأول، وكان الفصل الأول من الفصول الأربعة التي شكلت شخصيتي الفكرية والسياسية وحددت دوري في الحياة.

الفصل الثاني

القاهرة

أعتقد أن السبب الذي جعلني أختار السفر إلى القاهرة بالباخرة، وعن طريق اللاذقية - الإسكندرية، هو أن بعض معارفي من الطلاب الذين كانوا يدرسون في القاهرة، اختاروا تلك الطريق التي كانوا يعرفونها ولأنها أرخص الطرق.. كل ما أذكره الآن وبعد مضي ما يقارب أربعة عقود هو أنني وجدت نفسي بصحبة هؤلاء الزملاء الذين يكبرونني سناً في طريقنا إلى اللاذقية.. كانت أول مرة أسافر بها بالباخرة، والواقع أنها كانت آخر رحلة لي بالباخرة أيضاً، فبعد تلك الرحلة كانت كل أسفاري بالطائرة.

في اللاذقية ذهبنا إلى الميناء وحجزنا للسفر على إحدى البواخر المصرية التابعة للشركة الخديوية للملاحة البحرية على ما أذكر، وكانت الباخرة تحمل اسم أحد خديويي مصر من أسرة محمد علي التي حكمت مصر منذ مطلع القرن التاسع عشر حتى منتصف القرن العشرين وقيام ثورة الضباط الأحرار. ولست أدري لماذا خيل إليّ أن تلك الباخرة هي إحدى تلك البواخر التي صنعت

في عهد محمد علي باشا في النصف الأول من القرن التاسع عشر. لعل إسم الباخرة وإسم الشركة هما السبب، ولعل قدم الباخرة وشكلها العام هو سبب آخر.

المهم أنني كنت مأخوذاً جداً بحركة الناس في المرفأ وبالحمالين والبحارة والبحر وكل شيء. بعد الظهيرة عندما بدأت الباخرة تنسحب رويداً من الميناء، كانت المدينة تبعد وتصغر شيئاً فشيئاً حتى تلاشت كما يتلاشى الطيف ووجدتني في الباخرة بين الماء والسماء. كانت الأمواج الخفيفة تلاعب السفينة فتحدث هزات صعوداً وهبوطاً، وأحسست بشيء من الغربة تصحبها رهبة، فنحن الآن في وسط هذا الماء الذي يبدو بلا حدود تعلونا السماء المزينة بالنجوم التي لا حصر لها، وضع جديد غريب لم آلفه أو أعرفه من قبل وأخذتني أفكار جديدة إلى حدود جديدة. ولولا دوار البحر الذي بدأ يتسرب إلى رأسي لتابعت تأملي الذي أمدني بنشوة فريدة لا أنساها. إلا أن جمجمتي بدأت تدور وتدور كما كان يحدث معي عندما كنت طفلاً ألعب مع رفاقي بأن ندور حول أنفسنا دوراناً متسارعاً فنحس بدوخة وقد نقع على الأرض منتشين ضاحكين.

في صباح اليوم التالي وقبل شروق الشمس أطلت مدينة الإسكندرية، كان المنظر رائعاً لا ينسى، ومع اقتراب السفينة من المرفأ كانت معالم البانوراما تتضح وكان سحر المدينة يزداد وحركة السفن والمراكب في المرفأ تزداد. وأخذ صوت المدينة يصل إلى مسامعنا، ويرتفع تدريجياً، وظللت مأخوذاً بالمنظر وتبدله وبالصورة وتعدد أشكالها حتى وصلنا المرفأ وغرقنا في إعداد حقائبنا وحملها تمهيداً للنزول إلى الرصيف. وقد أخذ رفاق الطريق يعيدون على

مسمعي نصائحهم في الحذر من اللصوص والنشالين. وعندما وطأت أقدامنا رصيف المرفأ شعرت بسعادة بالغة رغم دوار البحر الذي ظل يلازمني حتى وصولي إلى القاهرة بل وحتى اليوم التالي. ومع ذلك كان كل شيء جميلاً، ولكن الأمور لم تكن بتلك السهولة. فقد كان رجال الجمرك في شك من أمر كل مسافر، وكان الحمالون يعقدون الأمور بدلاً من تسهيلها وقد استغرق ذلك وقتاً طويلاً قبل أن نتمكن من الخروج إلى حيث أسرع أحدنا للاتفاق مع سيارة أجرة لنقلنا إلى محطة القطار ومنها إلى القاهرة.

في القاهرة أقمت مؤقتاً مع بعض الأصدقاء، ثم وجدت لنفسي سكناً في شقة صغيرة في شارع الدقي قريباً من ميدان الدقي. كانت الشقة تستخدم للاجتماعات الحزبية واللقاءات مع الأصدقاء. ولم أقم طويلاً هناك فقد قررت الانتقال إلى شقة أخرى قريبة أشارك فيها اثنين من أعضاء الحركة، زياد الحسيني وإبراهيم قبعة، توفي زياد الحسيني منذ عشر سنوات تقريباً وكان يقيم في الضفة الغربية في ضواحي القدس، وقد ترك وراءه زوجته المصرية الأصل وبناته، أما إبراهيم قبعة فهو صاحب مكتب محاسبة قانونية يقيم في عمان وهو شقيق تيسير قبعة عضو قيادة الجبهة الشعبية. وقد التقينا نحن الثلاثة أثناء زيارتي الأخيرة لعمان للمشاركة في إعداد ندوات تلفزيونية من جهة والمشاركة في المؤتمر الفلسفي العربي الأول الذي عقد في جامعة عمان من جهة ثانية. وقد كان لقاء طيباً جددنا فيه الذكريات وضحكنا كثيراً كما كنا نفعل على مقاعد الدراسة الجامعية. أهم ما بقي من ذكرياتي عن شقتي الأولى إضافة إلى الاجتماعات المستمرة، هو صوت مزمار رجل أعمى كان يعبر شارع الدقي كل مساء مع غياب الشمس. كان اللحن الذي يعزفه الرجل لحناً حزيناً، إلا أنه كان من أجمل ما

رسخ في ذاكرتي من ألحان، وقد ندمت كثيراً لأني لم أفكر في تسجيل صوت مزمار ذلك الرجل الضرير، الذي كان رفيقي في المساء وكنت أنتظره مع غروب كل شمس.

في الشقة الثانية التي لم تبعد كثيراً عن الشقة الأولى (نصف كلم تقريباً) ازدادت الاجتماعات وتحولت الشقة إلى واحد من مراكز العمل الحزبي. وكان يعيش في القاهرة في تلك الفترة بعض الطلبة الذين طردوا من الجامعة الأمريكية في بيروت مثل رمزي دلول من أعضاء حركة القوميين العرب الذين أصابوا ثراءً واسعاً فيما بعد. بُعيد تخرجه عمل رمزي في الأمم المتحدة وكنت أزوره كلما زرت نيويورك وقامت بيننا علاقة ودّ قوية.

كان الحكم دروزة قد وضع كتاباً عن «**الشيوعية المحلية ومعركة العرب القومية**» وكان يعتبر من باحثي ومفكري حركة القوميين العرب. وكان الكتاب من أقسى ما كتب ضد الشيوعية والشيوعية المحلية خاصةً، وقد باعد الكتاب بين الشيوعيين والقوميين. وكان من الواضح أن الكتاب ينقد مواقف الشيوعيين إلا أنه كان ينطلق من منطق المعاداة لأفكارهم وعقيدتهم. وقد تخلى القوميون عن هذا الكتاب وأخفوه فيما بعد إلا أنه سبب ضرراً بالغاً بين صفوف أعضاء الحركة، كما أن أعداء الشيوعية أفادوا منه وروّجوا له. والمهم أن مؤلف الكتاب كان من أهم باحثي الحركة اليمينيين وقد عيّن مسؤولاً عن اللجنة الفكرية كما عينتُ عضواً في تلك اللجنة بسبب قراءاتي الواسعة وقدرتي على المناقشة وطرح الأفكار، وذلك إضافة لمسؤوليتي الأساسية وهي كوني عضواً في اللجنة المسؤولة عن فرع حركة القوميين العرب اليمني في القاهرة. وكانت مهماتي تتسع لتشمل تعبئة اليمنيين في صفوف الحركة والاجتماع مع

لجنتهم المسؤولة والتعرف بقادة اليمن من اللاجئين السياسيين في القاهرة ومرافقة الوفود اليمنية التي تزور القاهرة لأسباب سياسية والترويج لمواقف الحركة الخ...

لم تنجح اللجنة الفكرية ولم تستمر في عملها طويلاً، أو لعلها استمرت بدوني، إلا أن عملي في صفوف اللجنة المسؤولة عن اليمن واليمنيين استغرق أكثر وقتي. وكان أوّل من نشأت علاقة طيبة بينه وبيني من اليمنيين هو سلطان علي عمر؟ أو سلطان العبس كما كان يعرف في القاهرة الذي كان له شأن مهم في اليمن فيما بعد، حيث كان يقود إحدى الفصائل اليمنية المتقاتلة. وقد قابلته لآخر مرّة عندما زرت اليمن سنة ١٩٩٠ بمناسبة تهنئة اليمن بالوحدة، وكان سلطان يحضر اجتماعات مجلس الشعب الموحد، وكنا نقيم سوية في فندق واحد.

عرّفني سلطان باليمن وأحواله وكان اليمن ما زال تحت حكم الإمام أحمد، وأخبرني أن والده كان يعمل مصوراً للإمام وأنه بفضل تلك المهنة استطاع الخروج إلى القاهرة. وأعلمني سلطان عن كل ما كان يجري في اليمن الشمالي خاصّة. وكان يجيب على كل أسئلتي حتى تكونت بيني وبينه صداقة خاصة كانت من عوامل إلمامي الواسع باليمن واليمنيين المقيمين في القاهرة. كما ساعدني على توسيع دائرة علاقاتي باليمنيين في القاهرة كوني أصبحت مراسلاً لمجلة الحركة الصادرة في بيروت، وهي مجلة الحرية. كانت مقابلاتي للسياسيين اليمنيين تحمل صفتين، صفة الصحافي اللبناني، وصفة عضو حركة القوميين العرب. كنت أرجح صفة على أخرى بحسب مقتضى الحال.

كان من اليمنيين المقيمين في القاهرة القاضي أحمد محمد النعمان،

والشاعر اليمني الشهير محمد محمود الزبيري، وكانا من اللاجئين السياسيين، وقد زرتهما عدة مرات وأجريت معهما مقابلات صحفية. وقد أهداني الزبيري دواوينه الصغيرة وبعض كتبه ونشأت بيني وبينه علاقة طيبة تعدّت حدود الصحافة والسياسة وبلغت حدود علاقة الأخوة والصداقة. إلا أن علاقة الصداقة الوثيقة فكانت مع يمني لاجىء سياسي كان له شأن كبير فيما بعد وهو قحطان الشعبي، الذي أصبح رئيساً للجمهورية في اليمن الجنوبي. كان قحطان يقيم في فيلا في شارع الدقي غير بعيد من المكان الذي كنت أقيم فيه. وكنت أزوره في المساء فنتحدث طويلاً وقد نذهب إلى أحد المقاهي. وأذكر أننا مرة قررنا الذهاب إلى أحد ملاهي منطقة الهرم وكان معنا محمود طبو الذي أصبح محامياً ونائباً في البرلمان اللبناني بعد ذلك. وكان أهم ما دفعنا إلى الذهاب إلى ذلك الملهى رغبتنا في مشاهدة رقصة الزار التي كانت تقدم ضمن برنامج السهرة، ولم نستمتع كثيراً بباقي فقرات البرنامج فتركنا مبكرين.

كان قحطان الشعبي أحد مصادر معرفتي الواسعة باليمن. كان يزوره بعض شيوخ القبائل، وينظم الوفود من اليمن إلى القاهرة وكنت أنضم إلى تلك الوفود في زياراتي للسياسيين ورجال الأعلام ورؤساء التحرير. وأذكر مرة أننا كنا نطوف مع وفد كبير يضم عدة رؤساء قبائل مع رؤساء تحرير الصحف القاهرية، وعندما وصلنا إلى مكتب ناصر الدين النشاشيبي، وكان رئيساً لتحرير الجمهورية، أخذ قحطان يقدم أعضاء الوفد ثم أراد أن يعرّف بي فقاطعه ناصر الدين النشاشيبي قائلاً نعم أعرفه جيداً ولم أكن أعرف النشاشيبي، ولم أكن قد التقيت به قبلاً، ولست أدري ما إذا كان يعرف عني حقاً، أم أن تلك طريقة في التعامل أو اختصار الوقت والدخول في

الموضوع. ولم تتح لي الفرصة بعد ذلك لمعرفة حقيقة هذا الأمر. والمهم أن قحطان كان مصدر معلومات واسع. وكانت أحاديثي معه تضيف، أسبوعاً بعد أسبوع، إلى معرفتي باليمن سياسياً وحضارياً وثقافياً وغير ذلك، كثيراً. أما قحطان نفسه فكان رجلاً عنيداً جداً. لم يكن سياسياً مرناً ولم يكن على استعداد للتعاون والتفاهم مع خصومه السياسيين، ولم يكن واسع الثقافة، إلا أنه كان على معرفة واسعة باليمن وأحواله وبالقبائل اليمنية وشيوخها وقد أخلص لقضيته. ولعل عناده هو الذي أودى به بعد ذلك عندما كان في صنعاء بعد أن اتهم بالجنون.

كان النعمان سياسياً محنكاً وهو والد الوزير السفير محمد أحمد النعمان. أما الوالد فكان أبعد عن السياسة وأقرب إلى العلم والأدب وأكثر اهتماماً بالشعر إلى أبعد الحدود، إنساناً بمعنى الكلمة محبوباً من كل من عرفه.

أحمد محمد النعمان ومحمد محمود الزبيري والقاضي عبد الرحمن الأرياني هم مؤسسو وقادة الحركة الوطنية اليمنية منذ أربعينات هذا القرن. اضطلع النعمان بدور بارز فيها منذ بداية الأربعينات. وقد استطاعت هذه الحركة أن تضم في جنباتها أفضل الرجال من مختلف المناطق والاتجاهات، وازدادت أهمية هذه الحركة عندما، انتقل قادتها من تعز إلى عدن في منتصف الأربعينات حيث تحولت عدن إلى قاعدة لمناهضة الإمام يحيى. ورغم محاولة الإمام أحمد الذي كان ولي عهد الإمام يحيى في ذلك الحين أن يعيد النعمان والزبيري إلى الشمال، إلا أنه لم يفلح في تلك المحاولة. وقد استطاعت الحركة الوطنية بقيادتها الواعية أن تنظم أول ثورة من نوعها في البلاد العربية وهي الثورة ضد الإمام

يحيى سنة ١٩٤٨ والتي استطاعت الاستيلاء على صنعاء فترة تزيد عن الشهر. ومع فشل هذه الثورة والقبض على الذين شاركوا فيها وإيداعهم سجن حجّة، أعدم معظم الذين شاركوا في الثورة إلا أن قادتها الثلاثة النعمان والزبيري والأرياني استطاعوا النجاة بتدخل الأقدار حيث لم تتمكن الطائرة التي أقلت هؤلاء الثلاثة من الهبوط في مطار صنعاء.

أثناء الاعتقال، استطاع هؤلاء القادة وعلى رأسهم النعمان أن يؤسسوا بواسطة بعض مؤيديهم أول مدرسة تعنى بتدريس العلوم الحديثة في مدينة حجّة. فقد كان التعليم في حال توفره مقصوراً على النمط التقليدي والعلوم الدينية. وقد استطاعت هذه المدرسة توفير العناصر القيادية قبل قيام ثورة سنة ١٩٦٢ وبعدها. وعندما أطلق سراح هؤلاء القادة حاول الإمام أحمد أن يحتضنهم إلا أن النعمان والزبيري تمكنا من التخلص من رقابة الإمام والفرار إلى القاهرة حيث أفادا من المناخ الثوري والوطني الذي وفرته ثورة الضباط الأحرار سنة ١٩٥٢. وكان النعمان يبث أفكاره ومشاريعه ومعارضة الإمام أحمد من إذاعة صوت العرب في القاهرة حتى قيام ثورة سنة ١٩٦٢. استشهد الزبيري وقضى النعمان سنواته الأخيرة في سويسرا قريباً من أطبائه إلى أن توفي مؤخراً. أما الأرياني فما زال على قيد الحياة حتى كتابه هذه السطور.

توسعت دائرة علاقاتي بالطلبة اليمنيين منذ الأشهر الأولى لإقامتي في القاهرة. كان سلطان وغيره يعرّفونني بهؤلاء من خلال دعوتي إلى تجمعاتهم ولقاءاتهم، أو من خلال افتعال مناسبة أو لقاء جانبي، وكنت أضرب المواعيد مع معارفي الجدد إفرادياً لنتبادل الحديث. فإذا وجدت استعداداً عند الشخص استمرت جلستنا وطال حديثنا

وضربنا موعداً آخر. أما إذا وجدت عدم استعداد فإني أختصر الحديث وأنهي المقابلة حرصاً على وقتي من الضياع. وأذكر في خلال إحدى رحلاتي الأخيرة إلى اليمن، وفي جلسة قات بعد ظهر أحد أيام ربيع سنة ١٩٩٠ في منزل الدكتور عبد العزيز المقالح، كان أن خاطبني الشاعر المصري الشعبي زين العابدين فؤاد على ما أذكر، متحدثاً عني مشيداً بدوري الثقافي في بيروت مشيراً إلى لقاءاتنا فيها. ولما كنت لا أذكر أنني التقيت به أكثر من مرة واحدة وعابرة في بيروت، فقد شعرت أنه يتمسح بي لتقوية موقفه أمام اليمنيين الذين كان يقيم بينهم بعد أن شعر بعلاقاتي الحميمة معهم واحترامهم الشديد لي ولدوري السابق في اليمن قبل قيام الجمهورية. وأذكر أن الدكتور علي الشامي خاطبني قائلاً:

«في لقائي الأول والوحيد معك في نهاية الخمسينات (عند استدارة العقد) اتفقنا على الاجتماع سوية وعندما أجبتك على أحد أسئلتك قائلاً إنني صديق لحزب البعث العربي الاشتراكي، اختصرت اللقاء وأدرت لي ظهرك وذهبت. ومنذ ذلك الوقت وبعد مرور أكثر من ثلاثين سنة وأنا لا أجد تفسيراً لموقفك هذا».

أجبته وقد أحسست بشيء من الحرج: «إن السبب فيما أحسب الآن أنني لم أكن أريد أن أضيع وقتي مع شخص صديق للبعثيين شبه ملتزم بأفكارهم ومواقفهم، خاصة وأنني آليت على نفسي أن لا أدخل في مهاترات وخصومات مع البعثيين في موضوع سرقة مناصرين أو التنافس مع مناصرين، كما أن وقتي كان ضيقاً جداً، فقد كنت ألتقي العشرات أسبوعياً، وكنت أفرد للقاء وقتاً محدداً عليّ أن أسرع بعده للقاء آخر. أضف إلى ذلك أنني كنت أجد التعامل مع غير الحزبيين وغير الملتزمين أسهل من التعامل مع الملتزمين الذين كانوا مزودين بمواقف وآراء ضد الحركة. كان لا بد

من إقناع هؤلاء بعكسها أولاً وقبل كل شيء». ويبدو أن الدكتور الشامي قد ارتاح لتفسيري مع أنه يشعر بشيء من الإهانة ربما لأنني لم أعره الاهتمام الكافي في حينه. وقد نسب إليّ دوراً أوسع من دوري الحقيقي. فقد نسب إلي دوراً في نشوء الجبهة القومية ونسب إليّ البعض مسؤولية تجنيد عبد الفتاح إسماعيل في الحركة ودفعه باتجاه اليسار مع أن توجه الحركة نحو اليسار قد جاء في مرحة لاحقة، بعد أن تركت القاهرة سنة ١٩٦٢ وبعد أن تخرجت من الجامعة. والواقع أن مهماتي كانت محصورة في تجنيد الطلاب اليمنيين في صفوف الحركة وقيادة بعض الحلقات قبل انتقال هؤلاء إلى الخلايا. وقد كانت الخلايا هي أولى مراحل الانخراط الحزبي في الحركة. لم أكن مسؤولاً عن الخلايا وإن كنت أحضر اجتماعات اللجنة المسؤولة عن اليمنيين في القاهرة وكانت برئاسة فيصل الشعبي ابن عم قحطان الشعبي الذي أصبح رئيساً للوزراء أثناء رئاسة قحطان لجنوب اليمن، وقد اغتيل كما أقصي قحطان ووضع تحت الإقامة الجبرية. وكان أكثر ذكاءً من قحطان والمحرك الأساسي للعمل بين صفوف اليمنيين إلا أنه كان يصغر قحطان سناً وكان أقل منه خبرة وعلاقة بشيوخ القبائل. وكان هو الوريث الشرعي لزعامة القبيلة بعد وفاة والده.

وكان من مهماتي متابعة القضية اليمنية في الإعلام وعند المسؤولين المصريين الذين كانوا يدعمون الجبهة، إلا أنهم يحرصون على علاقاتهم مع النعمان الابن والجعفري وغيرهما من قادة الجبهات الأخرى. وكان هم المصريين الأول في الواقع هو تثبيت سلطة وطنية تستطيع أن تنجح سياسياً وتحظى بالتأييد الشعبي بعد انسحاب القوات البريطانية من عدن.

ولعل السبب في إعطائي دوراً أكبر من دوري الحقيقي في تطور أحداث اليمن هو دوري شبه العلني في العمل بين صفوف اليمنيين. في حين كانت أدوار الآخرين تنحصر في الأعمال التنظيمية وهي غير علنية. ومن مظاهر تضخيم دوري اليمني أنه قد جاء في أحد الكتب التي تتحدث عن تطور الجبهة القومية ـ وقد احتفظت بهذا الكتاب في مكتبي في بيروت وقد أعطانيه وكيل كلية آداب جامعة صنعاء سنة ١٩٩٠ ـ أنّ المسؤول عن توجه الجبهة القومية نحو الماركسية واليسار وتجنيد عبد الفتاح إسماعيل في ذلك الاتجاه هو الصحفي السوري معن زيادة. وكانت صفة الصحافي تغلب عليّ عند البعض أما صفة السوري فلعلها ناتجة عن الخلط بين السوري واللبناني بمعنى أنه من أهل الشام. إلا أن الأرجح أن معلومات الكاتب لم تكن دقيقة ناهيك عن المبالغة في ما نسب وهي مبالغة واضحة تعوزها الدقة. ولعل من أسباب الخلط أنني كنت على علاقة طيبة مع أكثر أعضاء قيادة الجبهة القومية منذ البداية وحتى النهاية مروراً بالمرحلتين القومية والماركسية. كما كنت منذ أيام القاهرة على علاقة طيبة مع عبد الملك اسماعيل وكنت مسؤولاً عنه في فترة من الفترات وعملنا سوية وقد التقيت به في عدة مؤتمرات ممثلاً لبلاده. ولما كان عبد الملك ابن عم عبد الفتاح فلعل الخلط بين الأسماء من أسباب ما نسب إليّ. طبعاً أنا لا أنكر علاقاتي وتعاطفي مع عبد الفتاح إسماعيل والاتجاه الذي مثله، فقد كنت أعرفه وأعرف جميع رفاقه، البيض والأشطل وغيرهما. كما أنني أحببتهم جميعاً وشجعت توجههم إلا أنني لم أكن مسؤولاً عنه بأي وجه من الوجوه. فقد جاء ذلك متأخراً بعد أن عدت إلى بيروت ولم يعد لي أي علاقة تنظيمية وحزبية باليمن واليمنيين إلا من خلال علاقتي بالحركة. أفادني عملي مع الإخوة

اليمنيين إفادة كبرى وأسهم في تكويني السياسي في تلك المرحلة. ورغم أن عملي كان بالدرجة الأولى تنفيذياً، فقد كان تجربة مفيدة وقفت فيها على تشعبات القضية اليمنية. وإذا كنت آسفاً على شيء في هذه التجربة، فإني آسف لاضطراري إلى الانقطاع عن العمل مع الإخوة والرفاق اليمنيين بعد عودتي إلى بيروت إلا في حدود ضيقة.

واستطراداً في الحديث عن اليمن، التقيت سنة ١٩٧٥ بعضوٍ في الجبهة الديموقراطية وهو من اللبنانيين الذين فرّغتهم الجبهة وأرسلتهم للعمل في عدن. وقد قال لي إن الرفاق في عدن وافقوا على ترشيحي لمنصب رئيس جامعة عدن. وعلمت منه أن منصب رئيس الجامعة ينتظر مرشحين تمهيداً لاختيار واحد وأن حظي هو أقوى الحظوظ، وأن ترشيحي جاء من أصدقاء مهمين ثم دعمته قيادة الجبهة الديموقراطية وأنه ينتظر موافقتي للعودة إلى الجبهة وإلى عدن. كان ذلك في نهاية سنة ١٩٧٥ وكنت رئيساً لقسم الفلسفة. وقد سررت بالعرض رغم بعض سلبياته، فأمامي فرصة رئاسة جامعة وعمل إصلاحي واسع وأمامي مسؤوليات كبيرة، وإن كانت الحياة صعبة في عدن إلا أنها لن تكون كثيرة الصعوبة أمام رئيس الجامعة. وبعد لقاءات وعدة أسئلة وحديث مطول وافقت على الفرصة، وقد فرح صديقي وقال إن الأمر سيكون سهلاً بعد ذلك، إلا أنه لم يكن سهلاً، فقد دارت أحاديثنا مع نهاية عام سنة ١٩٧٥ وبعد أسابيع قليلة تدهور الوضع الأمني. وقد غادرت لبنان إلى كندا وانقطع اتصالي مع الوسيط. فلم يكن يعرف عنواني في كندا إلا أهلي وبعض الأصدقاء الذين لا يصل عددهم إلى عدد أصابع اليد الواحدة. وهم لا يعرفون علاقتي بالجبهة ولا معرفتي باليمنيين ولا موضوع الترشيح. كما أن الجبهة لا تعرف أحداً منهم ناهيك عن

الوسيط الذي كان يجهل كل شيء عن حياتي الخاصة وعنواني. وكان كل ما يعرفه هو عنواني في الجامعة ورقم هاتفي هناك. ولما كانت غيبتي عن لبنان قد وصلت إلى حدود السنة ونصف السنة، لم يكن باستطاعة السلطات اليمنية في عدن الانتظار طيلة المدة دون معرفة متى تنتهي غيبتي عن لبنان ومتى أعود. وهكذا ضاعت تلك الفرصة كما ضاع غيرها من الفرص بسبب الحرب في لبنان. ضاعت فرصة دعوتي إلى الكويت لمناسبة الذكرى الخامسة والعشرين لتأسيس مجلة العربي، كما ضاعت فرصة دعوتي لعدة مؤتمرات عربية ودولية وعدة محاضرات هنا وهناك. فكان البريد يصل بعد المناسبة في بعض الحالات أو كنت أعلم من الداعين أن اسمي كان في عداد المدعوين إلا أنني لم أجب على الرسائل الموجهة إليّ، والتي لم تصلني في واقع الأمر.

في القاهرة، لم يطل عملي مع اليمنيين وذلك بسبب طبيعة العمل الطلابي، فبعد أقل من أربع سنوات من بدء عملي معهم تخرجت وتركت القاهرة وعدت إلى بيروت. إلا أن تجربتي مع اليمنيين كانت تجربة مثمرة ومفيدة، وقد كنت أتمنى أن تطول. فأهل اليمن طيبون وشديدو الذكاء وهذا مشهود لهم. ولولا الانقسامات المصطنعة شمالاً وجنوباً أولاً وتدخل الاستعمار، ولولا الانقسامات الطائفية إلى أحناف وزيود وهي أقل حدة منها في أقطار عربية أخرى. ولولا الانقسامات العشائرية والقبلية التي تغذيها، المصالح الشخصية. لولا كل هذا لكان اليمن في طليعة الشعوب العربية يقودها في معركتها. فاليمنيون كأفراد وكشعب يملكون طاقات مهدورة، وهم في هذا لا يختلفون عن الشعوب العربية الأخرى. وخاصة الشعوب العربية الفقيرة كالسودان مثلاً. إنهم العرب الطيبون الذين لا تستطيع إلا أن تحبهم وتقدرهم وتتعاطف معهم

وتشجعهم. وتقف إلى جانبهم، خاصة وأنهم يطلبون ذلك ولا يترددون.

كانت شقتنا (المرحوم زياد الحسيني وإبراهيم قبعة شقيق تيسير وأنا) في الدقي تطل على شارع الدقي من جهة وعلى حديقة الأورمان المواجهة لجامعة القاهرة عند نهاية شارع الدقي. كما تطل على شارع جانبي صغير كانت وما زالت تقيم فيه سهير لطفي. وقد كانت زميلة في كلية الآداب ـ قسم اجتماع. وهي الآن باحثة في المركز القومي للبحوث الاجتماعية والجنائية، وناشطة معروفة في أوساط المثقفين في القاهرة والوطن العربي. سهير لطفي صديقة عزيزة أتصل بها كلما زرت القاهرة وهي تصر في كل مرة على دعوتي للغداء في بيتها الذي تقيم فيه وحيدة مع ابنتها الوحيدة. وسهير من الصديقات الوفيات، مهما باعد بيننا الزمن فإننا في كل مرة نلتقي تبدو وكأننا لم نفترق أبداً. وفي كل مرة أزور فيها القاهرة ويقابلني سعد الدين إبراهيم فيقول لا شك أنك التقيت بصديقتك العزيزة سهير. وهذا ما يردده أيضاً الدكتور يحيى الجمل فيقول: إذا لم تكن قد التقيت بسهير فسأشي بك».

كانت إقامتنا في تلك الشقة، طيبة، اجتمع فيها النشاط السياسي إلى جانب الدراسة الجادة في فترة ما قبل الامتحانات، مع اللهو والاستمتاع بالحياة عندما تتيح الظروف ذلك.

كنت أكثر الثلاثة انخراطاً في العمل السياسي، وكانت تخدمنا امرأة أتولى أنا محاسبتها. فقد كان زياد لا يحتمل وجود مالٍ في جيبه فهو سريع الصرف، يصرف كل ما معه وما يأتيه من أهله في أيام قلائل. ولم يكن حال إبراهيم أحسن حالاً من زياد، ولهذا كنت أضع يدي على المصروف وآخذ منهما كل ما استطيعه

بالتقسيط. وكثيراً ما كانا يصرفان كل شيء ويبدآن بالاستدانة مني بشكل خاص. كان عليّ أن أكون حازماً في الأمر وإلا ضِعْنا نحن الثلاثة.

ولسبب أو أسباب لم أعد أذكرها انتقلنا من تلك الشقة إلى شقة أخرى في الزمالك ثم إلى شقة أخرى في الزمالك أيضاً فوق منزل مأذون الزمالك. وكانت الشقة ملكاً له. وكان يزورني في تلك الشقة كثير من الأصدقاء المصريين وخاصة المرحوم وحيد النقاش شقيق وحيدة ورجاء وعطاء. وقد نشأت بيني وبين آل النقاش صداقة خاصة وحميمة وكان أقربهم إليّ وحيد الذي توفي وهو شاب في العشرينات من عمره. توفي صغيراً متأثراً بأمراض المعدة ذكر البعض أنها البلهارسيا. وقد حزنت عليه حزناً شديداً فقد كان شاباً واعداً، وطيباً ووديعاً إلى أبعد الحدود، ولم تكن تستطيع إلا أن تحبه. كان ناحلاً جداً وجميل الوجه أزرق العينين حنطي البشرة، وقد وجدت فيه الند المناسب رغم إفلاسه الدائم واستعانته بي في كثير من الحالات. وكان معنياً بالترجمة وترجم عدة أعمال مهمة. كان يزورني باستمرار ويناديني باسم صديقي الآسيوي. وكنت أسميه الصديق الأفريقي. وكان كثيراً ما يتناول الطعام معي في الشقة قائلاً إنه متعب من أكل الفول والطعمية. وكنا نتبادل الأحاديث ونذهب إلى المسارح أو نتبادل الزيارات وقد عرفت والد أصدقائي من آل النقاش، وكانت أول معرفتي بهم عن طريق رجاء الأديب الناشىء في ذلك الحين والناقد الذي كان يشق طريقه سريعاً وقد كتب مقدمة جيدة لديوان أحمد عبد المعطي حجازي **«مدينة بلا قلب»**. ولما كان عباس محمود العقاد لا يحب حجازي ولا صلاح عبد الصبور، فقد انتقد رجاء النقاش وكان يشير إليه باسم الآنسة رجاء النقاش على سبيل السخرية ويطلق على أدب

أصدقائي هؤلاء اسم الأدب القرمزي إشارة إلى أنهم من اليساريين. وكان يبالغ أحياناً على عادته فيقول أصحاب أدب الفراش.

كان رجاء النقاش أكبر إخوته، وأديباً وناقداً واعداً جداً، وقد نشأت بيننا صداقة قوية وقام بزيارتي في بيروت، وذلك في النصف الأول من عقد الستينات. كنا نتحدث طويلاً وقد سألني مرة عن الحزب السوري القومي الاجتماعي فأعطيته وجهة نظري التي نشرها في حينه. إلا أن رجاء تحول إلى الصحافة كمصدر عيش، وشدّه ذلك فلم يعط الوقت الكافي للأدب والنقد. وكان حريصاً على تحسين وضعه المالي بأسرع ما يمكن بعد أن تزوج ابنة أحد المصريين المرموقين (عبد القادر حاتم على ما أذكر) ثم سافر بعد ذلك إلى دول الخليج لتحصيل المال ودخل في خصومات مع صحفيين محليين ومصريين كما علمت. وقد حاولت زيارته في رحلتي الأخيرة إلى القاهرة إلا أنه كان في إجازة خارج القاهرة.

وكانت فريدة النقاش هادئة جداً في مطلع شبابها، وما زالت، إلا أن هذا الهدوء الخارجي كان ينطوي على ثورة داخلية متأججة، وهي ما زالت من المناضلات المصريات اللواتي يعتز الإنسان بصداقتهن. وكتابها **«السجن هو الوطن»** وكتبها الأخرى، إضافة إلى مساهماتها في جريدة التجمع ومجلة «أدب ونقد»، تؤكد على أصالة فريدة في فكرها ونضالها. وقد قابلت فريدة في دمشق أثناء انعقاد أحد مهرجانات المسرح منذ سنوات، حيث كانت ضمن أعضاء الوفد المصري مع سعد الدين وهبة. واجتمعنا سوية ووجدت أن فريدة ما زالت تلك المناضلة الصلبة والمرأة الطيبة والإنسانة الرقيقة والصديقة الأمينة التي تستحق كل التقدير والمحبة.

كنت ورجاء نلتقي في مقهى هافانا قريباً من ميدان الدقي. وكان

كثير من المثقفين يترددون على ذلك المقهى الذي خصص، بسبب ذلك، جناحاً خاصاً للمثقفين. وفي هذا المقهى التقيت بأحمد عبد المعطي حجازي وأصبحنا صديقين وقد تدعمت صداقتنا بعد ذلك عندما أخذت أتردد أسبوعياً على دار «روز اليوسف» حيث كان يعمل حجازي محرراً للأخبار التي يأتي بها الصحافيون. وفي هذا المقهى كنت ألتقي الناقد الكبير محمد مندور قبل وفاته والناقد الأديب أنور المعداوي الذي أصيب بعد ذلك بالجنون، والدكتور عبد القادر القط. وقد تجددت علاقتنا عندما انتدب الأستاذ القط للتدريس في جامعة بيروت العربية في السبعينات فكنت ألتقيه مع بعض زملائه في تلك الجامعة وتدور بيننا أحاديث الثقافة والأدب والفن التي كنت أفيد منها كثيراً. فالأستاذ القط مفكر هادىء ومرموق، وهو يحمل الكثير من الأفكار الجديدة وقد استحق جائزة الدولة التي منحت له عن جدارة حقيقية.

أفدت كثيراً من صداقتي مع رجاء النقاش الذي كان يكبرني بسنوات وكان قد أصبح أديباً صاعداً. وأذكر أني قد عرضت قصة قصيرة من وحي البيئة المصرية كنت قد كتبتها متأثراً بحياة الفقراء من الخدم خاصّة، فأعجب بها وأبدى دهشة لقدرتي على استيعاب طبيعة هذه الحياة في فترة قصيرة من الزمن، ولّما يمض على إقامتي إلا فترة أشهر لا تكاد تجاوز السنة. كما عرضت عليه بعد ذلك مواد عدد من مجلة «الاتحاد» وهي مجلة كان يصدرها اتحاد طلاب الكويت وقد كلفت مهمة تحريرها وإعدادها للمطبعة وكان ضمن تلك المواد قصة صغيرة أقرب ما تكون إلى الخواطر كما يقال. وقد سرّ بعملي ولم يعترض على العدد الأول الذي صدرت بعده أعداد قليلة ثم عادت المجلة إلى التوقف مجدداً لأسباب إدارية واختلاف في الرأي بين أعضاء الهيئة الإدارية للاتحاد.

نشرت القصة في مجلة الاتحاد، وما زلت أحتفظ بها في بيروت، إلا أن ذلك كان آخر محاولاتي في كتابة القصة القصيرة. فقد انصرفت إلى الصحافة والصحافة الثقافية خاصّة بعد أن طُلب إليّ أن أكون مراسلاً لمجلة «الحرية» التي أصدرتها الحركة في بيروت. وقد انصرفت لتلك المهمة وكنت أعدّ رسالة أسبوعية تتضمن أخباراً ثقافية ومقابلات أدبية وسياسية كان منها مقابلة مع أحمد بهاء الدين حازت على إعجاب القراء وقادة الحركة والعاملين في الحركة. ومقابلة أخرى مع نجيب محفوظ ضمن استفتاء أجريته في بيروت والقاهرة ودمشق حول موضوع «عاصمة الثقافة العربية: بيروت أم القاهرة؟» أسهم فيه الكثير من الكتاب والأدباء مثل سهيل إدريس وزكريا تامر ومحيي الدين صبحي. وقد أثار الاستفتاء مناقشات وردوداً كان منها تعليق في جريدة «العمل» لسان حال حزب الكتائب جرى الرد عليه في «الحرية». وكان مما فعلته أني قدمت بعض الكتاب الشبان إلى القارىء اللبناني والعربي خارج مصر. ومن هؤلاء توفيق حنا وأهم منه غالي شكري الذي ربطتني به صداقة انتهت بشق طريقه إلى الشارع الثقافي في بيروت، والشعراء محمد إبراهيم أبو سنة ومجاهد عبد المنعم مجاهد وغيرهما.

كانت تجربة العمل في مجلة «الحرية» الأسبوعية من أهم التجارب في تلك المرحلة وساهمت في تكويني الثقافي والسياسي. وكنت أراسل «الحرية» أسبوعياً. كنت أقيم في بيروت صيفاً وأعمل يومياً في «الحرية» حتى بعد ظهر يوم السبت حيث ندفع بالمجلة إلى المطبعة بشكلها النهائي وننصرف.

في القاهرة وأثناء العام الدراسي، كنت أتردد مع أصدقائي من

المثقفين والصحافيين والكتاب إلى المسارح والمعارض والمحاضرات والمراكز الثقافية. وكان غرضي، إضافة إلى المتعة، تغطية الأخبار الثقافية وإعداد رسالة فريدة من نوعها، وقد أكسبني ترددي على المسارح التي كان بعضها يقدم أعمالاً جيدة وأعمالاً طليعية، ذوقاً وحساً فنياً جيدين إفتقدتهما عندما تركت القاهرة إلى بيروت نظراً لعدم وجود مسارح.

وكان المسرح المصري في حالة ازدهار نظراً للرعاية التي أولاها عبد الناصر للمثقفين. وكان وزير الثقافة ثروت عكاشة خير من يمكن أن يرعى الحركة الثقافية بكل تفرعاتها. كانت فرقة المسرح القومي تقدم أعمالاً جادة وكان مسرح الجيب ـ وغيره ـ يقدم أعمالاً طليعية وريادية أكثرها من روائع المسرح العالمي. وكنت أحضر معظمها إذا لم أقل جميعها، كما كنت أتابع كل ما يصدر في هذا الميدان ولا سيما سلسلة «روائع المسرح العالمي» التي أصدرتها وزارة الثقافة عبر المجلس الأعلى للفنون والآداب. وما زلتُ أحتفظ بالسلسة كاملة. وكنت أكتب معلقاً على بعض تلك المسرحيات ناقداً لها، ولو كان المسرح اللبناني مزدهراً لأمكن أن أتحول إلى ناقد مسرحي، وقد اتصلت ببعض المسرحيين اللبنانيين الشبان الصاعدين، إلا أن أعمال الرحابنة وفرقة الأنوار كانت طاغية وهي تدخل في عداد المسرح الاستعراضي الذي كان يشدني للتسلية أكثر من غيرها.

وما يصدق على المسرح يصدق على الفنون التشكيلية. فقد كنت أطوف على المعارض مع أصدقائي المصريين وكنت أكتب عن بعض هذه المعارض. وقد ربطتني بكثير من الفنانين روابط صداقة واقتنيت بعض أعمال هؤلاء، وكان بإمكاني أن أقتني المزيد،

وبأسعار رخيصة، إلا أن ظروفي المادية لم تكن على ما يرام وكنت أعيش على ما يرسله والدي إليّ. أما عملي في «الحرية» فكان جزءاً من عملي الحزبي، ولم أكن أتقاضى عليه أي شيء، بل كنت أصرف من جيبي الخاص.

أما في الصيف فكنت أُعطى غرفة أو شقة من الشقق التي كانت تديرها الحركة ومصروفاً قليلاً يكفي للطعام والتنقلات وقليلاً من النفقات الأخرى. وما زلت أحتفظ ببعض هذه الأعمال وقد أتت الحرب اللبنانية على بعض منها حيث أصيب بيتي أكثر من مرة وتعرض مكتبي في الجامعة ليد العابثين.

ربطتني صداقة خاصّة بالعاملين في دار «روز اليوسف» ومجلتيْ «روز اليوسف» و«صباح الخير». تعرفت إلى إحسان عبد القدوس إلا أن علاقتي به لم تتجاوز حدود المعرفة العابرة. وتعرفت بأحمد بهاء الدين فشدني إليه تواضعه وحسّه العربي وتبنيه للفكر الوحدوي والقومي. قامت بيننا علاقة طيبة استمرت طويلاً حتى انقطاعه عن الكتابة، وكنت أتابع كل ما يكتب بكل محبة وإعجاب. وكنت أعتبر بهاءً نجم الصحافة المصرية قبل محمد حسنين هيكل الذي أُتيح له ما لم يتح لبهاء من فرص. والفرق بين الرجلين: بهاء في تواضعه ومحبته التي تشدك شداً، وهيكل بتعاليه واعتداده بنفسه الذي يجعلك غير قادر على دخول عالمه بسهولة.

وكان من نجوم الصحافة الذين ربطتني بهم علاقة صداقة خاصة مصطفى نبيل، رئيس تحرير مجلة «الهلال» لسنوات طويلة، وهو من تلامذة بهاء وورثة إرثه الفكري. وقد زارني في بيروت أكثر من مرة في معهد الإنماء وفي بيتي وكنت أكرمه كما كان يكرمني عند زيارتي للقاهرة، فقد كنا نحتفي أحدنا بالآخر إلى أن انقطعت

العلاقة بيننا بسبب الحرب في لبنان ولكن قبل ذلك بسبب ظروف تنقلي وعدم استقراري وضغوط عملي.

وكان منهم محمد عودة، رئيس تحرير الجمهورية لسنوات، وصاحب القلم الجذاب والساحر. وقد تأثرت به كثيراً رغم شخصيته غير المستحبة عند الكثيرين بسبب صراحته التي تكسبه الأعداء وتبعد عنه المحبين. وقد زارني في بيروت ودعوته للعشاء في المنزل، وكانت أمسية لا تنسى، تناقشنا في ما قرأت مما ثبت في ذاكرتي ولا سيما مقاله باسم «ليلة في روما» وبعض كتبه. وكانت آخر مرة التقينا فيها أثناء انعقاد مؤتمر المنظمة العربية لحقوق الإنسان. ولكن ولما كنت قد انتخبت رئيساً للجلسات فلم أتمكن من التهرب من الحضور للاجتماع إلى الأصدقاء، فاكتفينا بالجلوس سوية أثناء حفل الافتتاح وأثناء الغداء الذي تبع ذلك.

في دار «روز اليوسف» تعرفت إلى نجوم الكاريكاتير، صلاح جاهين، بهجت رجائي، جورج البهجوري، ناجي، إيهاب وغيرهم. وقد ربطتني مع جورج البهجوري صداقة خاصّة. كنت أزوره في بيته القريب في وسط المدينة في شارع متفرع من شارع سليمان باشا غير بعيد عن ميدان سليمان باشا. وقد تعرفت بزوجته التي كانت تعمل في التلفزيون وقد أصبحنا أصدقاء. حتى أنهما دَعَواني لمرافقتهما في رحلة إلى الإسكندرية والإقامة في شاليه على الشاطىء حيث قضيت عدة أيام جميلة تعرفت فيها على شلة أصدقاء جورج. وقد أهداني جورج بعض أعماله الفنية التي مازلت أحتفظ بها أو بما سَلِمَ منها من براثن الحرب.

وقد زارني جورج بعد ذلك مع مفيد فوزي الذي أصبح رئيس تحرير صباح الخير، وأقاما معي أياماً. وقد أخذتهما إلى طرابلس فزارا

المدينة. كما قمت بدور الدليل السياحي أثناء إقامتهما في لبنان. وقد زرت جورج بعد ذلك في باريس فرسمني فأضفت ذلك إلى رسوماته السابقة لي التي ما زالت عندي.

جورج فنان مرهف، يرسم الكاريكاتير ليعيش منه، إلا أن أعماله الفنية الأخرى هي الأهم، وهو يحمل أفكاراً تقدمية ومبادىء سياسية في الحرية والديموقراطية لا يتخلى عنها. وهو من أطيب من عرفت، وديعاً، خجولاً، كريماً، مخلصاً للأصدقاء. أما مفيد فوزي فهو النقيض تماماً، صحفي تافه، وانتهازي ويمثل نموذجَ مدّعي الصحافة الذين يتسلقون ويصلون عبر السلالم الخلفية.

وممن ربطتني بهم رابطة قوية الفنان بهجت، الإنسان المرهف الطيب المخلص الذي ترك الكاريكاتير رغم تفوقه وإبداعه فيه إلى الاهتمام بعالم الأطفال. وقد زارني في بيروت وأقام عندي بضعة أيام. واستمرت صداقتنا إلى أن فترت بسبب سفري إلى كندا للدراسة. وقد رأيت بهجت في السنة الماضية في بيروت، أثناء افتتاحه أحد معارضه في دار الندوة، فكان لقاء عاطفياً لم يدم طويلاً، فقد انصرف كل منا في طريقه. وعندما التقيته بعد أيام على متن الطائرة عائداً إلى القاهرة بينما كنت في طريقي للمشاركة في ورشة عمل عن حقوق الإنسان، تبادلنا العناوين وانتهى كل شيء عند هذا الحد.

ومن الأشخاص الذي تعرفت بهم عن قرب غالي شكري الذي كان كاتباً شاباً ومجهولاً في ذلك الحين، وقد نشرت له بعض كتاباته في بيروت فكانت أولى إطلالاته خارج مصر. ولا أذكر إسم المثقف الذي قال لي مازحاً إن من جناياتي مع الثقافة العربية في لبنان أنني قدمت غالي شكري للقارىء العربي من خلال ما

نشرته له. ولكن غالي شكري كان سيشق طريقه إلى لبنان وغير لبنان لأنه كان مصمماً على ذلك.

وغالي شكري من الشخصيات الغريبة في عالم الثقافة العربية. باحث مجتهد وقارىء جيد ومثقف مرموق عند الكثيرين، إلا أن غالي شكري من المدعين الذين لا يتورعون حتى عن الكذب. فقد ذكر لي مرة أنه مشتاق إلى بيروت التي عرفها عندما كان طالباً في كلية الزراعة فيها، إلا أنه نسي ذلك وقال لي مرة أخرى: نفسي أشوف بيروت التي أسمع عنها ولا أعرفها. وذات مرة أخبرني أنه قريب سلامة موسى وأن سلامة موسى هو خاله، وأنه وريث سلامة موسى الفكري لأن سلامة هو الذي رباه وأعده لدوره الثقافي، ثم عرفت أنه لا يمت لسلامة بصلة ولعله لم يعرفه ولم يره.

والقصة المعروفة عن غالي شكري أنه عندما اعتقلت السلطات المصرية الشيوعيين في عهد عبد الناصر، كان غالي يطوف القاهرة موهماً الناس، بمن فيهم أنا، أن المخابرات تلاحقه وتبحث عنه لاعتقاله مع رفاقه الشيوعيين. ويبدو أن المخابرات نفسها صدّقت غالي شكري ولكن عندما اعتقلته وأودعته السجن مع الشيوعيين، رفض هؤلاء التعامل معه لمعرفتهم أنه ليس واحداً منهم ولشكهم في أنه قد يكون مدسوساً عليهم ولهذا قاطعوه.

بعد ذلك عاش غالي شكري في بيروت واشتغل بالصحافة فيها، ونشر كتبه الأولى إلى أن وجد مجالاً أرحب له في باريس. ومن باريس أعلن اعتناقه للإسلام فذهب إلى ليبيا وقبض ثمن ذلك الإعلان وانتهت القصة عند ذلك الحدّ.

في القاهرة قصدت المرحوم ساطع الحصري (أبا خلدون) وكان يقيم في بانسيون متواضع غير بعيد عن ميدان التحرير. عرّفته

بنفسي وأجريت معه مقابلة هامة ذات قيمة تاريخية وقد نشرت في مجلة «الحرية». وفي القاهرة كنت ألتقي بالضيوف العرب والدوليين المهمين. وكان ممن تعرفت به وربطتني به رابطة قوية فيما بعد المرحوم د. حسن صعب. كان الدكتور حسن قد دعي لإلقاء أكثر من محاضرة على طلبة معهد الدراسات العربية العليا على الرقم ١ شارع الطلمبات غير بعيد عن مقر دار روز اليوسف، شارع القصر العيني. وقد ذهبت برفقة صديقة كان لها شأن بين الطلبة في ذلك الحين وهي فائزة الشريف. كانت تربطنا رابطة زمالة فقد كانت طالبة في قسم الفلسفة إلا أنها تسبقني بسنة، وكانت تربطنا رابطة صداقة طيبة أساسها حركة القوميين العرب ثم الدراسة ثم الميول المشتركة ولا سيما الاهتمامات الثقافية.

تعرفت بحسن صعب الذي ناقشته في بعض ما ذكره في محاضراته، وأحبني حسن وأعجب بما قلته له ودعاني لزيارته عندما أعود إلى بيروت وأعطاني أرقام هواتفه. وعندما عدت إلى بيروت، اتصلت به فدعاني للغداء وتكررت لقاءاتنا واشتدت صداقتنا وامتدت حتى وفاته سنة ١٩٩٠. وسأعود إلى موضوع حسن صعب فيما بعد.

في القاهرة تعرفت بمجموعة واسعة من الطلبة الكويتيين: سليمان العسكري وهو الآن الأمين العام للمجلس الأعلى للفنون والآداب والعلوم الذي يصدر عدة سلاسل ومجلات. وقد التقيته في العام الماضي في المعرض الأول لنقابة الناشرين اللبنانيين. وعبد العالي ناصر، وهو عضو مجلس إدارة المنظمة الكويتية لحقوق الإنسان وقد التقينا في القاهرة في ورشة العمل التي دعت إليها المنظمة العربية لحقوق الإنسان. وفيصل المسعود، ونجيبة التي كانت ترافق

فائزة الشريف. وفاطمة حسين التي أصبحت مذيعة وذات شأن في الكويت. وحصّة وموزة وسبيكة وليلى حسين، وغير هؤلاء ممن لا يتسع له المكان ولا تستحضره الذاكرة. وكنا نلتقي في بيت الكويت وكلية الحقوق، كما كنا نلتقي في المطاعم وفي البيوت. وقد ربطتني بالكثير من الكويتيين رابطة صداقة، وكنت بعد إقامتي في بيروت أدعوهم إلى طرابلس وأذهب معهم إلى الجبل ونجلس في المقاهي والمطاعم.

كان بيت الكويت خلية للنشاط القومي. وكانت تقام فيه المحاضرات والمهرجانات الوطنية والاحتفالات بالمناسبات القومية. وكان الطلبة الكويتيون متواضعين ولم يكن عندهم العنجهية والتكبر والتعالي الذي نشهده عند أكثرهم اليوم. كانت أياماً طيبة يجمعنا فيها الأمل بمستقبل عربي كريم.

لم أقم علاقة صداقة مع كثير من العراقيين، ولكن القليلين الذين عرفتهم كانوا طيبين جداً. وقد تعرفت إلى صدام حسين وكان أحد زملائي في المرحلة الثانوية في طرابلس مسؤولاً حزبياً عنه. كانت لي علاقة متينة مع الشاعر الراحل عدنان الراوي والدكتور هشام الشاوي الذي أصبح سفيراً للعراق في كندا. وقد اتصل بي هاتفياً واتصلت به إلا أنني لم أزره في مقر السفارة، ثم أعلن تمرده على النظام العراقي وانضمامه إلى المعارضة. وكانت زوجته تتردد على مكتبة الشرق الأوسط في مونتريال مؤخراً وكذلك ابنته إلى أن رحلتا معه.

كان هشام الشاوي لاجئاً سياسياً في القاهرة، وكان قومياً عربياً صلباً، إلا أنه كان يحمل أفكاراً سياسية وقومية متطرفة. كنا نذهب سوية إلى المقاهي المطلة على النيل، هشام وعدنان وأنا، نأكل

ونشرب ونتحدث في السياسة والأدب والشعر. وكانت ثقافة هشام البريطانية تجعله تقليدياً. وكان يرى أن أوروبا هي التي أفادت من الحضارة العربية، أما الأميركان فهم في نظره برابرة الحضارة المعاصرة. كان ينسب كل ما هو عظيم للعرب وكان ينسب بعضه للأوروبيين وخصوصاً البريطانيين، أما الأميركان فهم مخربو الحضارة الذين سيقضون على كل ما هو جميل فيها.

وكان عدنان شاعراً مرهفاً، وكان لاجئاً سياسياً في القاهرة أيضاً، وكان يجمعه مع هشام أفكاره القومية. كنا نحن الثلاثة نلتقي كثيراً ولا نمل من صحبة أحدنا الآخر. وقد تزوج عدنان امرأة مصرية رحلت معه إلى العراق. وقد توفي ولم أره بعد أيام القاهرة. نشرت له بعض القصائد في بيروت وأهداني دواوينه التي ما زلت أحتفظ بها إلى اليوم.

عرفت الكثير من السوريين والسعوديين والجزائريين والمغاربة، واحتفظت بعلاقتي بمغربي واحد كان زميلاً في قسم الفلسفة يسبقني بسنة واحدة هو علي أومليل، وكان يعرف في القاهرة باسم علي السوسي. وقد توطدت صداقتنا فيما بعد من خلال لقائنا في المؤتمرات. وقد زرته في المغرب فأحسن ضيافتي، وقدمني إلى عائلته ودعاني لقضاء إجازة طويلة مع أسرتي في المغرب. واستمرت لقاءاتنا في المغرب وبيروت وعمان ومونتريال، ودعوته لإلقاء أكثر من محاضرة في مكتبة الشرق الأوسط (المركز الثقافي) في مونتريال، فلبى الدعوة وكانت محاضرات جيدة، كما كنت دعوته قبل سنوات للمشاركة في الموسوعة الفلسفية العربية، فلبى الدعوة وكتب دراسة جيدة عن الخلدونية.

عرفت طلاباً وأدباء وسياسيين عرباً من كل الأقطار العربية. من

السودان كانت لي صداقة مع الشاعر محمد أحمد الحردلو الذي أحببته ونشرت له. ولم أحب محمد الفيتوري. كان الفيتوري شاعراً صعلوكاً فقير الحال معدماً، وعندما ادعى أنه ليبي الأصل وأفاد من عطاءات القذافي له فيما بعد، تغير حاله ولم يعد يشرب إلا أرقى أنواع الخمر وأغلى أنواع الكحول. حاول أن يكون أرستقراطياً فلم يفلح رغم شفافية شعره ورهافة إحساسه وجمال صوره. أما أوسع دائرة لي من علاقات الصداقة فكانت مع الإخوة الفلسطينيين شباناً وشابات.

كنت منذ تعرفت إلى حلقة نجيب محفوظ، أتردد على تلك الحلقة أو الجلسة الأسبوعية التي كانت تلتئم في مقهى صفية حلمي في ميدان الأوبرا. كانت الجلسة تبدأ منذ العاشرة صباحاً حيث يحضر نجيب محفوظ ويتخذ مجلساً على رأس طاولة أعدت لذلك اللقاء، وتستمر حتى الثانية بعد الظهر. وكان يتردد على تلك الجلسة الأسبوعية شبان معجبون بنجيب محفوظ مثل جمال الغيطاني وصلاح عيسى وغيرهما. وكان من المواظبين على الحضور علي أحمد باكثير. أما يحيى حقي فكان يحضر كلما سنحت له الظروف.

كانت تلك الحلقة الأسبوعية تستمر طيلة العام، ما عدا أشهر الصيف التي كان نجيب محفوظ يقضيها في الإسكندرية. فهو كما علمت، كان يسافر في وقت قصير من كل عام لا يحيد عنه، وهذا شأنه في كل أعماله، فهو مثلاً يجلس للكتابة كل يوم في وقت محدد ويستمر في الكتابة حتى ينتهي الوقت المحدد لها. وهو يستيقظ وينام ويأكل ويشرب في أوقات محددة قلما تتغير. وكانت حياته تسير وفق برنامج واحد لا تغيره إلا الظروف الاستثنائية. وكانت الأحاديث في الجلسة الواحدة تتراوح بين

الحديث عن الرواية والنقد والسينما والمسرح والفنون عموماً، حسب ما يطرحه الحضور من موضوعات. لم يكن ينتظم الجلسة موضوع واحد إلا في القليل النادر.

وعندما أجريتُ الاستفتاء حول عاصمة الثقافة العربية: القاهرة أم بيروت؟ وطرحتُ السؤال على نجيب محفوظ، امتدح بيروت وذكر أسماء مؤسسات وأعلام في لبنان. وكان يميل إلى القول إن بيروت هي العاصمة. وقد نشرت رأيه مفصلاً في «الحرية». وشارك في ذلك الاستفتاء ما يقرب من العشرين أديباً وكاتباً. كان نجيب محفوظ متواضعاً في رده، وهذا هو شأنه دائماً. فهو لطيف طيب خفيف اللسان متواضع في سلوكه وعلاقاته مع الآخرين. وكنت أحبه كثيراً لصفاته الشخصية إضافة إلى كونه أديباً مبدعاً. وعندما نشر روايته الشهيرة «أولاد حارتنا» في جريدة الأهرام على حلقات، كنت أنتظر عدد الأهرام بصبر وأنا في شوق شديد للحلقة التالية، إلى أن أوقف الرقيب نشر الرواية. وعندما زار سهيل إدريس القاهرة أخذته إلى حلقة نجيب محفوظ حيث اتفق معه على نشر تلك الرواية في بيروت، وهو ما كان. وما زالت دار الآداب تعيد نشر تلك الرواية التي لم تنشر في القاهرة حتى اليوم.

لم أحب العقاد الذي كانت حلقته الأسبوعية تعقد في بيته ولم أتردد عليها. ولعل السبب في ذلك هو شخصية العقاد ولسانه الجارح في حق خصومه من الأدباء والمفكرين. كنت وما زلت أعتقد أن دور العقاد كان قد انتهى، وأن دوره الحقيقي والإبداعي والتجديدي كان أيام شبابه عندما كان يمثل الثقافة الجديدة والمتقدمة. وقد كتبت دراسة عن هذا الموضوع نشرتها في «الحرية» وهي تتحدث عن أهمية ما مثله العقاد عندما كان نجماً صاعداً

يناضل ضد الاستعمار ويناصر الحركة الوطنية المصرية ممثلة بسعد زغلول وحزب الوفد. إلا أن العقاد انتهى معادياً لحركة التجديد في الأداب والفن والثقافة عموماً. وكان يسخر من الأدباء والشعراء وعلى رأسهم صلاح عبد الصبور.

أما نجيب محفوظ فقد استمر كما هو منذ أعماله الأولى يمثل الخط الوطني والسياسي نفسه. وكنت قد كتبت، وأنا طالب في السنة الثانية على ما أذكر دراسة مقارنة بين كمال بطل ثلاثية نجيب محفوظ وبطل ثلاثية دروب الحرية لسارتر، نشرت في مجلة الأدباء وهي تمثل رأيي الذي لم يتغير في نجيب محفوظ.

في تلك الحلقة، التي اصطحبت إليها بعض أصدقائي ومنهم رشيد درباس الذي كان طالباً في كلية الزراعة قبل أن يترك إلى كلية الحقوق، تعرفت بالكثير من محبي نجيب محفوظ، وعلى رأسهم الأديب المبدع يحيى حقي. وقد أحببت يحيى حقي وزرته في بيته وقابلت زوجته الفرنسية على الأرجح ورأيت كلبه الذي تحدث عنه أو الذي أوحى إليه ببعض ما كتب.

كان يحيى حقي من أطيب الأدباء وألطفهم وأكثرهم إبداعاً، وكان أدبه الساخر بهدوء ومحبة يمثل شخصية يحيى حقي الهادئة والمحبة والمبدعة.

إنه بلا شك رائد الأدب الساخر، وأدبه يمثل قمة الأدب الراقي الذي يجعلك تبتسم ويدفعك إلى التفكير والتأمل في آن. إنه على النقيض من أدب محمود السعدني الساخر الذي يجعلك تضحك وأنت تقرأ شتائمه وتشنيعاته ومبالغاته. والواقع أن أدب كل منهما يمثل شخصية الكاتب: فأدب يحيى حقي هو يحيى حقي الطيب الهادىء المبتسم الساخر المثقف البورجوازي أو الجانتلمان. أما أدب

السعدني فهو السعدني ابن البلد الذي يرفع صوته عالياً ولا يتورع عن التشابك بالأيدي مع الخصوم والتناطح بالرؤوس عند الحاجة واستنفاد قاموس الشتائم الشعبي الذي لا ينفد.

ومن المواظبين على حلقة نجيب محفوظ الأسبوعية وصديقه منذ الشباب هو علي أحمد باكثير.

أفدت من مجلس نجيب محفوظ الأسبوعي، حيث كنت أجلس مستمعاً أكثر الوقت، أستوعب ما أسمعه وأخزنه، أتعرف بشخصيات كنت أسمع عنها أو أقرأ لها. وكان ذلك يساعدني في إعداد رسالتي الأسبوعية إلى الصفحة الثقافية في مجلة «الحرية»، تلك الصفحة أو الصفحات التي كنت أسهم فيها شتاء وأشرف عليها صيفاً حيث كنت أنتقل من القاهرة إلى بيروت للعمل في «الحرية». وقد استمر ذلك بضع سنوات إلى أن تخرجت سنة ١٩٦٢ وانتقلت إلى بيروت.

بعد انتهاء الجلسة في مقهى صفية حلمي كنت أذهب إلى كشك لبيع الكتب والمجلات. وكنت أقمت علاقة خاصّة مع صاحب الكشك الذي كان يجمع لي كتب السلاسل التي كنت أقتنيها مثل «المسرح العالمي» أو «الألف كتاب» أو «أعلام العرب» وغيرها. وفي القاهرة بنيت مكتبة أو نواة مكتبة جيدة، كنت أنقلها تدريجياً إلى بيروت ومنها إلى طرابلس حيث أخذت مكتبتي بالتكامل وقد أفاد منها إخوتي إفادة جمة. كنت لا أتردد في شراء أي كتاب فلسفي أو كتاب كنت أتوخى فيه الأهمية. وكنت أقرأ وأقرأ، فكان ذلك أساس ثقافتي المتنوعة والمتعددة الحقول: الأدب والمسرح والفن والفلسفة والتراث ولا سيما التراث الفكري والفلسفي وغيرها. في طرابلس كانت ثقافتي محصورة في الكتب السياسية وفي المجلات

الثقافية العامة كالهلال، أما في القاهرة فقد اتسعت دائرة هذه الثقافة لتضم إلى السياسة حقولاً جديدة.

وكنت في بعض الحالات أنتقل من حلقة نجيب محفوظ إلى سور الأزبكية الذي لم يكن بعيداً، وهو سور معروف للمثقفين، حيث تنتشر دكاكين وبسطات الكتب المستعملة. وكان يمكن للقارىء أن يجد الكثير من الكتب المهمة والنادرة وبأرخص الأسعار، إلا أنه كان يتعين على هذا القارىء أن يتردد باستمرار على مكتبات السور لأن الكتب تأتي وتذهب سريعاً، ولا سيما الكتب الجيدة. كانت مكتبات سور الأزبكية ومازالت مصدراً مهماً للقارىء صاحب الدخل القليل. وقد أسهمت هذه المكتبات المتواضعة إسهاماً كبيراً في تلبية حاجات الكثير من القراء رغم أن تجار الكتب النادرة قد غزوه وكادوا أن يحولوه إلى سوق لكل ما هو تافه وغير مفيد للقارىء الجيد. ومازلت أزور سور الأزبكية كلما أتيحت لي الفرصة لذلك.

في القاهرة تعرفت بالفنان السوري أدهم إسماعيل وأصبحنا أصدقاء. كان أدهم يقيم في شقة في الطابق الأرضي في مصر الجديدة، وكانت الشقة أقرب ما تكون إلى الفيلا فهي تنفتح على حديقة صغيرة زرعت فيها الزهور، إضافة إلى الأشجار القليلة. كان أدهم قد حصل على منحة تبادل ثقافي بين فناني الإقليم الشمالي وفناني الإقليم الجنوبي في الجمهورية العربية المتحدة، أي أيام الوحدة بين مصر وسوريا. وكان مدير الثقافة د. ثروت عكاشة قد وسّع دائرة تفرغ الفنانين التي حظي بها كثيرون من فناني مصر قبل الوحدة وبعض فناني سوريا أثناء الوحدة. وقد أفاد أدهم إسماعيل من منحة التفرغ هذه، وانكب على فنه يزيده إبداعاً وجودة.

كنت أزور أدهم إسماعيل في محترفه ـ شقته بصورة منتظمة، وكان يزورني قليلاً كلما جاء إلى القاهرة. وكنا نلتقي في وسط المدينة ونذهب إلى أحد المقاهي، إلا أن أدهم كان قليلاً ما يفعل ذلك، لأنه كان نادراً ما يترك محترفه فقد كان يعيش في شبه عزلة، وكان يزوره القليل من الأصدقاء ولا يزور إلا القليل القليل منهم. كنت أسأله عن فنه وأعماله واحداً واحداً وكان يحدثني كثيراً وطويلاً ويشرح لي. وكنت في كثير من الحالات أشهد تطور اللوحة والأدوار التي تمر فيها منذ وضع خطوطها العريضة حتى اكتمالها. وقد أهداني لوحة زيتية صغيرة ما زلت أحتفظ بها وهي عزيزة عليّ كثيراً. وقد أخذت من أدهم إسماعيل كثيراً سواء على الصعيد الفني أو على الصعيد الإنساني العام.

كان أدهم من الصنف النادر من الناس، خلوقاً طيباً متسامحاً لايطال أحداً بسيئة، وكان فناناً مبدعاً مرهف الحس متفرغاً لفنه وصاحب مدرسة خاصة في الفن التشكيلي، وكان حريصاً على ذلك. كما كان حريصاً على مواكبة أحدث الحركات والمدارس الفنية في العالم، وكان كثيراً ما يتردد في طلب حمل الكتب والمجلات الفنية إليه من بيروت حتى لا يثقل عليّ، إلا أن رابطة الصداقة بيننا كانت تسمح له بأن يشير إلى الموضوع ليرى مدى استعدادي. فقد كان حريصاً على الإطلاع، إلا أنه كان خجولاً حتى مع أصدقائه. وقد حملت له بعض ما أراد وأضفت إلى ذلك بعض ما كنت أراه مناسباً من المجلات والكتب الأجنبية فكان يسر بذلك كل السرور.

ولد أدهم إسماعيل في إنطاكية سنة ١٩٢٢ وعندما بلغ السادسة عشرة عام ١٩٣٨ احتلت تركيا إنطاكية وبذلك عرف

الاستعمارين الفرنسي والتركي. وكانت آخر لوحة رسمها ما وراء الجوع سنة ١٩٦٣. فبعد إنجاز اللوحة بقليل توفي بالسكتة القلبية في مرسمه كما أكدت تقارير الأطباء. وقد ظهرت موهبته المبكرة في المدرسة، وكانت كل محاولاته الفنية الأولى ملتزمة. ولم يهتم أدهم بالفن فقط بل عني بالخط أيضاً. كان يحب أن يبدأ اللوحة من آخرها تارة ومن منتصفها تارة أخرى فهي في ذهنه قبل أن تكون على الورقة. بعد دخول الجيش التركي إلى اللواء غادر أدهم إلى حماه حيث قضى العام الدراسي ٣٨ـ ٣٩. وفي نهاية هذا العام الدراسي في ثانوية حماه عاد إلى اللواء، إلا أنه لم يستسغ الحياة تحت الحكم التركي ففر تحت أزيز الرصاص إلى حلب هذه المرة ليتابع دراسته في ثانويتها.

يتحدث إخوة أدهم عن موهبته المبكرة وهم عزيز إسماعيل، نعيم إسماعيل، صدقي إسماعيل، فايز إسماعيل: كان إخوته حوله، هنا أدهم ابن الثانية عشرة وبجانبه صدقي ابن العاشرة وعزيز ونعيم، وقد قلبوا هدوء البيت إلى ضجيج صامت. واحد يرسم وثانٍ يقرأ وثالث يفكر ورابع يصمم مجلة. وقد ينضم إليهم بعض الرفاق ليعاونوا في إخراج نسخة وحيدة يتيمة من مجلة يطالعها الحي ثم المدينة.

عين أدهم مدرساً في ثانوية الدولة في حلب حيث تعرف بالأستاذ زكي الأرسوزي والفنانين فاتح المدرس وغالب سالم وغيرهم. وفي سنة ١٩٥٠ عاد للتدريس في ثانوية الميدان ومعهد دوحة الأدب، وكان يعمل رساماً في مجلة الجندي، وفي عام ١٩٥٢ قدّم لوحته الشهيرة الحمّال التي عبرت عن أسلوبه بالخط العفوي اللانهائي الألوان البراقة. زار روما وأقام فيها ودرس في أكاديمية الفنون

الجميلة كما زار مدن إيطالية أخرى. قام برحلة إلى أوروبا وانتهى بإسبانيا العربية، قضى في أوروبا عدة سنوات حيث درس في إيطاليا.

تيسر لي في قسم الفلسفة في جامعة القاهرة، نخبة من الأساتذة المشهورين وخاصة في ميدان الدراسات النفسية. فقد كان القسم رسمياً هو قسم الفلسفة وعلم النفس، وكان الصراع بين أساتذة الفلسفة وأساتذة علم النفس شديداً وخاصة بين عثمان أمين الذي كان رئيساً للقسم ويوسف مراد أستاذ علم النفس الشهير وصاحب المدرسة المعروفة بالتكاملية.

كان أساتذة علم النفس مبرزين، كل في ميدانه: الدكتور يوسف مراد صاحب المدرسة التكاملية الذي سحرني بهدوئه واتزانه ومعرفته وعلمه وطريقة تدريسه. كان يقدم المعلومات بشكل بسيط وكان يسكبها للطلاب سكباً وكانت كتبه ومازالت مراجع أساسية في أوليات علم النفس. وقد أثبتت مدرسته مصداقيتها في كثير مما طرحته من قضايا في ميدان علم النفس. وكان من تلامذته وأتباعه إلى حد ما الدكتور مصطفى سويف الذي أصبح فيما بعد رئيس قسم علم النفس عندما استقل هذا القسم عن قسم الفلسفة. وكان الدكتور سويف مختلفاً عن بقية الأساتذة صارماً ومتعالياً. كان يدخل إلى الفصل ثم يقفل الباب بالمفتاح في جيبه مانعاً الدخول والخروج، لا يقبل التأخر عن موعد الدرس ولا يسمح للطلاب بالخروج حينما يشاؤون كما كان الحال مع بقية الأساتذة. كان صارماً جداً ويعطينا خلاصة دراساته وتجاربه، وقد درّسنا مادة الإحصاء إضافة إلى علم النفس الإرتقائي والتكويني وعلم نفس الجنين والطفل. وكان مرجعنا كتابه في علم النفس الإرتقائي الذي

أجرى فيه تجارب على ابنته منذ حملت بها أمها وحتى أصبحت شابة. وقد أصبحت ابنته هذه زميلة له في قسم علم النفس تحمل نظرياته الخاصة وقد تختلف فيها مع أبيها وقد تتفق. كان مصطفى سويف نموذج الأستاذ الحريص على مصلحة طلابه ومصلحة العلم وهيبته. وكان يريد الارتفاع بمستوى التعليم في الكلية إلى مصاف الجامعات الكبرى رغم الاختلاف في الظروف. وقد نشأت بيني وبين سويف علاقة ودٍ خاصة وكان ينظر إليّ على أني نموذج الطالب الجيد.

أما الدكتور عثمان الذي كان قد افتتح لنفسه عيادة في منزله في شارع الدقي غير بعيد عن كلية الآداب وعن مكان سكني، فقد درّسنا عدة مواد كان منها علم النفس الصناعي وعلم النفس الحربي وعلم النفس التعليمي. وقد أعجبت بطريقته بسرد المعلومات والإفادة منها، كما أعجبت بشخصيته. وهؤلاء الأساتذة الثلاثة جعلوني أهتم بعلم النفس اهتماماً خاصاً. وقد فكرت أكثر من مرة بتوجيه اهتمامي إلى علم النفس والتخصص فيه وخاصة بعد تخرجي من القسم. وما زالت أفكار هؤلاء ونظرياتهم معيناً لي في فهم الشخصية الإنسانية، ولقد أضفت إلى ما أخذته عن هؤلاء الكثير. ولولا أن الظروف لم تساعدني كثيراً لكنت الآن في عداد المتخصصين في علم النفس بدلاً من الفكر الإسلامي.

قلت إنه تيسر لي أساتذة معروفون مشهورون، منهم د. مصطفى حلمي، أستاذ التصوف الإسلامي وصاحب كتاب «**الحياة الروحية في الإسلام**»، وهو من الكتب الممتازة التي تلخص دراسة التصوف في كتاب صغير وصاحب كتاب «**عمر بن الفارض**». وقد اهتم بالتصوف وكان هو نفسه متصوفاً وضريراً، فكان يحدثنا عن ظهر

قلب. كان هادئاً إلا أنه كان يثور ثورة كبرى إذا أحس أن بعض الطلاب يحاول أن يستغل واقعة أنه ضرير، فقد ثار على إحدى الطالبات مرة وكانت تحاول أن تداعب زميلاً لها مستغلة عمى الأستاذ فقال صارخاً: روحي داعبيه في السرير وقولي له الكلام الذي تقولينه هناك وليس هنا، هنا جامعة وليس عش غرام.

وكان من أساتذتي د. أحمد فؤاد الأهواني أستاذ الإسلاميات المعروف. وكما حببني حلمي بالتصوف فإن الأهواني غذى حبي للفلسفة الإسلامية وفتح عيني على بعض المسائل العميقة فيها. وكذلك كان الحال مع د. إبراهيم بيومي مدكور وهو أشهر من أن يعرف. وكان محمود الخضيري أستاذ الفلسفة الأوروبية الوسيطة لا يضاهيه أحد في ميدانه وإن كان قليل الإنتاج.

كان رئيس قسم الفلسفة طيلة مدة دراستي د. عثمان أمين وكان نمطاً فريداً من الأساتذة. كان يدّرسنا الفلسفة الأوروبية الحديثة وكان متعمقاً في دراسته لهيجل وكانت وديكارت. وكان معجباً بهذا الأخير شأنه في ذلك شأن جميع المثاليين. وقد حاول عثمان أمين مضاهاة يوسف مراد صاحب التكاملية فأسس لنفسه مدرسة أسماها «الجوانية». ومن الواضح من عنوان أو إسم هذه المدرسة أن صاحبها كان يريد أن يبحث عن حقائق الأشياء فكان يرى لكل شيء ظاهراً وباطناً، وأن حقيقة الشيء هي باطنه أو داخله أو «جوّاه» كما يقول. ولم تكن هذه المدرسة من العمق في شيء. فإذا كانت التكاملية تقوم على أسس علمية ثابتة ومعترف بها وقد جعلها صاحبها من المدارس التي وجدت لها صدى في الغرب. ونشأت مدارس واتجاهات فلسفية ونفسانية تنحو نحو التكاملية بدءاً من أعضاء الإنسان وخلاياه وانتهاء بكل مظاهر

الطبيعة. وقد حاول يوسف مراد أن يتناول جوانب الحياة كافة أي الحياة الإنسانية فقط فيثبت تكاملها بعضها مع بعض. وباختصار أنشأ يوسف مراد مدرسة مشروعة يمكن القبول بها في خطوطها العريضة بل التفصيلية أيضاً. أما عثمان أمين فلم يتمكن من إنشاء مدرسة من هذا القبيل، فبقي يدور في فلك سقراط وأفلاطون ويدور حول نفسه دون قراء أو تلامذة.

كان عثمان أمين فاجراً، يشتم زملاءه، ولا سيما يوسف مراد وأساتذة علم النفس، وكان يسميهم «بتوع الكلاب والفئران» ويحاول فرض أفكاره على طلابه بصوته الجهوري المرتفع بقوة الصوت أكثر من قوة الحجة، ولا يتورع عن رفع علامات الموالين له الذين يتقربون منه بحمل أغراضه وحقيبته الخاصة، أو بالذهاب إلى بيته وأخذ الأطفال إلى الحديقة العامة أو بحمل أغراض المنزل من خضار وفاكهة وخبز وما يشبه، وأولئك الذين يبخرون له ولا يتورعون عن إسماعه كلمات الإطراء والمديح. وكان في ذلك على عكس د. توفيق الطويل ـ أستاذ الفلسفة الأخلاقية ـ الذي كان مترفعاً عن الصغائر وطيّب العشرة وطيّب الأخلاق لم يأبه بالمناقشات، وكان يحب طلابه ويحرص على مصالحهم لا يفرق بين موال له وغير موال. فكان الطلاب سواسية دون محسوبيات ينجح من يستحق وينال العلامات العليا من يستحق عن جدارة وليس عن مديح الظل العالي.

وأكثر من سأتحدث عنه من أساتذتي وكان أقربهم إليّ وقد نشأت بيننا رابطة صداقة فريدة هو الدكتور زكريا إبراهيم. كان زكريا إبراهيم يدرسنا الفلسفة المعاصرة وكان صاحب أفكار متحررة. فكان موضع إتهام دائم من قبل السلطة والمخابرات التي

جعلت حياته صعبة إضافة إلى الصعوبات الكثيرة التي كان مقيداً بها، فهو أولاً قبطي ومتزوج من فرنسية وهذا موضوع اتهام أول، وكان صاحب أفكار تقدمية متحررة كما كان على ميل غير مباشر أو غير معلن إلى الوجودية وهذا موضع اتهام ثان. وكان زملاؤه من أمثال عثمان أمين يشيرون إلى ما يحمله من أفكار لا تتفق مع النظام القائم، مع أن واقع الأمر هو عكس ذلك. وهذا موضع اتهام ثالث. وكان زكريا إبراهيم إضافة إلى ذلك يعاني من مرض الفأفأة أو التأتأة وهو قيد كبير في مجتمع متخلف، ولم يكن يأخذ حظه من الترقيات التي يستحقها. وأخبرني مرة أن دخله الشهري كان أقل من خمسة وعشرين جنيهاً في وقت كنت أنا الطالب العازب وليس عندي زوجة أو طفلة أعيلها، أصرف أكثر من ذلك شهرياً.

كان زكريا إبراهيم يسكن في مصر الجديدة وكان يأتي إلى الجامعة بواسطة النقليات العامة التي تستغرق أكثر من ساعة إياباً وقوفاً وسط الناس وفي الزحام. وكنت أزوره أكثر من مرة في الشهر واتحدث مع زوجته الفرنسية وطفلته الصغيرة. وكنا نتبادل الأحاديث، وقد تعلمت منه وأفدت كثيراً. كان معجباً بجِدّي وقراءاتي الخاصة في ميادين متعددة وكان يعرف إجابتي من بين مئات الإجابات من خلال أسلوبي في الكتابة ومن خلال استشهاداتي. فكان يرى إجابتي مختلفة لأن سائر الطلاب يحاولون تفريغ ما حفظوه فقط، ولهذا كنت أحظى بأحسن العلامات. وكان يناقشني في إجاباتي حتى قبل صدور النتائج.

كان زكريا إبراهيم على النقيض من عثمان أمين. كان قارئاً جيداً ومهماً، على وعي بأحدث التيارات الفكرية التي كان يحاول بثها في كتبه. وقد أدرك منذ بداية عمله أن الطريقة الصحيحة للوصول

إلى تحسين مستواه الأكاديمي الشخصي هو الجدية في العمل. فانكب على عمله وأصدر في فترة قصيرة من الزمن وخلال حياته القصيرة عشرات الكتب الجادة التي أغنت المكتبة العربية.

مات زكريا إبراهيم تحت ضغط العمل والخوف المبالغ فيه من المخابرات، والتخاصم والتحاسد مع الزملاء، وشدة عبء الحياة الاجتماعية والاقتصادية. وترك إرثاً جيداً لطلاب الفلسفة ودارسيها. ولو طالت به الحياة لكان إرثه كبيراً لا غنى عنه للمعنيين بالفلسفة. ومات أحمد فؤاد الأهواني على درجات فندق أوراسي في الجزائر وبجانبه حقائبه وكتبه، فقد طردته إدارة الفندق لأنه لم يدفع المترتب عليه. ولم يتمكن من الحصول على حقوقه من الجامعة في الوقت اللازم بسبب البيروقراطية وانتهى به الأمر على عتبات الفندق. هذه حال الكثير من أساتذة الجامعات كباراً وصغاراً. وكلنا يعرف قصص الأساتذة المصريين الذين يضطرون للتدريس في جامعات دول الخليج والسودان وجامعة بيروت العربية وغيرها هنا وهناك فتضيع فرص البحث العلمي سعياً وراء الرزق والعيش الرغيد. ولا أريد أن أطيل فالحديث عن أوضاع الأساتذة الجامعيين والبحث العلمي في البلاد العربية يتفاوت من مكان إلى آخر، إلا أن البلاد العربية التي كان لها السبق في هذه الميادين كمصر وسوريا والعراق ولبنان تعاني أزمة تحتاج إلى بحث جدي.

ولعل آخر من سأتحدث عنه من أساتذتي هو د. زكي نجيب محمود، أحد أعلام الفكر العربي المعاصر. درس زكي نجيب محمود في إنكلترا وتأثر بأعلام المدرسة الوضعية المنطقية وتخشتين بشكل خاص وبرتراند رسل بعد ذلك. وقد وضع كتابه الشهير «الوضعية المنطقية» معلناً تبنيه لأفكار هذه المدرسة. وقد درست

الوضعية المنطقية على يديه وأعجبت وتأثرت بأفكارها وأفكاره. ولم يعرض زكي نجيب محمود أفكاره في كتابه هذا فقط بل وضع عدداً من الكتب شرح فيها معالم المذهب ككتابه «نحو فلسفة علمية أو خرافة الميتافيزيقا»، «مجتمع جديد أو الكارثة» «تجديد الفكر العربي»، «موقف من الميتافيزيقا»، وهو العنوان الجديد الذي أختاره لكتابه خرافة الميتافيزيقا أي أن الكتابين كتاب واحد وقد استبدل المؤلف العنوان نظراً لتطرف العنوان الأول.

ولزكي نجيب محمود كتب أخرى منها «قصة نفس» و«قصة عقل». وفي هذين الكتابين الآخرين يلخص الكاتب موقفه من قضية أن موضوعات العقل هي غير موضوعات النفس، فإذا رأت امرأة ما شباك نورٍ في السماء فهذه رؤية خاصة. فالمرأة صادقة في ما ترى إلا أن هذه التجربة الخاصة لا يشارك فيها الآخرون. ولهذا فهي ليست موضوعية ولا تخضع للقياس العلمي ولا للعقل. وقد اكتشف الأستاذ محمود أننا نكيل بكيلين كيل النفس وكيل العقل. وفي مطلع شبابه خاض صراعاً عنيفاً مع الشيوعيين الذين اتهموه بالترويج للعلم الغربي وللعقل بمعناه غير الملتزم. وما يدين به الفكر العربي لزكي نجيب محمود في الحقيقة هو هذا الدفاع عن العقل في مجتمع يجيز كل شيء للنفس. ولم تهدأ ثورة زكي نجيب ودفاعه شبه الدونكيشوتي عن العقل، فقد كان يقاتل منفرداً، ودارت بينه وبين الشيوعيين، محمود أمين العالم بشكل خاص معارك دامت سنوات.

انعقدت بيني وبين د. زكي نجيب محمود صداقة خاصة، فقد كنت أحضر كل دروسه وكنت معجباً بها إلى أبعد الحدود. كنت أصغي وأستوعب، وقد قرأت أكثر كتبه، وازدادت هذه الصداقة

عندما ذهب للتدريس في جامعة بيروت العربية بصحبة زوجته وهي أستاذة جامعية أيضاً في علم النفس. كنت صديقه ومرشده في بيروت. أخذته إلى طرابلس وزرنا الجبال وأكلنا في المطاعم والبيوت. ولكن الأهم من ذلك أننا كنا نعقد اللقاءات مع الأدباء والمثقفين. أذكر أكثر من لقاء مع أدونيس أنتقد فيه زكي نجيب محمود شعر أدونيس. وأذكر أنه كان يقرأ القصيدة الواحدة أكثر من مرة، وكان أدونيس يصغي بإمعان ويناقش ويقبل النقد. وكان كثير من هذه الجلسات يتم بحضور نفر قليل من الأصدقاء يكاد ينحصر في واحد منا نحن الثلاثة أو الأربعة نجلس ساعات في عملية نقد جدية. وكنا نخرج من شعر أدونيس إلى الأدب العربي شعراً ونثراً. كان إدوار أمين البستاني يرافقنا وقد قرأ له زكي نجيب وأبدى ملاحظات نقدية قبلها البستاني صديق أدونيس.

هكذا كنت أمضي أكثر أوقاتي مع زكي نجيب محمود. تعلمت منه النظرة العقلانية والموضوعية للأشياء. عندما كنا في طريقنا إلى طرابلس مرة، كنت أقود السيارة وعندما وصلنا إلى النفق القديم قريباً من طرابلس أقفلت راديو السيارة فسألني عن السبب. كان يتحرى سبب كل شيء وكل حركة ويريد أن يفسرها تفسيراً علمياً ويتحرى ما إذا كانت عقلية علمية أم لا.

تأثرت كثيراً بزكي وكنت أزوره في القاهرة فكان يعرفني من صوتي بعد أن شحّ بصره. وقد التقيته مرة في تونس بعد حصولي على الدكتوراه، أما قبل ذلك فقد كنت أفكر جدياً بكتابة أطروحتي عن الوضعية المنطقية، إلا أن الأمور دارت دورتها وانتهيتُ إلى معهد الدراسات الإسلامية في مونتريال في كندا ولذلك قصة أخرى.

منذ الأشهر الأولى في القاهرة سنة ١٩٥٨ عرّفوني إلى فتاة في

قسم الفلسفة اسمها نبيلة، وأقصد بـ«عرّفوني» الرفاق في حركة القوميين العرب. فكانت فتاة طيبة تفيض حناناً، ومن عائلة فلسطينية طيبة تركت فلسطين إلى مصر الجديدة. وكان والدها يعمل مع حكومة عموم فلسطين، وقد انصرف الأولاد إلى العلم. إلا أن نبيلة لم تكن على قسط من الذكاء ولم تكن تتمتع بالجمال. كانت في قسم الفلسفة تعيد سنتها الأولى في قسم الانتساب. وكان نظام الانتساب هذا من أعجب الأنظمة، فالطالب الذي لا يجمع معدلاً عالياً من العلامات يقبل في القسم ولكن لا يحق له الحضور. فالحضور محصور بالطلاب أصحاب المعدلات المرتفعة. وفي مقابل ذلك كان في القسم نفسه نظام آخر هو نظام الشرف، فكان الطلاب المتفوقون يختارون لمزيد من الاهتمام، وقد حظيت بهذا الاهتمام الخاص نسبياً وتخرجت بمرتبة الشرف الثانية أي أني كنت ثاني صاحب أكبر مجموعة للعلامات خلال السنوات الأربع التي قضيتها في قسم الفلسفة. وقد سطر ذلك على الشهادة حيث كتب «مع مرتبة الشرف الثانية».

في قسم الانتساب لم تتمكن نبيلة من النجاح إلى السنة الثانية فكنت أساعدها من حين لحين إلا أني كنت أيضاً أعطلها عن الدراسة والتفكير أحياناً كثيرة، فقد انخرطنا في علاقة عاطفية طويلة استمرت طيلة سنوات دراستي الأربع، بل امتدت بعد ذلك. فقد كنا نتخاطب بعد عودتي إلى بيروت. وقد زارتني في لبنان وأقامت معنا في طرابلس، ولكني كنت قد دخلت مرحلة جديدة في حياتي لم يعد فيها مكان لنبيلة.

كانت علاقتي بنبيلة علاقة عاطفية، رومنطيقية إلى أبعد الحدود. كنا نقضي الساعات الطويلة معاً. كنا نتحدث كثيراً ونحلم كثيراً

ونقرأ وندرس قليلاً وخاصة عند اقتراب موعد الامتحانات. كنت أسير معها وأوصلها بالتاكسي أو الأوتوبيس إلى ميدان العتبة لتقلّها الحافلة المتوجهة إلى مصر الجديدة حيث تقيم مع ذويها، ولكني كنت أنقطع عن رؤيتها أثناء فترة الامتحانات إلا نادراً. فقد كنت أضع لنفسي برنامجاً خاصاً أثناء الامتحانات أحاول عبره أن أعوض ما فاتني من دروس خلال الأشهر السابقة من السنة، حيث كنت أنشط في كافة المجالات ولا سيما المجال الحزبي ومجال العمل السياسي.

كان برنامجي الدراسي قبل شهر من الامتحانات يتلخص في أن أدرس لمدة تتراوح بين ثماني وعشر ساعات كاملة في اليوم الواحد، فكنت أراجع وألخص أو أوسع بعض الموضوعات وقد أعود إلى بعض المراجع التي تهم الموضوع وتعمّق معرفتي به. وكان ذلك يختلف كلية عن طريقة زملائي القائمة على الحفظ وباستثناء القلّة وبعض الطلبة من غزّة، فإن الكل كان يعمد إلى الحفظ والتلخيص. وكنت قبل يوم الامتحان أو في ليلة الامتحان أذهب إلى السينما وأنسى أمر الامتحان كلية إلى أن نصل إلى القاعة. كانت قاعات الامتحانات في سرادق أو خيم واسعة تتسع للآلاف من الممتحنين نظراً لكثرة عدد الطلاب، وكان يسود الامتحانات جوّ إرهابي يفرضه المراقبون. فكان بعض الطالبات والطلاب يقعون مغمى عليهم. وكان ذلك يتكرر في كل امتحان، خاصة وأن الامتحانات كانت تجري في بداية فصل الصيف حيث كانت الحرارة المرتفعة تلهب الأبدان، تصل في بعض الحالات إلى ٥٠ درجة مئوية أو ما هو قريب من ذلك.

بعد الامتحانات كنت أهرب إلى بيروت لأعمل في مجلة «الحرية»

طيلة الصيف، وأزور الأهل في طرابلس، وأعيش حياة مختلفة تماماً بانتظار عودة العالم الدراسي وعودتي إلى القاهرة وإلى علاقتي الرومنطيقية بنبيلة. وأؤكد على الرومنطيقية، لأني لم أتجاوز في علاقاتي معها حدود القبلة، ونادراً ما كان يحصل ذلك.

في بيروت بعد التخرج، تابعت عملي في الصحافة، في مجلة الحرية خاصة، وكان قد انضم إلى أسرة التحرير فيها غسان كنفاني الذي كان يكتب أبواباً خاصة إضافة إلى بعض المقالات السياسية. ولكنه كان يسهم معي في الصفحة أو الصفحات الثقافية وقد أثرى بمساهماته تلك الصفحات. وبالإضافة إلى «الحرية» عملت أيضاً في جريدة «المحرر»، حيث العمل في «المحرر» مختلف تماماً. فـ«المحرر» جريدة سياسية يومية، ولا بد فيها من التحقيقات والأبواب والزوايا الثابتة. ولا شك أن العمل في الصحافة اليومية يختلف كلية عن العمل في الصحافة الأسبوعية الملتزمة أو الحزبية. كانت تلك تجربة جديدة تعلمت فيها كيف أكون صحفياً. كنت أكتب عموداً خاصاً بي أهاجم فيه، على كيفي، كل ما لا يعجبني في أي حقل عام كان. وكنت أشرف على بعض التحقيقات الصحفية التي يجريها أو التي أكلف بها بعض الموظفين الجدد. وكنت أجري بعض المقابلات المهمة. أذكر منها مقابلتين في منتهى الأهمية إحداها مع كمال جنبلاط والأخرى مع ريمون إده. أجريت الأولى على موعد إفطار صباحي مع جنبلاط في منزله في بيروت، وأجريت الثانية في مكتب إده في وسط بيروت التجاري.

كان عملي في الصحافة اليومية يحظى بتأييد رئيس التحرير هشام أبو ظهر وعرّاب الصحيفة محسن إبراهيم. وقد استمر عملي في الصحافة طيلة إقامتي في بيروت حتى سفري إلى كندا ولمدة

تقارب السنوات الثلاث موزعاً بين مجلة «الحرية» وجريدة «المحرر». وكان قد انضم إلى أسرة تحرير الحرية نايف حواتمة، وكنت قد عقدت معه صداقة خاصة في طرابلس قبل سفره إلى الأردن ومن ثم إلى العراق قبل العودة إلى لبنان. وقد تطورت صداقتي الخاصة مع نايف فكان رفيقاً يسدي لي النصائح. وقد شجعني على السفر إلى كندا فيما بعد وعرفني بسيدة بريطانية تعلمني أو تسهم في تعليمي اللغة الإنكليزية قبل سفري.

أفدت من عملي في الصحافة إفادة كبيرة وظفتها فيما بعد عندما أصبحت رئيساً لتحرير «المجلة العربية» الصادرة عن منظمة الطلبة العرب في الولايات المتحدة وكندا، وغيرها من المجلات إنتهاءً بمجلة «الفكر العربي» ثم نشرة المنظمة العربية الكندية لحقوق الإنسان.

شخصية نايف حواتمة شخصية متناقضة معقدة، فهو مقاتل ثوري ولكنه لا يمتنع عن اقتناص الفرص لدرجة الانتهازية. يحب المديح ويشبه نفسه بكبار الشخصيات الثورية في التاريخ من نوع مالكوم إكس وتشي غيفارا وكاسترو. ويحاول تقليد هؤلاء، ولا سيما في خطبه الطويلة التي قد تستغرق الساعات الطوال. وقد أثر ذلك على الكثيرين من المقربين منه الذين يحاولون بدورهم تقليده ولا سيما تطويل الحديث وتطويل الإجابات عن الأسئلة بما أصبح ظاهرة في صفوف قيادة الجبهة الديموقراطية. والذين يعرفونه إما أن يحبوه كثيراً لدرجة الإعجاب الشديد، وإما أن ينفروا منه. ولكنه في داخله طيب جداً وهو محب لأصدقائه ووفي ولهذا فإن الكثيرين يلتزمون بصداقته ومنهم شخصيات وطنية وثورية حقيقية تضمها قيادة الجبهة.

وهو في واقع الأمر وسط بين الدكتور جورج حبش في طيبته ومحبته وأخلاقه وتفانيه وتواضعه وقلبه الواسع الذي لا حدود له، وياسر عرفات في انتهازيته المعروفة. وإذا كنت قد عرفت الرجال الثلاثة فإن أول من عرفته وأكثر من أحببته وعملت معه هو جورج حبش ورفيق عمره الدكتور وديع حداد قبل أن ينقلب إلى الإرهابي رقم واحد في العالم. إلا أن معرفتي بنايف كانت معرفة صداقة وزمالة ورفقة. كنا قريبين جداً، وقد درس أثناء عمله في «الحرية»، في جامعة بيروت العربية حيث كنت أدرّس كمعيد إسماً، وكمحاضر عملاً وفعلاً. فلم أكن أعمل في الجامعة بإشراف أحد ولم يكن أحد من الأساتذة يتدخل في عملي، بل كنت كواحد منهم طيلة مدة ثلاث سنوات إلى أن تركت الجامعة وبيروت إلى كندا. أما ياسر عرفات فلم أحبه يوماً منذ أن التقيت به ضمن عدة وفود قابلته وتحدثت إليه وحتى اليوم.

وكان ممن عرفتهم عن قرب د. وديع حداد، فقد كان يتردد على مركز مجلة «الحرية» في وسط المدينة دائماً، يقابل القادمين من الأقطار العربية المختلفة. كان يلبس الكاكي بشكل دائم وكانت جيوبه موزعة كل واحدة تختصّ بقطر عربي أو موضوع مهم كالمالية مثلاً أو العمل الفدائي الذي كانت الحركة قد بدأته بإشراف وديع حداد تحت أسماء متعددة. وقد استشهد في هذه الفترة بعض شباب الحركة ممن كنت أعرفهم من الفلسطينيين. كان وديع حداد يحمل حملاً كبيراً ويشرف على أعمال كثيرة مهمة وخطيرة. وكان ميله للعمل الفدائي الذي ظهر مبكراً يدل على شخصيته إلا أنه لم يكن يدل على نوع الإرهابي الذي اشتهر به فيما بعد.

إقتصر عملي في حركة القوميين العرب في فترة إقامتي في بيروت بين سنتي ٦٢ـ ٦٥ ولمدة تزيد عن ثلاث سنوات قليلاً على العمل في الصحافة، فقد كنت قد فرزت للعمل في «الحرية» فقط، ومن ثم في «المحرر». لأن «المحرر» كانت بوجه من الوجوه جريدة القوميين العرب. محسن إبراهيم كان عرابها ثم أصبح غسان كنفاني رئيساً لتحريرها. لم يكن عندي مهمات حزبية أخرى، وقد استطعت وفي فترة قصيرة أن أشق طريقي وأصبح في عداد الكتّاب الصحفيين.

في تلك الفترة كان منح الصلح مديراً للإعلام وكنت أزوره في مكتبه في السراي القديمة في مواجهة قصر العدل، وكان يمدني بمادة إعلامية جيدة ساعدتني على النجاح. كان منح يحبني منذ تلك الأيام ولا يزال، وكنت أبادله تقديراً بتقدير. وكان لي أعمال صحفية ناجحة منها مقابلة مع وزير خارجية الأردن، وقد أجريتها عند حضوري مؤتمر القمة العربي الذي عقد في شتورة، وقد حضرت المؤتمر كصحفي أو مندوب عن مجلة «الحرية»، إضافة إلى المقابلتين اللتين أشرت إليهما مع إده وجنبلاط. كما كان لي مقالات جيدة أثار بعضها الاهتمام، ومنها مقالة عن تعديل الدستور وضرورة هذا التعديل إذا دعت الحاجة إلى ذلك. وقد سرّ الشهابيون بهذا الموقف مع أني لم ألجأ إليه تزلفاً. فالدستور والقوانين إنما وضعوا لتنظيم حياة الناس والمجتمع وليس لتقديسهم وتصنيمهم.

والواقع أنني كنت أحب الصحافة وحياة الصحفي، وخاصة بمعناها ودورها الحقيقيين لا كتجارة كما ينظر إليها البعض ولا كمصدر للرزق غير الحلال، وللشهرة حتى على حساب الناس. بل خدمة

للناس والمجتمع ككل. وقد ظهرت بوادر حبي للصحافة منذ كنت تلميذاً في طرابلس قبل مرحلة الجامعة. واستمر ذلك حتى أصبحت رئيس تحرير مجلة «الفكر العربي» التي جعلت منها أهم مجلة أو من أهم مجلات الفكر العربي المعاصر، رغم ظروف الحرب في لبنان، ورغم ضعف الإمكانات المادية يوم تسلمي لرئاسة التحرير. والواقع أن دوري في مجلة «الفكر العربي» لم يكن محدوداً بفترة ترؤسي لتحريرها، بل كان منذ صدورها تقريباً وحتى سفري إلى كندا وتركي لبنان سنة ١٩٩٠. ومن المجلات الجيدة التي رأست تحريرها مجلة «المجلة العربية» التي كانت تصدر عن منظمة الطلبة العرب في الولايات المتحدة وكندا كما أشرت، وقد أعود إلى هذا فيما بعد عند الحديث عن المنظمة ودوري فيها.

ومع هذا لم أشتهر كصحفي أو كرئيس تحرير فقد كانت هذه المهمات تأتي ضمن إطار أكبر وضمن مهمات تحجب الكاتب والكتابة، كالمناضل القومي والطالب الثوري والمفكر وأستاذ الفلسفة وداعية حقوق الإنسان وغيرها.

لم يقتصر عملي على الصحافة في تلك الفترة الممتدة من تخرجي من جامعة القاهرة حتى التحاقي بجامعة ماكغيل McCgill في مونتريال. فبالإضافة إلى الصحافة عملت في التدريس. وكما ذكرت كنت محاضراً في جامعة بيروت العربية. حاضرت في موضوعات وخاصة تلك التي لم تكن تلائم بقية الأساتذة والمدرسين. درّست المدخل إلى تاريخ الفلسفة والفلسفة السياسية وغيرهما. ومن حسن حظي أن أساتذة الفلسفة كانوا قلّة نادرة، وكان أساتذة علم الاجتماع هم الأكثرية. فقد كان القسم الذي أدرّس فيه للحقلين «قسم الفلسفة والاجتماع» وكان عدد أساتذة

الفلسفة يقتصر على واحد في أغلب الحالات مما أعطاني مجالاً واسعاً للعمل.

كان عدد الطلاب قليلاً في البداية، خاصة وأن الجامعة كانت في سنتها الثالثة عندما انضممت إلى هيئة التدريس وأنا لا أحمل إلا الإجازة. إلا أن مرتبة الشرف كانت نقطة القوة، فقد كان طلاب مرتبة الشرف يؤخذون كمعيدين في كل الجامعات المصرية. وكان في كل الجامعة إثنان مثلي أي من خريجي جامعة القاهرة غير الحائزين على الدكتوراه: خالد الرافعي شقيق د. عبد المجيد الرافعي وعبد المجيد غزاوي. وقد تصادف (ربما) أننا كنا جميعاً من طرابلس (كان الأول في قسم الجغرافيا والثاني في كلية الهندسة). كان عدد طلاب السنة الثالثة التي كنت أدرس فيها مادة الفلسفة السياسية أقل من عشرة طلاب، وكان أكثرهم يكبرني سناً. فقد افتتحت الجامعة لهؤلاء الذين لم يتمكنوا من دخول الجامعات الأجنبية في لبنان أو الجامعة اللبنانية لأسباب فنية وسياسية. وقد ازداد عدد طلاب الجامعة تدريجياً فكان طلاب السنة الأولى بالعشرات.

وفي آخر سنة قبل تركي الجامعة، بعد حصولي على منحة دراسية في ماكغيل كانت الجامعة في سنتها الخامسة من العمر، وقد ارتفع عدد طلابها من ١٧٠ طالباً سنة (١٩٦٢- ١٩٦٣) إلى ٣٧٠ طالباً (١٩٦٣- ١٩٦٤). ثم ازداد العدد بعد ذلك تدريجياً إلى أن زاد عن الـ ٢٥ ألف طالب، موزعين على كليات الآداب والتجارة والهندسة والحقوق. وعبر السنوات أضيفت كليات أخرى حتى اكتملت الجامعة.

كنت أستمتع بعملي في الجامعة وكان حبي للصحافة لا يضاهيه

إلا حبي للتدريس. وقد اخترت في تلك الفترة لنفسي شقة قرب الجامعة، بناية الفاكهاني، على الخط العام على بعد مئات الأمتار من الجامعة، فكنت بذلك هدفاً سهلاً للطلاب والطالبات ولكن عن غير قصد.

كان أكثر من أعرفهم هم من المعلمين في المرحلتين الإبتدائية والثانوية وكانوا فخورين بي جداً. وكنت إذا التقيت واحداً منهم شدّ على يدي مردداً عبارات الفخر متمنياً لي المزيد من النجاح والتقدم.

في السنة الأخيرة من تدريسي في جامعة بيروت العربية وقع لي حادث طريف لا أنساه. كنت ألقي درسي على طلاب السنة الأولى، إلتفت يُسرة وفجأة وقعت عيناي على أستاذ كان يعلمني في مدرسة الحدادين الرسمية التي أصبح اسمها فيما بعد مدرسة الإمام الغزالي؛ والواقع أنني اضطربت قليلاً لهذا، فأستاذي في المدرسة الابتدائية والتكميلية جاء يتعلم عندي في الجامعة. كان يجلس بهدوء كعادته وعندما وقعت عيناي في عينيه ابتسم ابتسامة ذات دلالة، فابتسمت وأكملت درسي. وفي نهاية الدرس كان أول ما فعلته أن أسرعت إليه وشددت على يديه مكبراً فيه هذه الخطوة الجريئة التي تدل على قلب واسع وعقل متفتح.

لم يخجل الأستاذ من أن يصبح تلميذاً، وبشكل واضح ومباشر لتلميذه، وفي الواقع كان ذلك الأستاذ محبوباً من تلامذته. كان هادئاً وطيباً يميل إلى الابتسام. وكان يدرس عندما كنا تلامذة عنده، في بيروت في معهد المعلمين المتوسط محاولاً تحسين وضعه على ما أذكر. وكنا نسأله عن أخبار السياسة والنشاطات الوطنية والقومية في بيروت، وكان يجيبنا مشجعاً غير متردد في دعوتنا إلى

العمل القومي. كنت أحب هذا المعلم، وعندما جاءني طالباً في الجامعة ازداد حبي وإكباري له وما زال. ولن أنسى هذه الواقعة ما حييت.

أفادني عملي في جامعة بيروت العربية. فقد وضعني في مرتبة متقدمة جداً على أمثالي من الخريجين الجدد، فكانت علاقاتي على مستوى أساتذة الجامعة، صداقاتي في غالبيتها مع الناشطين والناجحين. كان طلابي في ازدياد والكثير منهم كان من زملائي ومن المعلمين الذين يكبرونني سناً، جاؤوا إلى الجامعة لتحسين أوضاعهم. كانوا من كافة أنحاء لبنان ثم جاء جيل من الشبان الجدد وجاء الكثير من شبان البلدان العربية المجاورة ولا سيما الأردن وفلسطين وحتى من مصر ومن بلدان الخليج. وقد عقدت صداقات قليلة مع بعضهم وصداقات كثيرة مع زملائي الأساتذة مثل الدكتور محمد أبو الوفا الغنيمي التفتازاني أستاذ التصوف وعميد الآداب في القاهرة بعد ذلك ورئيس جامعة الزقازيق! وقد تطورت الصداقة حتى أصبحت على المستوى العائلي فكنت أزوره كثيراً في بيته في بيروت والقاهرة وتعرفت بزوجته الطيبة وأولاده.

في فترة إقامتي في بيروت لمدة ثلاث سنوات بين جامعة القاهرة وجامعة McCgill، تطورت صداقتي مع المرحوم الدكتور حسن صعب، فكنت ألتقيه في بيته كثيراً ثم بعد ذلك في الندوة اللبنانية التي أصبحتُ فيما بعد أميناً للنشاط الثقافي فيها. وكان د. صعب يشدني إليه دائماً بتشجيعه وكرمه وحسن ضيافته وعدم نسياني في كل المناسبات العامة التي كان يحييها من دعوة أحدهم للمحاضرة أو عقد ندوة أو مؤتمر سياسي وتنموي، فكان إسمي دائماً على القائمة. كان يتوخى فيّ مستقبلاً واعداً فطرح إسمي على معهد

الدراسات الإسلامية في مونتريال، وكان قد زار المعهد عند عمله في بعثة لبنان في الأمم المتحدة وفي السفارة اللبنانية في واشنطن. فكتب إلى جامعة McCgill طارحاً إسمي، فأرسل له طلب الالتحاق بالمعهد.

في تلك الفترة، فترة السنة الأخيرة من إقامتي في بيروت قبل سفري إلى كندا، حصلت على منحة دراسية في إسبانيا بواسطة الدكتور الترك الذي كان يدرس معنا في جامعة بيروت العربية وقد أصبحنا أصدقاء. وكان الترك من خريجي إسبانيا وله صداقات مع السفارة الإسبانية. كما حصلت على منحة أخرى من جامعة القاهرة بواسطة الدكتور زكي نجيب محمود الذي سبقت الإشارة إليه، وإلى علاقاتي معه عند حديثي عن أساتذتي في جامعة القاهرة. وبعد تردد ومناقشة انتصر تشجيع حسن صعب فاخترت لذلك جامعة ماكغيل ومونتريال وكندا. ولكن قبل ذلك أثرت صعوبات قبولي المنحة إلى كندا رغم الإغراءات مع حسن صعب، فكان يهونها عليّ واحدة تلو الأخرى. وأهم تلك الصعوبات عدم معرفتي اللغة الإنكليزية. تصور أن يقبل إنسان منحة جامعية في جامعة أجنبية للدراسات العليا وهو لا يجيد لغة الدراسة ولا يعرف كيف يكتب رسالة للجامعة أو يملأ استمارة الالتحاق بالجامعة!! ولكن حسن صعب كان يقول أمامك خمسة أشهر تستطيع أن تدرس الإنكليزية، وعندما تصل ستنخرط في الجو الإنكليزي في الجامعة، وإدارة المعهد تتفهم ضعف الطلاب الأجانب باللغة الإنكليزية وسيأخذون ذلك بالاعتبار وخاصة في السنة الأولى.

ملأ حسن صعب استمارة الالتحاق بالجامعة وطلب الالتحاق بالمعهد وكنت أعود إليه يوماً بعد يوم وقد جعلني واحداً من حلقة

أصحابه المقربين. وجمعتُ رسائل التوصية الثلاث المطلوبة من الجامعة من المرحوم الدكتور محمد كفافي الذي كان عميداً لكلية الآداب في جامعة بيروت العربية وزوج الدكتورة زاهية قدورة صديقتي الدائمة، ومن حسن صعب نفسه، ومن د. زكي نجيب محمود على ما أذكر، وكان في بيروت...

عند تسلمي ورقة قبولي من جامعة ماكغيل، أخبرت إدارة الجامعة بذلك، وطلبت إلى زملائي في قسم الفلسفة والاجتماع عدم إدراج إسمي ضمن مدرسي العام التالي، وخففت أو بالأحرى أوقفت عملي في الصحافة في «الحرية» و«المحرر» وانصرفت إلى دراسة الإنكليزية بتشجيع حسن صعب الدائم ونايف حواتمة إضافة إلى محسن إبراهيم وجميع الأصدقاء. كان أمامي خمسة أشهر قبل أن أصل إلى مونتريال، أو أقل من ذلك قليلاً، فوضعت لنفسي برنامجاً حافلاً؛ كنت أدرس في الصباح من خلال الأشرطة والكتب المرفقة. أستمع إلى الأشرطة منذ استيقاظي وفي أثناء الطعام وأثناء الحلاقة ولبس ملابسي إلى أن يحين موعدي في معهد دراسة الإنكليزية في المدرسة الأميركية مقابل المدخل الرئيسي للجامعة الأميركية في بيروت. وقد عقدت علاقة خاصة مع إحدى المدرسات وأخذتها وزوجها الذي كان موظفاً إلى طرابلس ودارت المناقشات بالعربية والإنكليزية، أو الأصح كانت تتخللها الإنكليزية كدرس حي. وأذكر أن المناقشات احتدت بيننا وخاصة عند انتقادي للسياسة الخارجية الأميركية.

أما فترة بعد الظهر فكنت أقضيها بصحبة معلمة عجوز كانت تدرسني الإنكليزية أثناء أيام الأسبوع. وكان نايف حواتمة قد عرّفني بها كما أشرتُ سابقاً. وأما فترة المساء فكنت أقضيها في

دراسة ومراجعة دروسي المختلفة في منزل خالتي. وكان عصام ابن خالتي وأخته رجاء يعرفان الإنكليزية فكنت بمثابة التلميذ لهما أراجع دروسي معهما. وكنت لا أخرج عن هذا البرنامج اليومي إلا عند اضطراري لإلقاء درس في جامعة أو في إحدى المدارس التي كنت قد تعاقدت معها للتدريس وكانت كثيرة، إلا أنني كنت مشغولاً بما وضعته نصب عيني، وقد أقبلت عليه بكل ما استطعت وأصبحت شبه متفرغ له إلى أن حان موعد سفري إلى مونتريال التي وصلتها في الثاني من شهر أيلول/سبتمبر ١٩٦٥، على متن الخطوط الجوية البريطانية. وكنت قد ابتعت لنفسي غليوناً (pipe) استبدلت به سجائر الجيتان والغولواز الفرنسية، ألفتُ به نظر المتحدث، فلا يهتم بلهجتي، وقد انصرف إلى النظر للغليون.

شدني الحديث عن تعلمي للغة الإنكليزية عن إتمام حديثي عن الفترة التي قضيتها في بيروت قبل وصولي إلى كندا. ولا عجب في ذلك فقد كانت تجربتي في تعلم اللغة تجربة فريدة لا يستطيع أن ينجزها كل إنسان وأي إنسان.

ذكرت عابراً أنني كنت أدرّس في الثانويات إضافة إلى الجامعة كان أولها ثانوية المقاصد، وكان مدير التعليم في المقاصد د. أحمد مكي، وقد صدمني منذ لقائي الأول معه فلم أحبّه، وتدعّم عدم المحبة فيما بعد عندما أصبح عميداً لكلية الآداب وكنت أستاذاً فيها. ثم ثانوية بعقلين الرسمية، وكانت ثانوية جديدة وقد ألحّ علي الأستاذ حمادة ورجاني كل الرجاء بل وتوسل لكي أعلم فيها لأني لم أكن مجبراً على تجشم مشاق الوصول والعودة من وإلى بعقلين عدة مرات في الأسبوع. فقبلت وكان ذلك بمثابة تطوع وخدمة وطنية. وكان شريكي في هذا العمل خالد الرافعي فكنا نذهب

ونعود سوية عندما تكون مواعيد دروسنا متقاربة. ثم ثانوية رمل الظريف التي درست فيها صف الفلسفة لمدة سنة واحدة ثم امتنعت عن ذلك لأن الصف كان كبيراً يزيد عدد الطلاب فيه على الستين طالباً، فكان ذلك مضنياً وكان مدير الثانوية في ذلك الحين عبدالغني دوغان خال حسن صعب.

وكانت بيروت تعرف في تلك الفترة موجة من المدارس التي تعدّ التلميذ للحصول على الشهادة الموحدة السورية أو التوجيهية المصرية التي كانت تعادل البكالوريا الثانية اللبنانية. أي أن الطالب كان يحصل على إحدى هاتين الشهادتين ثم يلتحق بالجامعة، وخاصة بيروت العربية، وقد فتح ذلك مجال التحصيل العالي أمام المئات إذا لم نقل الآلاف.

الفصل الثالث

مونتريال

ثم جاء اليوم الكبير، يوم الخطوة الجديدة في مرحلة جديدة من حياتي لا أدري متى دارت في رأسي لأول مرة: الدكتوراه. كان لا بد لي من أن أترك كل شيء في بيروت. جامعة بيروت العربية و«الحرية» و«المحرر» والنشاط السياسي والاجتماعي، وأهم من ذلك الصداقات، والعلاقات والحب. كان لا بدّ من أن أقلع. وأقلعت على متن الخطوط الجوية البريطانية في الصباح الباكر من اليوم الثاني من أيلول/سبتمبر سنة ١٩٦٥ إلى لندن أولاً، ومنها إلى مونتريال.

على متن الطائرة، كنت أفكر في ما أنا مقدم عليه من خطوة كبيرة وجديدة نحو تحصيل العلم من مصدر قد يبدو غريباً في البداية. وبينما أنا أفكر في ما أنا فيه وأنظر حولي متأملاً ومراقباً، لفتت نظري ظاهرة أصبحت من واقع الأمور الثابتة فيما بعد، وهي أن كل الغربيين على متن الطائرة، أو من يبدو لي أنهم من الغربيين، كانوا يحملون الكتب، والمجلات في بعض الحالات، ويقرأون بنهم متواصل في حين كان الشرقيون، إذا صحت التسمية، يتلفتون

ويكثرون من الطلبات من المضيفات ويشربون وينتظرون الطعام. كنت طبعاً في عداد الفريق الثاني، وقد قصدتُ ذلك مع أني كنت أحمل الكتب... إنها تجربتي الأولى في السفر خارج البلاد العربية.

إخترت كندا لطلب العلم بدلاً من القاهرة أو إسبانيا، مع أن هذين البلدين يبدوان أقرب وأكثر تناسباً مع تخصصي. لإدراكي أن طبيعة الدراسة في مونتريال وكندا ستكون مختلفة منهجاً ومضموناً، إضافة إلى أن الجو العام في كندا وأميركا الشمالية سيساعدني على التقاط نظرة جديدة إلى الحياة والعالم. وهو ما حصل فعلاً على ما سنرى فيما بعد.

حطّت الطائرة في لندن، وفي المطار طلبت قهوة وأشعلت الغليون. وكنت قد استبدلت السجائر بالغليون حيث وجدته أنسب للتأمل والتفكير من السجائر. يضاف إلى ذلك أنني وجدت الغليون يساعدني في صرف الناس عن التساؤل عن لهجتي الإنكليزية الأقرب إلى الفرنسية، فقد كان الغليون غطاء وإن لم يكن غطاءً ناجحاً في كثير من الحالات.

في الطائرة في طريقنا إلى مونتريال تكررت الظاهرة نفسها التي أشرت إليها. إضافة إلى ظاهرة أخرى أصبحت حقيقة ثابتة عندي بعد ذلك، وهي أن الركاب من أوروبا إلى أميركا وبالعكس هم أكثر هدوءاً من الركاب من أي عاصمة عربية أو شرقية إلى أوروبا أو بالعكس. ليسوا أكثر هدوءاً فقط، بل أكثر رزانة وثقة بالنفس واحتراماً للآخرين. وقد تكون في الطائرة نفسها ومع الشركة نفسها، إلا أن الخدمة تختلف وكأن شركة الطيران هي شركة أخرى مختلفة. حتى شركات البلدان العربية والشرقية فإنها تتغير وتتبدل بين خطين أو مسافتين وكأنها ليست الشركة نفسها.

وصلت إلى مونتريال عصراً بسبب فارق التوقيت ووجدت بانتظاري في مطار مونتريال ـ دورفال Dorval، وكان المطار الدولي الوحيد في مونتريال، سكرتيرة معهد الدراسات الإسلامية الآنسة يول Miss Yule ومعها أحد الطلاب الباكستانيين السيد عبد الرب، فأخذاني في سيارة السكرتيرة إلي مؤسسة الشبان المسيحيين (YMCA) في وسط المدينة للإقامة مؤقتاً ريثما أنتقل إلى غرفتي في بيوت الطلاب في سفح الجبل ـ أعلى الجامعة ـ حيث بنيت عدة عمارات حديثة فخمة يتوسطها مطعم جامعي مستدير. وعندما تركتني الآنسة يول مع عبد الرب، حدثني قليلاً وأسدى إليّ النصائح بأسلوب تبشيري فشكرت له تطوعه في الذهاب إلى المطار ثم مساعدتي بعد ذلك.

وبالمناسة فإن السيد عبد الرب، أو السيد رب كما كان يعرف، ليس له اسم آخر. كان اسمه هو عبد الرب عبد الرب وقد درج الذين لا يعرفون العربية على تسميته بالسيد رب وكان بعضهم يناديه بـ«رب» هكذا، فكان ذلك من المفارقات اللافتة للنظر. وقد نعود لموضوع السيد عبد الرب هذا لاحقاً.

كان الطقس عند وصولي إلى مونتريال بعد ظهر ذلك اليوم رائعاً، ورغم تعبي الشديد لم أفعل سوى الاغتسال سريعاً، وتبديل ثيابي ثم الخروج إلى الجامعة التي لم تكن تبعد أكثر من مئات الأمتار، وكان ذلك فرصة للتعرف إلى الشوارع القريبة المواجهة للجامعة. كان كل شيء يبدو جميلاً، وكانت المساحات الواسعة للشوارع والمباني مما يريح النفس. أما ساحة الجامعة الخضراء التي تحيط بها المباني الأثرية والكليات التي تعود إلى القرن الماضي، فكان يتوسطها تمثال رخامي لثلاث نساء عاريات يحملن صحناً كبيراً

فيه زهور وتخرج منه نافورة ماء ينساب على أجساد النساء ويسقط في البركة المحيطة بالتمثال.

في الساحة الرئيسية في الجامعة، كان الشبان والشابات يتعانقون ويتداعبون بحرية دون رقيب أو حسيب. وكان البعض الآخر يداعب كرة هناك أو طابة أو غير ذلك وكل في عالمه الخاص. أما الثياب فأقرب إلى ورق التوت منها إلى الثياب كما نعرفها. كان ذلك يشكل بداية صدمة حضارية لي. ولكني عندما عدت إلى غرفتي في مؤسسة الشبان المسيحيين ومررت بحوض السباحة في الطابق الأرضي، لاحظت شباناً ورجالاً يتداعبون وأدركت بحس داخلي أن الأمور ليست طبيعية كلية، وهذا ما تأكد لي فيما بعد. انسحبت إلى غرفتي دون جدوى، وذلك أني عندما أردت الاغتسال استعداداً للنوم خرجت إلى الحمامات، وكان خروجي هذه المرة في فترة المساء، لاحظت أن الشبان يغتسلون عراة دون حرج من الآخرين. وكان بعضهم يذهب إلى غرفته ثم يعود منها حاملاً منشفته على كتفه بدلاً من أن يلفها حول وسطه كما يمكن أن نفعل في بلادنا. كان كل ذلك يتم عفوياً ودون تلفت إلى الآخرين. وكان من الطبيعي أنني لم أتمكن من مجاراة ضيوف المؤسسة فأسرعت في إنجاز مهمتي وعدت إلى غرفتي مفكراً في الفروقات الحضارية التي تسم سلوكنا وسلوك هؤلاء. وأدركت أنني قد أكون على أبواب صدمة حضارية. فها أنا ومنذ ساعاتي الأولى في مونتريال أواجه كل هذه الاختلافات الحضارية التي تحتاج إلى جهد خاص لاستيعابها.

فيما بعد تكررت المشاهد وتنوعت، وعندما انتقلت بعد يوم أو يومين إلى غرفتي في بيوت الطلاب، كانت الأمور مشابهة ولكن

دون الصيت السيء لمؤسسة الشبان المسيحيين في وسط المدينة. وهو صيت لا تشاركها فيه المراكز الأخرى. وعلى كل حال فقد بدأت الصدمة الحضارية منذ الساعات الأولى وعبر موضوع حساس بالنسبة إلينا نحن في الشرق. إلا أنني عرفت فيما بعد أن الفروقات الحضارية أوسع من أن تنحصر في هذا الموضوع. وإنْ كان هذا الموضوع سيشكل مفصلاً مهماً في حياة المجتمع ضمن الموضوعات التي تدرج مع حقوق الإنسان في المجتمعات الغربية. أما في مجتمعنا فما زال هذا الموضوع من الأمور التي لا تطرح مباشرة خجلاً، عن حق أو عن غير حق. فلنترك هذا إلى مكانه الأنسب.

يبدأ العام الدراسي في جميع الجامعات الكندية يوم أول ثلاثاء من شهر أيلول/سبتمبر من كل عام. وهو اليوم التالي ليوم العمل الذي يوافق أول يوم اثنين من الشهر المذكور من كل عام. فمع يوم العمل ينتهي الصيف ويعود المصطافون إلى بيوتهم وتقفل المسابح الصيفية أبوابها، ويخيم على الناس الشعور بأن الخريف قريب وأن الشتاء على الأبواب.

كان من الطبيعي أن يأتي أول ثلاثاء في أيلول سريعاً، حيث دعي طلاب معهد الدراسات الإسلامية، وعددهم يقارب الخمسين من طلاب الدراسات العليا، إلى اجتماع في قاعة واسعة تحدث فيه مدير المعهد البروفسور تشارلز آدامز الذي شرح، باختصار شديد، تاريخ المعهد ونظام دراسته. ثم وزع الطلاب على الأساتذة المشرفين وشرح معنى الإشراف وكيفية التسجيل في الكلية والجامعة. أما الكلية فهي كلية الدراسات العليا، فجميع طلاب المعهد هم طلاب في كلية الدراسات العليا، وجميع طلاب

الدراسات العليا في الجامعة من جميع الاختصاصات هم طلاب في تلك الكلية. وجميع طلاب الجامعة يتسجلون بطريقة واحدة تقريباً. يملأون استمارة خاصة بذلك وينتظرون في صف طويل كل بانتظار دوره، وكل من يتأخر عن ذلك الموعد يدفع بدل جزاء يخشاه ويتحاشاه الجميع.

وإذ تبدأ الدراسة فوراً فلا مجال للتردد. فعلى الطالب أن يختار مواد الدراسة بأسرع ما يمكن، ثم يمكنه بعد ذلك أن يبدل إذا شاء.

كان على الطالب أن يختار ثلاث مواد للدراسة في السنة الواحدة في المتوسط. وطبعاً هناك بعض الاستثناءات. فالبعض قدِ يكتفي بمادتين لظروف خاصة والبعض الآخر قد يأخذ أربع مواد لظروف خاصة أيضاً. وعلى كل طالب أن يتم خمس مواد للماجستير وخمس مواد أخرى للدكتوراه. ولا يستطيع طالب الماجستير أن يتقدم بأطروحته التي يتفق بشأنها مع الأستاذ المشرف إلا بعد أن يتم مواد الدراسة الخمس. وعليه، فإن الطالب يحتاج إلى أكثر من سنتين للانتهاء من الماجستير، كذلك الحال بالنسبة لطالب الدكتوراه إذ عليه أن يتم جميع المواد وأن ينجح فيها بما لا يقل عن ٨٥ علامة مئوية للمادة الواحدة قبل أن يتقدم بأطروحته. يضاف إلى ذلك أن طالب الدكتوراه عليه أن يختار بعد إتمام المواد الدراسية بنجاح امتحاناً خاصاً هو من أصعب الامتحانات وهو امتحان الكفاءة Comprihensive وهو عبارة عن امتحان في جميع ما درسه الطالب خلال إقامته في المعهد. كانت مواد الدراسة موزعة على أربعة فروع:

- الفكر الإسلامي ويشمل الفلسفة والتصوف وأصول الفقه والمنطق.

- التاريخ الإسلامي القديم والحديث.
- نظم إسلامية ومؤسسات.
- فقه وتشريع: شريعة، حديث، علوم قرآن الخ...

امتحان الكفاءة يجري على أربعة أيام كل يوم مخصص لموضوع. وقوام الامتحان أن يعطي الطالب موضوعاً يتفرع إلى عدة موضوعات يطلب إليه معالجته طيلة ساعات اليوم. يُعطى الطالب مكاناً في المكتبة ويُعطى الحق في مراجعة جميع الكتب والأبحاث، بل والأوراق التي يمكن أن تكون في حوزته. كما أن له الحق في مغادرة المكان لتناول الطعام ثم العودة لمعالجة موضوعه المطروح عليه. ويستدعي هذا الامتحان معرفة تامة بمحتويات مكتبة المعهد وأقسامها وأهم الكتب في كل قسم. وهي مكتبة ضخمة تحتوي على ربع مليون كتاب باللغات المختلفة ولا سيما العربية والإنكليزية والفرنسية. وعندما ينتهي الطالب من معالجة موضوعه يسلمه لسكرتيرة المعهد. وبعد جمع الامتحانات الممتدة على أربعة أيام تقوم السكرتيرة بضمها وتصوير نسخ منها بعدد الأساتذة وتوزع الإجابات على الأساتذة في المعهد لقراءتها.

بعد انتهاء الأساتذة من قراءة إجابات الطالب يدعى هذا الأخير إلى جلسة مناقشة مفتوحة يمكن أن يحضرها الطلاب بشرط عدم التدخل. ثم تبدأ المناقشة التي تتناول قضايا خارج الإجابات ويستمر ذلك لساعات طويلة إلى أن يكتفي الأساتذة من الطالب. ويتوقف نجاح الطالب على امتحان الكفاءة العام. وهو امتحان الاستيعاب والمقدرة التي أصبح عليها الطالب بعد انتهاء دراسته وقبل السماح له بإتمام أطروحته وتقديمها. والطلاب عادة يخشون هذا الامتحان وكثير منهم لا ينجح فيه، فيطلب إليه العودة إلى

القراءة والمناقشة لمدة لا تقل عن ستة أشهر. وقد تمتد إلى أكثر من سنة. كل ذلك حرصاً على المستوى العلمي لخريجي هذا المعهد الذي يهدف إلى تخريج العلماء لا إلى تخريج حملة شهادات وألقاب فقط.

كل هذا يدل على أن طريقة الدراسة في هذا المعهد بالذات وفي الجامعة تختلف عن طريقة الدراسات العليا في أوروبا عموماً وفي فرنسا بشكل خاص. بل إن نظام الدراسات العليا الأميركية يختلف عن نظام الدراسات العليا في أوروبا. ففي أميركا وكندا تُعطي الأطروحة دوراً متمماً للدراسة فقط في حين أن أساس الدراسة العليا هو مواد الدراسة وكتابة الأبحاث. فكل مادة يدرسها الطالب يكتب فيها بحثين أحدهما في الفصل الأول، والثاني في الفصل الثاني. وهذه الأبحاث تضاف إلى الامتحان لتشكل معيار نجاح الطالب في المادة أو عدم نجاحه. وجامعات الدرجة الأولى جميعها تحرص على التأكد من جدّية العمل خلال سنوات الدراسة العليا. صحيح أنّ في كندا وأميركا عدة آلاف من الجامعات ـ في كندا وحدها أكثر من ألف جامعة ومؤسسة جامعية ـ إلا أن جامعات الدرجة الأولى تنحصر في عشرات قليلة فقط وفي بعض الحالات أو بعض التصنيفات، يقل العدد عن ذلك.

أدركت منذ أيامي الأولى في المعهد أنني أمام نمط من الدراسة من نوع مختلف. ومع ذلك لم يكن استيعابي للأمر كاملاً تماماً، فقد كنت أظن أن الأيام الأولى من الدراسة هي تمهيد للدراسة، فإذا بي أمام مفاجأة وهي أني وجدت في مطلع الأسبوع الثاني أن علي أن أدرس ما تراكم علي منذ الأسبوع الأول، ووجدت أن الدراسة تعني عمل يوم كامل. فالطالب كأي عامل منتج، عليه أن يعمل

ثماني ساعات يومياً على الأقل. وأي تقصير في ذلك يعني تراكم ساعات العمل التي يجب أن تكون على حساب الراحة اليومية أو الأسبوعية. ووجدت أن كل درس - ندوة Siminar مدته ساعتان، يحتاج إلى يومي عمل في الأسبوع على الأقل وفي بعض الحالات أكثر من ذلك. وأن مهمة الطالب هي البحث والعمل في المكتبة والبحث عن المراجع والقراءة ثم تحضير نفسه للمشاركة في الندوة. فالدرس ليس الاستماع إلى الاستاذ، بل إن الأستاذ هو الذي يستمع إلى الطلاب. ففي كل أسبوع يُنتدب أحد الطلاب للحديث في الأسبوع المقبل بمشاركة الطلاب الآخرين. ولما كان عدد طلاب الندوات قليلاً ـ عادة بعدد أصابع اليد الواحدة ـ تصبح ضرورية ولا يستطيع الطالب التنصل منها.

عند إدراكي للاختلاف الجوهري في طبيعة الدراسة في الجامعات الأميركية والكندية، وجامعة ماكغيل واحدة من جامعات الدرجة الأولى فيها، إضافة إلى أن المعهد يختلف عن معاهد الدراسات العليا، تهيبت الموقف إلا أني لم أتردد في الصمود رغم عدم تمكني التام من اللغة الإنكليزية في البداية. وعلى سبيل المثال أذكر أنني اخترت قراءة كتاب «المحمدية» Mahamadenism للمستشرق الكبير هاملتون غب (Sir Hamilton Gib) وهو كتاب صغير إلا أنه مكثف جداً. وقد استغرقت قراءة الصفحة الأولى مدة طويلة، فقد عدت إلى القاموس عشرات المرات، بل كنت أعود إلى القاموس عدة مرات في كل سطر. ومع ذلك مضيت في قراءة الكتاب وكانت عودتي إلى القاموس تقل تدريجياً مع تقدمي في القراءة حتى أنني لم أعد إلى القاموس عند قراءة الصفحات الأخيرة إلا نادراً. وكنت أراجع قراءة الصفحة الواحدة عدة مرات حتى شعرت أنني أمتلك ناصية الكتاب. وهذا ليس إلا مثلاً واحداً لما واجهته في البداية.

وقد احتفظت بنسخة هذا الكتاب وعلى صفحاتها المقابل العربي للكلمات التي عدت إلى القاموس لمعرفة معناها الدقيق.

كنت أحضر نفسي للمشاركة في المناقشات وكنت أحرص على أن أكون متيقظاً تماماً لكل ما يقال في المحاضرات والندوات، وخاصة ملاحظات الأساتذة وتعليقاتهم. كنت أشارك في المناقشات بجدية، وأفكار جديدة، رغم صعوبة التعبير، فدراسة اللغة لعدة أشهر لم تكن كافية لخوض غمار الدراسات العليا، فكان عليّ أن أواجه جبهتين، جبهة نمط جديد من الدراسة يحتاج إلى ساعات طويلة من العمل كما أسلفت، وجبهة التعمق باللغة الإنكليزية. وأذكر أن الفصل الدراسي الأول كان من أصعب الفصول، وكان همي الأول أن أجتاز هذا الفصل وأن أنجح فيه حتى ولو كان ذلك عند مستوى الحد الأدنى المقبول. فقد كنت أعرف أن أمامي فصولاً أخرى وسنوات عدة لإثبات تفوقي الذي كنت أحرص عليه. وهذا ما كان، فسرعان ما انتهى الفصل الأول الذي كتبت فيه الأبحاث التي كتبتها لكل مادة دراسية من المواد التي أخذتها. كما أني اجتزت امتحانات نهاية الفصل الأول وكان أساتذتي يعرفون كفاءتي معرفة تامة ويدركون أن صعوبة التعبير عن أفكاري تعود إلى اللغة.

تمكنت من اجتياز السنة الأولى بنجاح، بل وحصلت على علامات جيدة، ولا سيما في مادة نصوص فلسفية عربية. وكان موضوع الدراسة «فلسفة الفارابي من خلال نصوصه» ولا سيما كتابي **المقولات وما بعد المقولات**. وكان أستاذنا المستشرق الياباني طوشيهيكو ازوتسو (Toshihiko Izutsu) حائزاً على شهرة واسعة. ومع نهاية السنة الأولى شعرت بتمكني النسبي من اللغة الإنكليزية.

وجدت الفرصة المناسبة لتوسيع دائرة قراءاتي، وتدعيم لغتي الإنكليزية حتى إذا ما جاء العام الدراسي الثاني كنت على أتم الاستعداد والمواجهة.

انتهى العام الدراسي الأول مع نهاية شهر نيسان/أبريل سنة ١٩٦٦، فالعام الدراسي الجامعي في الجامعات الكندية يتكون من فصلين عامة، مدة كل واحد منهما أربعة أشهر بما في ذلك الامتحانات. وبذلك تكون الإجازة الصيفية طويلة ومدتها أربعة أشهر أيضاً. وفي بعض الجامعات يضاف إلى الفصلين الدراسيين فصل ثالث لا يزيد عن الشهرين تكثف فيها الدراسة فيبقى أمام الطالب شهران من الإجازة فقط. والسبب في طول الإجازة الصيفية في الأساس هو إعطاء الفرصة للطالب للعمل خلال أشهر الصيف وتحصيل تكاليفه للعام الدراسي المقبل. ولكن ولما كنت في عداد الطلاب الحاصلين على منحة دراسية، فإنه لم يكن لي حق العمل. فشروط المنحة تقتضي أن أصرف جهدي للدراسة فقط. وهكذا وجدت الفرصة مواتية للإفادة من فترة الإجازة الصيفية.

وكنت خلال العام الدراسي قد تعرفت بطالبة كندية في سنتها الجامعية الأولى، وكانت على شيء كثير من الحياء مع طباع شرقية طيبة. وقد قدمتني إلى ذويها وكانوا من المثقفين فانعقدت أواصر الصداقة مع الأسرة بكاملها. ولما كانت الأسرة تقضي الصيف في بيت صيفي على شاطىء بحيرة هادئة وجميلة، فقد دُعيتُ لقضاء عطلة الصيف، أو أكثرها مع هذه الأسرة. وكانت تلك فرصة لا تعوض أفدت فيها تفرغاً للقراءة إضافة إلى الإفادة من ثقافة الأسرة الكندية، وهي ثقافة جديدة تتمثل فيها كل الخصائص للعالم الجديد كما يسمى.

ذكرتُ أن اختلاف الخصائص الحضارية في كندا قد تبدّى لي منذ اليوم الأول لوصولي. ثم تأكد هذا الاختلاف الحضاري عند اطلاعي على نظام الدراسة العليا في الجامعات الأميركية ـ الكندية، وفي جامعة ماكغيل ومعهد الدراسات الإسلامية بشكل خاص. وقد علمت فيما بعد أن نظام التعليم في مراحل ما قبل الجامعة يتميز بطابع الدراسة والبحث، بل أن ذلك يبدأ منذ المرحلة الابتدائية. فالتلميذ يوجّه توجيهاً بحثياً، كأن يكلف بمراقبة درجات الحرارة في النصف الأول من شهر معين مثلاً، وبالتدريج يطلب إليه مقارنة ذلك بدرجات الحرارة في الفترة الزمنية نفسها من العام الماضي، من خلال المعطيات المتوفرة بكثرة في دائرة الأرصاد الجوية مثلاً أو في الصحف أو في غيرهما. ومع المقارنة تبدأ عملية قراءة الفروقات وغيرها من النتائج التي يعجب بها التلميذ ويفخر بنفسه بسببها.

وقد وصلت إلى شيء من القناعة أن هذا النمط من أنماط التعليم هو سبب رئيسي في نهضة الغرب وتقدمه عموماً ونهضة كندا التي يسودها العقل والتفكير العلمي، بدلاً من التفكير الغيبي والعشوائي الناتجين عن التعليم الديني والتلقيني: فنظام التعليم عندنا يقوم على التلقين والحفظ المتأثر بنمط التعليم الديني.

ومما لا شك فيه أنه لا مجال للمقارنة بين منهجين أحدهما يكتفي من طالب الدراسات العليا ببعض الأبحاث القليلة ثم يترك الطالب ليعمل بإشراف أستاذ واحد. والثاني يبحث فيه الطالب ويتعب ويتقدم بالأبحاث وبالامتحانات بطريقة منهجية ولمدة عدة سنوات ويتعرف بعدد كبير من الأساتذة المتخصصين في ميادين مختلفة. وبعد هذا وذاك مما عرضت له باختصار يطلب إلى الطالب عند

اختيار موضوع أطروحته أن يعرض ذلك على الأساتذة والطلاب، فيشترك أهل المعهد في المناقشة وطرح الأسئلة التي تتناول جوانب الموضوع كافة، بدءاً بالعنوان، وانتهاء بالمراجع وتوفرها أو عدم توفرها، مروراً بتقسيم الموضوع وغيره. هكذا يتضح أن المعهد كان حريصاً على تخريج العلماء كما أسلفتُ، بل إن بعض الأساتذة اقترح عدم إعطاء شهادات كالماجستير والدكتوراه والاكتفاء بلقب زميل أو ما يشبه.

في السنة الدراسية الثانية (١٩٦٦ - ١٩٦٧) كنت أكثر ثقة بالنفس وبقدرتي على التعبير عن أفكاري. وكان من حسن حظي أن المعهد كان يضم في تلك الفترة أساتذة فكر إسلامي مشهود لهم. فبالإضافة إلى البروفسور أزوتسو جاء إلى المعهد منتدباً البروفسور مهدي محقق من جامعة طهران. وكان في المعهد أستاذ مستشرق سويسري هو هرمان لاندولت H. Landolt. وكان معنياً بالتصوف، وإن كانت عنايته منصبة على مصطلحات التصوف والجوانب التكنيكية فيه ولم يكن له دراية بأي شيء خارج هذا الموضوع. فأفدت منه في هذا فقط ولم أعد إليه، إضافة إلى أنني اصطدمت معه عندما كنت أطرح عليه الأسئلة. ولم يكن يتمكن من الإجابة، فكان يدعي أن ذلك خارج الموضوع. أما البروفسور أزوتسو فكنت أعود إليه سنة بعد سنة طيلة مدة دراستي في المعهد. ولم يكن يلتحق بندواته إلا الطلبة المتقدمون الذين كانوا على اطلاع على الفلسفة ومعرفة فيها. وكان انتداب البروفسور محقق للمعهد فرصة طيبة. وكان ذلك في مصلحتي فقد درست معه أصول الفقه كما درست معه اللغة الفارسية. وكانت دراسة اللغات في المعهد إجبارية دون أن تعتبر جزءاً من مواد الدراسة.

كان على الطالب في المعهد الإلمام بلغتين إسلاميتين على أن تكون العربية إحداهما ولغتين أوروبيتين إضافة إلى الإنكليزية. ولكن أثناء وجودي في المعهد عدّل ذلك وتم الاكتفاء بلغة أوروبية واحدة إضافة إلى الإنكليزية على أن يكون امتحان اللغة الأوروبية الثانية معمقاً. أي أن على الطالب أن يجيد الإنكليزية وهي لغة الدراسة إضافة إلى لغة أوروبية أخرى وأن يجيد اللغة العربية إضافة إلى لغة إسلامية أخرى. وقد اخترت الفرنسية كلغة أوروبية لأني كنت أعرفها منذ دراستي الابتدائية وحتى نهاية الثانوية. كما أني اخترت اللغة الفارسية إضافة إلى العربية لغتي الأولى.

وكما ذكرت لم تكن دراسة اللغات جزءاً من المواد المطلوبة من الطالب وعددها عشر مواد. فإذا درس الطالب اللغة الفرنسية أو الألمانية أو الإسبانية أو غيرها فإن ذلك أمر خاص به لا يحسب ضمن مواد الدراسة. وكذلك الحال إذا درس الأردية أو الأندونيسية أو التركية أو غيرها من اللغات الإسلامية.

درست الفارسية لمدة سنتين وحصلت على درجات عالية. وقد تقدمت بهذه اللغة وأصبحت قادراً على القراءة والترجمة، وساعدني ذلك كثيراً عندما ذهبت إلى إيران بعد ذلك ملتحقاً بفرع المعهد هناك على ما سيأتي ذكره.

وتقدمت إلى امتحان اللغة الفرنسية وقد اختار لي البروفسور ليتل (Don Little) نصاً صعباً جداً من كتابات المستشرق الفرنسي جاك بيرك (Jaques Berque) وهو معروف بكتابته المكثفة جداً. ولا أنكر أنني وجدت النص صعباً جداً ومع ذلك نقلت النص إلى الإنكليزية واجتزت الامتحان.

في سنتي الثانية جاء إلى المعهد، ولمدة سنة واحدة، البروفسور

إبراهيم أبو لغد وهو من خيرة الأساتذة العرب في أميركا الشمالية. وكان أبو لغد في كلية سميث (Smith College) وهي جامعة في ولاية فرمونت الأميركية (Vermont) غير بعيدة عن كندا. وقد أشاع وجود أبو لغد مناخاً رائعاً. فقد كان من تقاليد المعهد أخذ فرصة ربع ساعة في العاشرة صباحاً عند منتصف فترة الدراسة الصباحية. وكان بعض من الأساتذة والطلاب يشتركون في مناقشات. إلا أن المناقشات الأهم كانت تدور خلال فترة الظهيرة والغداء. فالكثير من الأساتذة والطلاب كانوا يحضرون طعامهم معهم بدلاً من مشقة الذهاب إلى مكان الإقامة أو غيره لتناول طعام الغداء، وخصوصاً في أيام الشتاء القاسية. وكان في المعهد غرفة خاصة أو قاعة تسمى القاعة العامة فيها ثلاجة لوضع الطعام. وفيها وسائل صنع الشاي والقهوة وتسخين الطعام. وكثيراً ما شهدت هذه الغرفة أو القاعة مناقشات مهمة. وقد كانت هذه القاعة أنسب مكان لتعارف أهل المعهد وفهم واحدهم للآخر.

كان طلاب المعهد ينقسمون إلى فئتين، فئة الطلاب المسلمين ويشكلون نصف عدد الطلاب. وفئة الطلاب المسيحيين الغربيين ويشكلون النصف الآخر من الطلاب. وطبعاً كان هناك بعض الاستثناءات. وكان الغرض من ذلك احتكاك هاتين الفئتين بقصد فهم الآخر. وكان طلاب المعهد وأساتذته يشجعون على البقاء ساعة في المعهد، حتى الخامسة، بعد انتهاء الدروس في الرابعة. وقد أثمر ذلك حتى أن أحدهم قال إن ما يفيده من القاعة العامة يفوق ما يفيده من قاعات الدرس.

كان المعهد قد تأسس سنة ١٩٥٢، أسسه مديره الأول ولفرد كانتول سميث (W. C. Smith) بغرض إقامة حوار إسلامي

مسيحي، وتعريف الطلاب الذين سيصبحون باحثين في بلادهم بالديانتين الإسلامية والمسيحية معاً، وإن كان غرض التعريف بالمسيحية غامضاً وقاصراً على تمثيل الطلاب المسيحيين للمسيحية. ولما كان بعض أساتذة المعهد من الأميركيين في الأصل رجال دين، وكان تدريبهم تدريباً دينياً قبل أن يتوجهوا لدراسة الإسلام ويصبحوا من المستشرقين، فقد كان من الطبيعي أن يظهر ذلك في مواقفهم.

كان هذا هو الغرض المعلن لتأسيس المعهد، وهو الحوار الإسلامي المسيحي، وقد وضع الإطار اللازم لذلك. المناصفة في عدد الطلاب، والمناقشات اليومية خارج قاعات الدرس، وفتح باب التعارف الحقيقي والحميم، وعزل المعهد عن الجامعة بقدر الإمكان. فقد احتل المعهد بناء مستقلاً، وكان له نظامه الخاص ومكتبته الخاصة وهو الآن يحتل بناء آخر بالمواصفات نفسها. إلا أن مكتبة المعهد أصبحت مفتوحة للطلاب من خارج المعهد. ولكن الغرض الحقيقي لتأسيس المعهد قد يختلف عما هو معلن. فقد أسس المعهد بأموال أميركية وكان كل أساتذته ـ باستثناء المدير المؤسس ـ من الأميركيين، وكانت الولايات المتحدة في مطلع الخمسينات تتطلع إلى معرفة أوسع بالعالم بالطرق المباشرة وغير المباشرة. ولما كانت الدراسات بجوانبها المختلفة هي خير وسيلة لمعرفة شعب ما أو مجموعة من الشعوب، فقد جاءت فكرة إنشاء معهد إسلامي ملائمة لغرض من هذا النوع. وكانت الدراسات في البداية تهتم أكثر ما تهتم بالتاريخ والنظم الإسلامية وأصول هذه النظم وأسباب قيام الدول وانهيارها. أما الفكر الإسلامي فكان يأتي بالدرجة الثانية ليأتي بعده الاهتمام بالشريعة والتشريع.

وكانت إدارة المعهد تحب أن تقيم العلاقات الوطيدة مع الأنظمة الصديقة للولايات المتحدة الأميركية كنظام أيوب خان في باكستان. وكان مدير المعهد تشارلز آدامز الذي خلف سميث صديقاً لنظام أيوب خان وكان يزور باكستان باستمرار كما كان متخصصاً بتاريخها. ومثله نظام شاه إيران الذي كان يعطف على المعهد وقد زاره والتقى الأساتذة والطلاب فيه. وفي الوقت نفسه كانت إدارة المعهد والأساتذة الأميركيون خاصة ينتقدون نظام عبد الناصر ويتعاطفون مع خصومه كالإمام أحمد في اليمن.

كان تشارلز آدامز (Charles Adams) مدير المعهد أيام دراستي يبدو طيباً ومتعاوناً إلى أبعد الحدود وكنت على علاقة طيبة معه وكان يدعوني إلى بيته في المناسبات ويعتبرني صديقاً، فأذهب معه إلى الأوبرا. وكان يثق بإمكاناتي وعندما تواجهني مشكلة ما كان لا يتوانى عن مساعدتي بكل ما هو ممكن. وفي أكثر من مناسبة دعاني إلى منزله الصيفي، وكانت زوجته بمثابة صديقة أيضاً. وقد بقي آدامز حوالى العقدين من الزمان مديراً للمعهد، وكان ناجحاً جداً في مهمته. ولهذا كان يعود للإدارة حتى بعد أن بلغ السن القانونية. وتشارلز آدمز هو من أوائل خريجي المعهد، وبعد تخرجه أصبح أستاذاً فيه ثم مديراً له. وكان قبل ذلك يدرس اللاهوت المسيحي ويعد نفسه لدور اللاهوتي. ولعل هذا ما جعله لا يحب الطلبة المسلمين الذي يتمسكون بإسلامهم وأفكارهم. فقد كانت مهمته الأولى أن يغير عقول هؤلاء ويجعلهم يفكرون كالمستشرقين. وقد صرّح مرة أنه يعتبر نفسه أستاذاً فاشلاً إذا لم يتمكن من القيام بهذه المهمة. وقد انكشف الغطاء الدبلوماسي لهذا المستشرق المتعصب عندما ترك الإدارة فقد أخذ يعبر عن أفكار استشراقية متطرفة ويحاول تبني شبّانٍ أميركيين يحملون

الأفكار الاستشراقية المتشددة ويحاولون بث أفكار غربية وتبني نظريات عجيبة.

وكان يعاون آدامز في الإدارة مستشرق أميركي متشدد هو جون ألْدين وليامز (John Alden Williams) إلا أن وليامز هذا لم يبق طويلاً وحل محله من الأساتذة دون ليتل (Don Little) الذي لم يكن يقل عن وليامز تشدداً وكراهية لكل ما هو تقدمي. وكان ليتل يخدم في الجيش الأميركي، وقد درس العربية أثناء خدمته العسكرية ثم أرسل في منحة لدراسة العربية باللهجة المصرية، وكان زميله في السكن أثناء إقامته في مصر ـ كما علمت بعد تخرجي من المعهد ـ عضواً في المخابرات الأميركية، ولا استبعد أن يكون ليتل نفسه عضواً في المخابرات في فترة ما، فسلوكه يشير إلى ذلك وإن كان بعض الظن إثم. الدلائل كثيرة ولكنني لا أريد الدخول بالتفاصيل هنا.

أثناء السنة الثانية لدراستي في المعهد بدأت بتجميع مادة البحث لكتابة أطروحة الماجستير. وكنت قد اخترت لنفسي موضوعاً عن فلسفة المتوحد عند ابن باجّة الأندلسي. والواقع أنني كنت معجباً بابن باجّة وفلسفته منذ معرفتي الأولى بهذا الفيلسوف، عندما تحدث عنه أستاذ الفلسفة في صف الفلسفة في كلية التربية والتعليم الأستاذ درويش تدمري. ومنذ ذلك الوقت كنت أهتم بكل ما له علاقة بإبن باجّة. وشعرت أن الأوان قد آن لدراسة الجوانب الإبداعية عند هذا المفكر. فلسفة ابن باجّة تنقسم إلى فئتين أساسيتين: الأولى يلخص فيها كتب أرسطو ويعلق عليها والفئة الثانية يعرض فيها لأفكاره الجديدة والخاصّة كما في كتاب **تدبير المتوحد** ورسالة **الوداع** ورسالة **الاتصال** وغيرها.

لم تأخذ كتابة الرسالة بشكلها الأولي وقتاً طويلاً، إلا أن إعدادها بالشكل المطلوب هو الذي استغرق وقتاً. وقد كانت الجامعة تشدد على الجوانب الشكلية تشديداً مبالغاً فيه: نوع الورق، مسافات الهوامش، أرقام الصفحات، شكل حرف الاقتباسات، مواصفات الصفحة الأولى، وغير ذلك كثير. وقد أخرني ذلك عن تقديم الأطروحة في موعد كنت حددته لنفسي. ولكن عندما أنهيت الرسالة جاءت جميلة، إضافة إلى كونها جيدة وكانت لغتي الإنكليزية قد تحسنت كثيراً. وقد ألحقت الأطروحة بعدة ملاحق أهمها تحقيق هو الأول، لكتاب **تدبير المتوحد**. وأذكر أني كتبت للدكتور ماجد فخري الأستاذ في الجامعة الأميركية وأخبرته بموضوع رسالتي وبتحقيقي لكتاب التدبير، ولم أكن أعلم أنه كان يعمل على تحقيق «**أعمال ابن باجّة الإلهية**» كما أسماها، وإن كنت أعرف أنه كان مهتماً بابن باجّة وهذا هو سبب كتابتي له. وعند علم بما فعلت أسرع بإنجاز ونشر تحقيقه لأعمال ابن باجّة خاصة وأنه لم يجبني على رسالتي وكأنه كان يريد أن يدعي أنه لم يعلم بأمر ما فعلت، يضاف إلى ذلك أن تحقيقه جاء دون المستوى الذي يليق بأستاذ له صيته وشهرته. وقد نشرت تحقيقي **للتدبير** مستقلاً مع مقدمة وافية فلقي ترحيباً طيباً، وقد قال أحد الأساتذة المعروفين لماجد فخري أمام حشد من الناس هذا الرجل هو أحسن من فهم ابن باجّة مشيراً إليّ، فامتقع لونه وانسحب.

ولكن في أواخر الثمانينات توطدت صداقتي مع ماجد فخري، وقد عمل معي في الموسوعة الفلسفية وعملت معه في التدريس في الجامعة الأميركية. وفي بداية التسعينات افترقنا حيث سافر إلى الولايات المتحدة وعدت إلى كندا.

كنت قد ذكرت أنني كنت محظوظاً في المعهد، فبالإضافة إلى البروفسور أزوتسو الذي واظبت على الدراسة معه لمدة أربع سنوات، جاء البروفسور محقق فدرست معه مادتين في سنتين. وكنت في السنة الأولى قد درست مادة مدخل إلى الإسلام مع البروفسور آدامز وفي الثانية مادة أخرى مع البروفسور نيازي بركس وهو أستاذ فكر سياسي تركي الأصل كان يعيش في بريطانيا، وقد أغراه المعهد بالالتحاق به. وباستثناء هاتين المادتين الأخيرتين فإن جميع ما درسته في المعهد يدخل في عداد الفكر الإسلامي: أربع مواد مع أزوتسو، ومادتين مع محقق في أصول الفقه، ومادة مع لاندولت في التصوف، ومادة مع أستاذ إيراني زائر هو البروفسور عبد الهادي حائري في الفلسفة الإسلامية، فلسفة ابن سينا خاصة. وبهذا يكون مجموع المواد الفلسفية الفكرية ثماني مواد يضاف إليها مادة مدخل إلى الإسلام ومادة الفكر السياسي الإسلامي، تطور الأنظمة والمجتمعات، وبذلك يكتمل نصابي وهو عشر مواد: خمس مواد للماجستير وخمس مواد للدكتوراه.

لهذا أخذ عليّ أن دراستي لم تكن متوازنة في المعهد، فأنا لم أدرس أي مادة في التاريخ مع اهتمام المعهد الخاص بالتاريخ، ولم أدرس أي مادة في الفقه والتشريع. كما أني لم أدرس إلا مادة واحدة في النظم والمؤسسات. وكان أكثر ما درسته في فرع ما يسمى بالفكر الإسلامي: فلسفة وتصوف وأصول فقه ومنطق. ولكني كنت أعتبر ذلك عنصر قوة، فأنا أؤمن بالتخصص وقد أحببت دروس أزوتسو كما أحببت دروس محقق. وفي فترة تحضيري لامتحان (Comprehensive) حاولت التعويض بالمطالعة وقراءة الكتب التي تغطي فروع الدراسة الأخرى: التاريخ والنظم والتشريع. وعلى كل فقد ألّمت بمكتبه المعهد إلماماً تاماً، واخترت أهم مائة كتاب وقمت

بتلخيص مضمونها، ووضعت أكثرها في مكتبي الخاص. وكان لكل طالب مكتب خاص داخل المكتبة. وكانت مكاتب الطلاب المتقدمين عبارة عن غرف صغيرة لها أبواب وأقفال. أما الطلاب الجدد فكانت مكاتبهم عبارة عن طاولات ورفوف وأدراج.

اشتهر معهد الدراسات الإسلامية في جامعة ماكغيل، وأصبح أحد أهم مراكز الدراسات الإسلامية في العالم، لأسباب عدة منها مستوى الطلاب الذين يختارهم المعهد، ومكتبة المعهد التي بنيت لتكون مكتبة بحثية، وتوفر الأموال وخاصة في بداية عهد المعهد. وأهم من ذلك مستوى الأساتذة الذين كانوا عماد المعهد قبل رحيل بعضهم وانتقال بعضهم الآخر إلى جامعات أخرى وتسلّم أساتذة غير أكفاء إدارة المعهد.

من هؤلاء الأساتذة، إضافة إلى تشارلز آدامز الذي كان إدارياً ناجحاً جداً له علاقات دولية واسعة والذي كان يحاول دائماً فتح أبواب جديدة والاستعانة بخبرة الأساتذة ولو لفترات قصيرة قد لا تزيد عن السنة الواحدة، الأستاذ أبو لغد والأستاذ محسن مهدي والأستاذ هشام جعيط وغيرهم كثيرون. نذكر البروفسور أزوتسو الذي ورد ذكره، وهو لغوي ياباني دخل إلى عالم الدراسات الإسلامية عن طريق الدراسات المقارنة، وقد وضع عدة كتب في الدراسات الإسلامية باللغة الإنكليزية منها:

- الله والإنسان في القرآن God and Man in the Koran وهو دراسة في لغة القرآن Semanties of Koran صدر سنة ١٩٦٤.
- دراسة مقارنة في المفاهيم الفلسفية الأساسية في الصوفية والطاوية (ابن عربي ولاوتسو، تشاينغ تسو) A Comparative Study of The Key Philosophical Concepts in Sofism and

Taoism وهو دراسة في عدة أجزاء (مجلدين) صدر سنة ١٩٦٦- ١٩٦٧.

- مفهوم الاعتقاد في علم اللاهوت الإسلامي (علم الكلام)، دراسة لغوية تحليلية للإيمان في الإسلام، صدر سنة ١٩٦٥ The Concept of Belief In Islamic Theology, A Sematic Analysis of Iman in Islam بالإضافة إلى كتب أخرى. وكان أزوتسو أستاذاً في معهد الدراسات الإسلامية في ماكغيل يمضي ستة أشهر في اليابان وستة أشهر في كندا. ومن المؤسف أن القارىء والمثقف العربي لا يعرفان شيئاً يذكر عن أزوتسو وكان من واجبي أن أقوم بترجمة كتبه وتعريف المثقف العربي به إلا أن الظروف حالت دون ذلك.

كانت دروس البروفسور أزوتسو ذات طبيعة خاصة ومعمقة. ولنفرض أنه كان علينا أن ندرس فلسفة ابن سينا لهذا العام، وعدد ساعات التدريس السنوية ثمان وأربعون ساعة مقسمة على أربعة وعشرين ندوة (Siminars). وهذه الندوات موزعة على كتب ابن سينا بحسب موضوعاتها، فيعطي كل موضوع وكتبه عدداً معيناً من الندوات. ولنأخذ موضوع النفس وكتاب النفس وغيره فكان يعطي ندوتين مثلاً على أسبوعين يقرأ الطلاب خلالها كتاب النفس ومتعلقات الموضوع خلال الأسبوعين في البيت أو المكتبة. وفي أثناء الدرس يختار الأستاذ أزوتسو بعض النصوص التي تقرأ وتترجم إلى الإنكليزية ويتم التعليق على معاني مصطلحاتها الخاصة والتعمق في معاني هذه المصطلحات. وقد يستغرق التعليق بضع دقائق كما قد يستغرق المصطلح الواحد أكثر من نصف ساعة يتم فيها الغوص في فلسفة ابن سينا النفسية وعلاقة كل ذلك بفلسفته بشكل عام. يضاف إلى ذلك أن على الطالب أن يكتب بحثاً في

كل فصل، كأن يأخذ موضوع الجوهر الأول وأعراضه ويحاول أن يقيم العلاقة الممكنة بين ذلك وبين موضوع الله وصفاته من خلال قراءة كتب ابن سينا، أو غير ذلك من الموضوعات الكثيرة. وحسنات هذا النوع من الدراسة أنها تجمع بين الدراسة المعمقة للنصوص والدراسة الواسعة لفلسفة الفيلسوف. ومن الواضح أن الجهد الأكبر يقع على عاتق الطالب دون أن يعني ذلك أن الأستاذ لا يعد نفسه الإعداد اللازم لهذه المهمة التي تتطلب معرفته شبه الكاملة بفلسفة الفيلسوف من جهة وبالفلسفة الإسلامية عامة من جهة أخرى. وكان أزوتسو إضافة إلى ذلك يُدخل معرفته اللغوية والسيمنطيقية عند قراءة النصوص فيضيف الكثير. وكانت طريقته محبّبة في التعامل مع طلبة متقدمين قضى كل منهم عدة سنوات في المعهد.

وقد يطول الحديث عن أزوتسو لو دخلنا في التفاصيل. كان يختار مجموعة ضيقة من الأصدقاء من الأساتذة والطلاب، وكان يصرف وقته يعمل في منزله ومعه زوجته التي لا تفارقه، وهي أديبة قاصّة يابانية معروفة، وكانت تتولى الاهتمام به حتى أنها كانت تقص له شعره. وكان أزوتسو يطلق عليّ لقب الفيلسوف النجار. فقد تصادف مرة أنني كنت في منزله وعلمت أن سريره يحتاج إلى مسمرة (بعض المسامير) وشد بعض البراغي، فقمت بتلك المهمة. ومنذ ذلك الحين أصبح اسمي «الفيلسوف النجار». وبالمناسبة كنت تعلمت الكثير من النجارة وغيرها منذ طفولتي، وقد علمني البروفسو تشارلز آدمز كيف أستعمل المنشار استعمالاً صحيحاً إلا أن معرفتي بالنجارة جاءت عبر أصدقائي الكنديين الذين كنت أقضي الصيف معهم في منزلهم الصيفي كل سنة.

ومن الأساتذة الممتازين الذين أفدت منهم الأستاذ مهدي محقق، الذي كان في الأصل ملاّ أي رجل دين وقد حدثني عن تلك المرحلة التي كان خلالها صديقاً لرجل دين آخر تحول إلى التدريس الجامعي هو الأستاذ الموسوي. كانا يسافران سوية إلى الأرياف للإفادة المادية والحلول ضيوفاً على فقراء الفلاحين. كان الأستاذ محقق عالماً واسع المعرفة يتميز بذاكرة قوية مدهشة. كان يحفظ آلاف أبيات الشعر العربي ومئات بل آلاف القصص والأحاديث، فكان كلما قرأ سطراً استشهد ببيت من الشعر أو بحديث أو قصة من أحاديث وشعر. وكان طريفاً كل الطرافة لا تمر الساعة إلا ويروي فيها من القصص أو الأحاديث الطريفة الشيء الكثير، فكانت الساعة أو الساعتان تمران سريعاً مع تقديم معلومات واسعة وجديدة في أصعب الموضوعات المنطقية التي هي عماد أصول الفقه الشيعي بشكل خاص والفلسفة. كان نهماً في قراءة الكتب وجمعها، فكان يشتري المئات بل الآلاف منها ويبيع البعض ويحتفظ بالثمين منها. وقد تجمعت عنده كتب كثيرة في مكتبة ثمينة موزعة في ثلاثة أماكن في منزله. وقد ابتنى لنفسه دارة واسعة.

كان الأستاذ محقق هو ثاني أستاذ أفدت منه في المعهد، وكان إسماً على مسمى. كان محققاً جيداً للكتب ولا سيما النصوص الفلسفية التي اشترك في تحقيقها مع أزوتسو. وقد أشرف على إصدار سلسلة واسعة من الكتب الإيرانية باللغة العربية طبعتُ له أحدها في بيروت وهو كتاب «الأمد على الأبد» للآمدي وأرسلت له نسخاً منه. إضافة إلى بعض الريع الذي لا يذكر.

ارتبطت مع محقق بصداقة جيدة وما زالت مستمرة حتى اليوم،

وهو يزورني حيثما أكون، بيروت أو مونتريال، كما أزوره عندما تُقدَّر لي زيارة إيران كما حدث عام ١٩٩٥ منذ سنوات قليلة عندما اشتركت في «مؤتمر الشيخ المنير»، وكان قبل ذلك قد زارني في مكتبة الشرق الأوسط في مونتريال.

ومن هؤلاء البروفسور نيازي بركس، وهو تركي الأصل كان يدرس في بريطانيا وقد استدعاه المعهد في عهده الأول وقد درست معه سنة واحدة فقط إلا أن مشاركته في أحاديث القاعة العامة أو القاعة المشتركة كانت مهمة لي وكنت أنتظر جلساته بفارغ الصبر وقد دعوته للعشاء في شقتنا أكثر من مرة فكان يلبي الدعوات وكنت أفيد من أحاديثه وقصصه الخاصة الشيء الكثير. كان بركس مهتماً بالتحديث، رائده تقدم المجتمعات الإسلامية، وقد وضع كتابه الشهير عن التحديث في تركيا تحت عنوان العلمنة في تركيا "secularism In Turkey" إلا أن بوادر الشيخوخة كانت قد ظهرت عليه ومع ذلك فقد ظلّ معطاء ممتع الحديث. وقد قرر ترك المعهد مبكراً والعودة إلى بريطانيا مع مطلع السبعينات فكان خسارة كبرى للمعهد.

وآخر من أتحدث عنه الأستاذ عبد الهادي حائري الذي جاء المعهد زائراً، وكان رجل دين «ملاّ» يؤمّ الصلاة في المصلين ويرتدي الجبة والعمة. كان رجلاً متديناً جداً، عكس محقق الذي أفاد من العمة والجبة إلا أنه سرعان ما تخلى عنهما. كان حائري مؤمناً وظلّ على إيمانه. وعندما أنهى زيارته للمعهد التي دامت عدة سنوات التحق طالباً بقسم الفلسفة للحصول على دكتوراه من جامعة غربية. فلم يكن ليكتفي بالدكتوراه من جامعات إيران الدينية بل كان يشعر بالحاجة إلى لقب من جامعة مشهود لها كجامعة ماكغيل. ولست

أدري إذا تم له ما أراد. وبعد مغادرتي المعهد إلى طهران وعودتي دعاني للغداء واستمع إلى آرائي عن إيران فسرّ بها. ولكن عندما قلت الأراء نفسها تقريباً في محاضرة ألقيتها في المعهد على الأساتذة والطلاب غضب مني وخاصمني لمدة من الزمن معتبراً ما قلته نقداً وتجريحاً.

كان لا يأكل في المطاعم إلا السمك، وهو حال الطلبة الإيرانيين لأن اللحم ليس حلالاً. ولعله كان يقصد محلات الحلال في نهاية الأسبوع وقد كانت نادرة في ذلك الحين، أما الآن فهي منتشرة في كل مكان، بل إنك تجد أفراناً للخبز الحلال وهو الخالي من الشحوم التي تبقيه طرياً. وقد تقرأ في محلات البقالة وغيرها إعلانات عن «نان حلال» وهو الخبز بالفارسية.

كانت طريقته في التدريس تقليدية جداً. وكان يريد من الطالب أن يردد آراءه وبالعبارات نفسها، فإذا اختلفت العبارات فالفكرة غير صحيحة في نظره، فكنت أتعب معه ويتعب معه زملائي.

عند وقوع هزيمة ١٩٦٧، كان قد مضى سنتان على وجودي في المعهد. لم أحتمل أجواء الهزيمة، فطلبت من المدير تشارلز آدامز أن يسمح لي بالعودة إلى لبنان، فاشترى لي تذكرة سفر ذهاباً وإياباً عدت بها سريعاً إلى لبنان. في أثناء العودة كنت أتابع تطورات الهزيمة وكنت أردد عبارة «لماذا يا عبد الناصر لماذا؟». وصلت إلى لبنان مع إعلان عبد الناصر عن استقالته وهيجان الشارع اللبناني لذلك النبأ. كنت محزوناً إلى أبعد الحدود وكان قلبي يتمزق ألماً، وكنت قد قررت البقاء في لبنان وعدم العودة إلى كندا لو كان الوضع يتطلب ذلك. ولكن وعند اتصالي بمحسن إبراهيم نصحني بالعودة ومتابعة الدراسة بعد أن استطلع مني عن الجامعة وعن الحياة

في أميركا الشمالية وعن الرأي العام الكندي والأميركي، وغير ذلك. وكذلك نصحني نايف حواتمة نصيحة مماثلة.

بعد قضاء أسابيع في الربوع اللبنانية مع الأهل والأصدقاء، وبعد عودة عبد الناصر عن الاستقالة، وميل الأمور نحو الاستقرار، والتأكد من عدم حدوث تطورات تستدعي بقائي، كنت أحس أن الوضع على أبواب انفجار، وأن تغييرات كبيرة لا بد أن تحصل، وأنني قد أضطر للانخراط في عمل ما أهم من متابعة الدراسة، وفي مستواها. ولكنني عندما شعرت أن ذلك سيظهر بعد حين ـ وبالفعل ظهر مع ظهور المقاومة الفلسطينية ـ آثرت العودة إلى كندا ومتابعة دروسي والعمل في الصفوف الخلفية وراء خطوط العدو.

عند عودتي اكتشفت أن صديقتي الكندية وأسرتها كانوا ينتظرونني بفارغ الصبر، وأن الصديقة كانت تحبني أكثر مما كنت أعرف وأتوقع بكثير، فقد راودتها فكرة أنني لن أعود إلى كندا، وبالتالي لن أعود إليها. وكنت قد ألمحت إلى شيء من هذا، فالهزيمة كانت كبيرة جداً شعرت معها أن كل شيء يجب أن يتغير، وفكرت بضرورة تنظيم حرب من نوع جديد، حرب غير نظامية وتقليدية. رسخ ذلك في ذهن صديقتي فاشتد قلقها من كل يوم كنت أتأخر فيه عن العودة. خسرت الكثير من وزنها وشحب لون وجهها وأخذت تميل إلى العزلة.

حدث كل هذا في شهري حزيران وتموز في النصف الأول من العطلة الصيفية. وكانت كندا ومونتريال بشكل خاص في قمة عصرها الذهبي، كندا تحتفل بالفدرالية ومونتريال تحتفل إضافة إلى ذلك بافتتاح معرض مونتريال الدولي ١٩٦٧ (Expo 67). وكانت بلدية مونتريال وعلى رأسها العمدة أو المحافظ (Mayer Drapeau)

قد أعدت العدة لهذا كله. نظفت المدينة أمنياً من تجار المخدرات ورجال العصابات الصغيرة في خطة بدأت قبل شهور عديدة من افتتاح المعرض، وكانت قد افتتحت قبل ذلك خط مترو استعداداً للمناسبة. واتفقت حكومة كندا مع حكومات الدول المشاركة في المعرض على إرسال فرق فنية فولكلورية وطنية، فأرسلت هذه الدول أحسن ما عندها. وعلى سبيل المثال أرسلت الجزائر فرقة لا يمكن مشاهدتها إلا في احتفالات على مستوى دولي من هذا النوع، وأرسل المغرب فرقة خيالة من عشرات الخيالة والأحصنة للعرض في حدائق أرض المعرض وحدائق جبل مونتريال. إضافة إلى فرق شعبية للرقص والغناء. وكل ذلك إلى جانب أجنحة بذلت فيها أقصى الجهود. وتحولت الحياة في مونتريال إلى مهرجان متواصل ليلاً ونهاراً. كما دُعي خيرة المفكرين من كافة أنحاء العالم، فأرسلت إيران مثلاً سيد حسين نصر، ولم يغب عن بال المنظمين أي شيء. دار الأوبرا المعروفة باسم مركز الفنون Place Des Arts أعدت برنامجاً متواصلاً متنوعاً طيلة أيام المعرض. وهذا ربما يحتاج إلى فصل خاص يخرج عن دائرة هذه المذكرات.

بعد أربعة أعوام من الدراسة في المعهد أنهيت جميع المواد المطلوبة مني إضافة إلى كتابة رسالة الماجستير وبقي علي امتحان الكفاءة. فتفرغت لذلك مدة أشهر ثم تقدمت من الامتحان فنجحت في الدورة الأولى. وبذلك أتممت كل المطلوب مني ولم يبق إلا الأطروحة التي يُنظر إليها على أنها بمثابة إصدار جواز السفر بعد تقديم جميع الأوراق الثبوتية والوثائق اللازمة. ولكنني هنا اصطدمت بمشكلتين: الأولى مزيد من الانخراط في العمل السياسي والطلابي مع توسع المقاومة الفلسطينية وتطورها. والثانية افتتاح فرع جديد للمعهد في طهران وقرار الأستاذ أزوتسو نقل

تدريسه إلى فرع طهران، وكان الأستاذ المشرف على أطروحتي التي اخترت لها عنوان «من الطبيعة إلى ما بعد الطبيعة: دراسة في فلسفة ابن باجّة» يضاف إلى هذا أيضاً أن محقق انتقل إلى فرع طهران ولم يبق في المعهد في مونتريال من يمكن أن أفيد منه كثيراً، وسأبدأ بالمشكلة الثانية.

تقرر أن يبدأ الفرع في طهران بخمسة أشخاص: أستاذين وثلاثة باحثين من الطلاب على أن ينهي هؤلاء الثلاثة أطروحاتهم على أنها أبحاثهم الأولى. كنت في عداد هؤلاء الثلاثة باعتبار أن أستاذينا المشرفَيْن هما أزوتسو ومحقق. وكان معي دافيد إيد (David Eid) وهو طالب أميركي التحق بالمعهد قبل سنة أو سنتين وكان يعد من أقوى الطلاب وأحسنهم، وطالب تركي تتري الأصل اسمه روشان وكان قضى في المعهد ما لا يقل عن السنتين. وبذلك يكون كل منهما قد قضى في المعهد ست سنوات على الأقل في حين أمضيت أربعة فقط وكنت على أبواب التخرج.

وصلت طهران في شهر كانون الأول/ديسمبر ١٩٦٩ وحضرت افتتاح المعهد هناك بوجود عميد الدراسات العليا في جامعة ماكغيل ومدير المعهد تشارلز آدامز والأستاذين أزوتسو ومحقق والباحثين الثلاثة وأنا أحدهم وجمع غفير من جامعة طهران، بدءاً برئيس الجامعة وانتهاء ببعض طلابها. وكانت الدولة أيضاً ممثلة. وكان بين الحضور عميد كلية الآداب في ذلك الحين البروفسور سيد حسين نصر الذي غادر إيران عند قيام الثورة الإسلامية باعتباره مقرباً من الشاه. وبعد الافتتاح وبدء العمل وجدت ضغطاً عليّ يحثني على تغيير موضوع الأطروحة واستبداله بموضوع يتناسب ووجودي في إيران. وبعد تردد فكرت باختيار أحد شارحي السهروردي وهو

محمود الشهرزودي وكان له كتب تشرح «حكمة الإشراق» فجمعت مادة الدراسة، وكنت في الوقت نفسه أدّرس في قسم اللغة العربية في جامعة طهران، وقد أمضيت فصلاً واحداً في تلك المهمة، أخذت في أثنائه أرتب مادة موضوعي وفصول دراستي.

ولكني سرعان ما ضقت ذرعاً بكل هذا رغم كل الأجواء الطيبة التي أحطت بها في المعهد في طهران ورغم طيبة الإيرانيين وكرمهم. وقد أصبح لي بينهم أصدقاء كالدكتور شهيدي رئيس قسم اللغة العربية وإبراهيم ديباجي الذي كان معيداً في الجامعة ثم جاء بعد سنوات والتحق بالجامعة اليسوعية وكان في ضيافتي في بيتي. ولو أني بقيت في طهران وتابعت دراستي أو كتابة أطروحتي عن الشهرزودي لتوسعت هذه الصداقات. فالإيرانيون طيبون إلى أبعد الحدود ومحبون للناس وكرماء وبسطاء. وكان طلابي في الجامعة يحيطونني بالمحبة والتكريم، وكان بينهم طالبات.

كانت طهران في عهد الشاه مثلها مثل بيروت تعج بالجديد والمتناقضات من رجال الدين الذين يشكلون طبقة اجتماعية بمعنى الكلمة، إلى النوادي الليلية الخاصة التي لا تفتح أبوابها إلا للأعضاء، وغير ذلك كثير. كانت الحياة معقولة مقبولة ولكني آثرت الانسحاب المبكر قبل المزيد من الانخراط.

تركت طهران بعد إقامة دامت أكثر من فصل دراسي واخترت أن أعود بحافلة ركاب كبيرة أكثر ركابها من قاصدي زيارة النجف الأشرف. بتنا ليلة في بلدة إيرانية قريباً من الحدود العراقية. وفي اليوم الثاني استأنفنا المسيرة وعند الوصول إلى الحدود كانت ميليشيات الأكراد هي المسيطرة على الموقف وكنت ترى المسلحين ينتشرون فوق الجبال. وبعد مسيرة ساعة أو ما يقارب ذلك بدأت

تظهر طلائع الحرس الثوري العراقي ثم رجال الجيش. وقد توقفنا في الطريق عند الحواجز كما للراحة. وكنت أنظر وأراقب ولاحظت كيف يأكل جنود الجيش العراقي أو بعضهم وكيف يتصرفون. فتساءلت كيف يمكن مقابلة جندي من هؤلاء بجندي متعلم يجيد الحساب وغيره.

وفي بغداد أحسست بالمخابرات تحيط بي. وكنت قد تكلمت هاتفياً سائلاً عن المرحوم باسل الكبيسي، فلم أحظ بجواب شافٍ. وفي اليوم التالي غادرت مسرعاً إلى عمّان ومنها إلى دمشق فبيروت فطرابلس، وكنت أحمل معي حملاً ثقيلاً من الكتب وما جمعته من مشتريات. كما أحمل معي الكثير من الذكريات عن طهران والآلام من بغداد فقد كان الجو خانقاً فيها حقاً.

قضيت مع صديقتي ما تبقى من فصل الصيف، وقد زاد عن نصف الفصل، عوّضتها فيه عن آلام الفراق قبل ذلك. صحيح أنني كنت موزعاً بين الوطن من جهة وحياتي في مونتريال من جهة أخرى، إلا أنني كنت أعيش في كل من العالمين بكل معنى الكلمة. كنت وكأنني أجمع عالمين منفصلين وأعيش فيهما في آن. ولا شك أن ذلك الصيف كان صيفاً مختلفاً اجتمعت فيه المتناقضات بشكل واضح وجلي. من جهة ما جرى في البلاد وقد كنت على استعداد لأن أدخل فيه تاركاً دراستي كما كاد يحدث مراراً وكما حدث بالفعل أيضاً. ومن جهة أخرى نصف صيف في لبنان مع الهزيمة والمظاهرات والصخب، ونصف صيف في كندا وفي مونتريال حيث تجري أروع المهرجانات وأبدع العروض الفنية من الأوبرا والموسيقى الحديثة إلى الغناء والرقص الفولكلوري الشعبي والتراثي. ومن جهة ثالثة صديقتي تظهر كل حبها وتصرّح بأنها على

استعداد لأن تعيش معي بأي ثمن وفي أي ظروف وأنها تفضل أن تتزوجني لفترة قصيرة على أن تخسرني. وأنا في موضع لم أحسم فيه أموري العاطفية، كنت لا أزال معلقاً نسبياً في بيروت، لم أنته بعد.

كان صيف ١٩٦٧ استثنائياً كما ذكرت. جمع التناقضات وأفسح المجال للسنة الثالثة من الدراسة التي كتبت فيها رسالة الماجستير إضافة إلى متابعة دراستي للدكتوراه. ومع نهاية السنة الثالثة حققت إنجازين أو بالأحرى ثلاثة إنجازات: كان الأول هو زواجي من الآنسة جين ألفورد Jean Alford، وكان الثاني هو تقديم أطروحة الماجستير ونجاحي فيها، وكان الثالث هو نجاحي في السنة الأولى للدكتوراه حيث كان الدمج بين السنوات ممكناً ومسموحاً.

بالنسبة للموضوع الأول، وهو الزواج، كنت متردداً جداً، ولكني كنت أدرك مدى حب صديقتي جين لي. كنت أدرك هذا ولكني في الوقت نفسه كنت أعرف أن تجربتي في بيروت لمّا تنته بعد، وأن أي خطوة متسرعة يمكن أن تؤدي إلى نتائج سيئة جداً في بيروت وهو ما حدث فعلاً. فقد دمّر تصرفي الذي فرضت الظروف أن يحدث، وأن يحدث أسرع مما يجب، حياة إنسانة لفترة من الزمن وكادت أن تكون له عواقب كارثية.

أعود إلى موضوع الزواج لأقول إنه جاء نتيجة الظروف وأنه لم يغير من حياتي في بداية الأمر. وقد تمّ عقد القران في شقتي الطلابية في الساعة العاشرة والنصف ليلاً. وكنت رئيساً لجمعية الطلبة العرب في الجامعة كما كنت ممثلاً لكندا في منظمة الطلبة العرب في الولايات المتحدة وكندا. وكان الزواج بحضور والديْ الزوجة وثلاثة أصدقاء، إثنان منهما هما الشهود والشيخ وكان صديقاً لي.

تعقد منظمة الطلبة العرب في الولايات المتحدة وكندا مؤتمرها السنوي في إحدى الجامعات التي فيها فرع للمنظمة، ويعقد هذا المؤتمر عادة في النصف الثاني من شهر آب/أغسطس من كل صيف بعد أن يكون فصل الدراسة الصيفي قد ولّي وأدبر. وقد حضرت أول مؤتمر لي في مدينة بولدر. توجهت أولاً من مونتريال إلى مدينة نيويورك حيث المركز الرئيسي للمنظمة في شارع برودواي الشهير، الذي يقسم المدينة طولاً من أول جزيرة مانهاتن حتى آخرها. وقد حدثت لي في زيارتي الأولى إلى نيويورك مفارقات طريفة.

كنت قد اخترت أن أذهب إلى نيويورك من مونتريال بالقطار فأصلها صباحاً. ومن هناك أذهب إلى مقر المنظمة الذي كان يعمل طيلة النهار تحضيراً للمؤتمر. كان القطار قد أقلع مساء ليصل في الصباح الباكر، ومع أن الرحلة تستغرق بالسيارة أو الحافلة ست ساعات فقد استغرقت بالقطار أكثر من ذلك. في محطة القطار المركزية كانت الحركة لا تتوقف ليلاً ونهاراً وكانت أرتال المسافرين والركاب بالمئات، إذا لم يكن أكثر من ذلك، في كل مكان من المحطة (Central Station). فإذا أردت دفع فاتورتك فعليك الوقوف في صف طويل، الطابور. وإذا أردت شراء أي شيء فعليك بالطابور أيضاً، وهكذا. وقد تصادف أيضاً أنني أردت مخابرة مكتب المنظمة لإعطائهم علماً بوصولي وأخذ الإرشادات اللازمة للانتقال إلى هناك.

وقفت قليلاً مفكراً واقتربت من الهاتف المجاور للاتصال فاكتشفت أنني أحتاج إلى ربع دولار أميركي لم تكن في حوزتي. وكنت في الوقت نفسه خائفاً على حقيبة يدي. أما الحقيبة الكبيرة فكنت قد

تركتها في قسم الأمانات على أن أدفع لاحقاً. عدت إدراجي وفكرت أن الحل الأمثل هو أن أقف في الطابور لأصرف دولاراً أو ما تيسر، وبذلك أتمكن من الاتصال بمكتب المنظمة. وعندما جاء دوري وطلبت صرف خمسة دولارات ارتفع صوت صاحب المحل وفهمت منه أنه ليس صرافاً، وقبل أن أطلب منه بيعي لباناً أو أي شيء مماثل كان الواقف خلفي قد أخذ مكاني ووجدت نفسي خارج الطابور، فذهبت إلى طابور آخر وقررت أن أشتري شيئاً، وعندما وصلت إلى البائع الجالس على عرشه اشتريت جريدة نيويورك تايمز وأخذت «الفكة» لأكتشف أنه ليس فيها ربع دولار أو ما يصلح لمكالمة هاتفية. كررت المحاولة وأنا في حالة غضبٍ عارم، وعندما حصلت على ما أريد واتصلت بمكتب المنظمة وأُعطيت التعليمات اللازمة والواضحة، خرجت من المحطة فكان خروجي إلى عالم من نوع جديد. أبنية عالية وجنبات شوارع تعج بالمشاة شبه المهرولين، فحركة الناس في نيويورك غيرها في المدن الأخرى، إنها أشبه بالركض والجري منها بالمشي. فإذا تباطأ الماشي عطّل حركة المشاة الآخرين وأخّرها.

أوقفت سيارة أجرة وأعطيت السائق التعليمات فبدأ يستفهم تقاطع أي شارع، راجعت أوراقي وقلت تقاطع شارع رقم كذا أوّل جامعة كولومبيا. فانطلق وهو يدخن سيجاراً كبيراً. وكان التدخين في تلك الأيام (صيف ١٩٦٦) مسموحاً في الطائرات والتاكسيات وكل مكان تقريباً. لم تكن المسافة طويلة، فأخرجت نقودي لأدفع حسابي وأكتشف أن ما معي يكفي ويزيد، إلا أن ما بقي للبخشيش (Tip) لا يصل إلى عشرة في المائة وهو الحد الأدنى للبخشيش عند سائق التاكسي والجرسون وخصوصاً في نيويورك حيث تتراوح النسبة بين ١٢٪ إلى ١٥٪.

فدفعت كل ما معي لأني لم أشأ أن أخرج ورقة نقدية كبيرة أو شيكاً سياحياً. نظر السائق وسألني عن أصلي، وأدركت أنه يريد أن يشتمني، فأعطيته جواباً غير صحيح فشتمني على كل حال. خرجت من سيارة الأجرة وأسرعت خطواتي باتجاه باب البناء حيث توجد مكاتب المنظمة. وكان علي أن أتصل بالطابق الثالث ليأتي من يفتح الباب لي، ولما كنت قد أنفقت كل القطع النقدية والورقية الصغيرة، ومعي تعليمات صارمة بعدم إظهار أي قطعة نقدية تزيد على عشرة دولارات، وقفت أمام البناء منتظراً خروج أو دخول أي زائر. ولما كانت مكاتب المنظمة تضج بالحركة، لم يطل انتظاري وهكذا وصلت أخيراً إلى مكاتب المنظمة وكان رئيس المنظمة لتلك السنة الدكتور سعد الدين إبراهيم الذي تعرفت به فنشأت بيننا صداقة ما زالت حتى كتابة هذه السطور.

وصلت إلى بولدر - كولورادو وكأنني وصلت إلى جنة حقيقية وتعرفت بأصدقاء جدد وبأعضاء من حركة القوميين العرب. كان الرذاذ يتساقط خفيفاً هادئاً حوالى الساعة الرابعة من بعد ظهر كل يوم، فتترطب الشوارع والأشجار ورؤوس الناس. وكنت إذا نظرت حولك لا ترى إلا الخضار والطراوة والهدوء، فبولدر مدينة أو بلدة صغيرة. وأذكر أنني تعرفت بعائلة أميركية من خلال صديقة أحد الطلبة العرب. فالجامعة أكبر من البلدة وقد نشأت البلدة ونمت بسبب وجود الجامعة. أما المدينة الكبيرة القريبة من بولدر فهي دنفر.

وفي بولدر تعرفت ببعض الطلبة السعوديين الذين ما زالوا أحبائي حتى الآن، وفيها بدأت صداقتي مع اثنين من أعز الأصدقاء: الفنانة الأميركية العربية سامية حلبي، وفي حوزتي بعض لوحاتها الثمينة،

والدكتور نبيل النواب الذي يعمل في اللجنة الاقتصادية لغرب آسيا (اسكوا) ومركزها المؤقت في عمان، على أمل انتقالها إلى بيروت قريباً.

كان مؤتمر المنظمة السنوي مناسبة من أهم المناسبات السنوية لا للطلبة العرب في أميركا الشمالية، ولكن لكثير من الشخصيات السياسية والفكرية والأكاديمية والإعلامية الذين لا يغيبون عن أي مؤتمر. كان بعض رجال الدين يحضرون كل سنة وبانتظام. وقد عرفت بعد ذلك أنهم يسجلون كل شيء ويكتبون التقارير للمخابرات الأميركية التي كانت أكثر الأطراف اهتماماً بالمؤتمر. وكان بعض الباحثين يدعون من قبل المنظمة لإلقاء المحاضرات والمشاركة في الندوات التي كانت تقام على هامش المؤتمر. وأذكر أن من بين الذين حضروا هذا المؤتمر الدكتور عبد الملك عودة. وأذكر أنه قال معلقاً على جمال الطبيعة وعلى شدة الاخضرار وطراوة العشب وكثرة البنات وجمالهن: لا بد أن ثمة خطأ ما. فالروايات تقول أن قدم النبي محمد كانت خضراء فحيثما حلّ أصبح كل شيء أخضر، وعلى هذا فلا بدّ أن النبي ولد وعاش ومات في هذه الأرجاء الخضراء وليس في الجزيرة العربية القاحلة! كان الأستاذ عودة يقول ذلك على سبيل التفكه وقد ضحك الجميع بسبب مبالغة الروايات التي لا تأخذ الواقع بعين الاعتبار، والقصد منها غير ما يفهمه بعض الناس من معناها الحرفي.

كان مؤتمر بولدر ١٩٦٦ من أهم المؤتمرات ليس لأنه المؤتمر الأول الذي أحضره، ولكن لأنه المؤتمر الذي وصلت معه منظمة الطلبة العرب في شمال أميركا إلى قمة مجدها. حضر المؤتمر مئات الأعضاء قاربوا الألف عضو، ولعلهم زادوا على ذلك. وكانت

القوى السياسية ممثلة أقوى تمثيل. فالجميع يعرف أهمية المنظمة وفاعليتها، فقد بلغ عدد فروعها لسنة (١٩٦٦- ١٩٦٧) أكثر من مائة وخمسة وعشرين فرعاً موزعة على الجامعات والمدن الأميركية والكندية المختلفة. وهذا مثل واحد على قوة المنظمة وأهميتها في ذلك الحين. كان يرأس ويمثل الطلبة المصريين السيد أسامة الباز. وهو الآن مدير الخارجية المصرية ومستشار الرئيس مبارك للشؤون الخارجية. وكان على رأس القوميين العرب الدكتور رمزي دلول وهو أحد الطلبة العرب الذين طردوا من الجامعة الأميركية فقبلتهم جامعة القاهرة، وكان مناضلاً معروفاً في صفوف الحركة قبل أن يحتل منصباً مهماً في الأمم المتحدة (نيويورك) ليصبح بعد ذلك أحد كبار رجال الأعمال ومن أصحاب الشركات الكبرى. وكان بين البعثيين شخصيات لعبت أدواراً مهمة فيما بعد مثل الدكتور وليد خدوري، والدكتور زياد الحسامي الذي أصبح رئيس المنظمة لعام (١٩٦٦- ١٩٦٧) والسيد كاظم العبد. والأخيران معروفان جداً بين الطلبة العرب في أميركا الشمالية، وغير هؤلاء كثير مثل الدكتور صفوح الأخرس ممن هم معروفون.

منذ وصولي إلى بولدر بدأت الاجتماعات الجانبية من كل نوع. اجتماعات خاصة بمسؤولي الحركة في المؤتمر، واجتماعات هنا وأخرى هناك ولقاءات كثيرة، فقصرت الليالي إلى الحد الأدنى، وقل النوم، في وقت كثرت فيه الحركة. كنا نجتمع حتى ما بعد منتصف الليل بل وحتى ساعات الفجر الأولى. وقد أثبت د. أسامة الباز منذ تلك الفترة المبكرة ١٩٦٦ كفاءة عالية في المفاوضات وقدرة على الجلد والتحمل فكان مفاوضاً من الطراز الأول من الصعب أن يغلب. كان يدهشني في تمكنه من العودة إلى نقطة

الصفر وتلويحه بنسف كل ما أنجز رغبة في مزيد من الكسب. وعندما ورد اسمه في الوفد المصري المفاوض تذكرت أسلوبه في التفاوض وقدرته الفائقة في هذا الميدان.

بعد مدة وعندما قارب المؤتمر على الانتهاء، تمَّ الاتفاق على قائمة إئتلافية من الناصريين: مصريين وقوميين عرب. وقد ضمت القائمة التي فازت أسماء من مثل وفيق مشرف من مصر، عامر التميمي من الكويت، معن زيادة وإسماعيل سراج الدين من لبنان.

تمّ انتخاب وفيق مشرف رئيساً، كما انتخبتُ رئيساً لمجلس النشرة. وكان من مهماتي رئاسة تحرير نشرة المنظمة المسماة نشرة أخبار منظمة الطلبة العربية (OAS News Letter) والمجلة العربية (Arab Journal)، وكلتاهما كانتا تصدران باللغتين الإنكليزية والعربية. وكان يساعدني مجلس تحرير ضم بعض رؤساء التحرير السابقين. وكان من أبرز المساعدين في التحرير عبد الوهاب المسيري وهو الآن خبير معروف بالشؤون الإسرائيلية واليهودية. والسيدان قدري غريب العربي ورمزي دلول. فوجود هؤلاء في مدينة نيويورك كان يساعد في إنجاز إعداد المطبوعات، فقد اتفقت المنظمة مع صاحب مطبعة كان يعمل منفرداً تقريباً على طبع جميع منشوراتها. وكان هذا يستدعي ذهابي إلى نيويورك مرة كل شهر على الأقل على مدار السنة.

وقد وقع لي يوم الإعلان عن نتائج الانتخابات حادث لا أنساه. بعد نجاحي في الانتخابات وقبل إعلان النتائج الرسمية في حفل وداعي يقام صبيحة اليوم التالي يحضره جميع المشاركين ويدعى إليه متحدث منهم، يقف الرئيس السابق قبل البدء بطعام منتصف الصباح معدداً أسماء أعضاء مجلس الإدارة الجديد، مقدماً كل

عضو على حدة. وعندما جاء دوري وسمعت إسمي وقفت ليراني الحضور فإذا بي أقع مغشياً عليّ لأجد نفسي بعد فترة وجيزة في المستشفى وقد علمت أنهم سيستأصلون زائدتي الدودية وأنه ليس أمامي من خيار. وقد كان من شأن هذه الزائدة أن تنفجر خلال ساعات قليلة، وتذكرت أنني كنت أنوي العودة مع زميلي الكويتي، وهو من أعضاء الحركة، بسيارته إلى نيويورك ومنها أتوجه إلى مونتريال. وقد كان من شأن ذلك أن يشكل خطراً حقيقياً على حياتي بسبب طول المسافة بين بولدر ونيويورك، وتباعد المناطق المأهولة في بعض الحالات.

أجرى الطبيب العملية ورحت في غيبوبة، وعندما صحوت وجدت بعض الطلبة العرب من بولدر وقد أحاطوني بعناية ما بعدها عناية. وبعد مغادرة المستشفى وقبل عودتي إلى مونتريال زارني الطلبة من فرع بولدر. ومن المفارقات الطريفة التي وقعت لي، أن إحدى الطالبات الأميركيات كانت قد رأتني وسألتني: من أي جامعة جئت؟ فأجبتها: من جامعة ماكغيل في مونتريال فقالت: مونتريال؟ فقلت نعم مونتريال في كندا. فتساءلت: وفي أي ولاية تقع كندا؟ طالبة جامعية أميركية تسأل عن كندا وفي أي ولاية أميركية تقع! ألم تنظر هذه الطالبة إلى خارطة أميركا؟ أم أنها كانت تحسب أن اسم كندا الكبير في أعلى الخارطة شمال الولايات المتحدة هو اسم عاصمة ولاية ما أو ما يشبه ذلك؟ ومع ذلك فإن الأميركيين لا تستوقفهم هذه الأمور ولا تؤثر على صحة المجتمع. فهم لا يعبأون بالعالم حولهم ولا يهتمون به. صحيح أن هذه الطالبة لا تمثل الأغلبية من طلاب الجامعات الأميركية، إلا أنها تمثل الأميركيين عموماً الذي يعتبرون الولايات المتحدة الأميركية هي مركز العالم وأن العالم كله يدور في فلكها. والولايات المتحدة ككل مجتمع

تغلب فيه مظاهر القوة مظاهر الضعف وتستوعبها. إنه كالجسد القوي الذي يعاني بعض المشكلات الصحية، فإذا عثرنا على بعض العلل فيه فهذا لا ينفي قوته التي تستطيع حتماً أن تهضم مشكلاته وتتغلب عليها.

بعد أسبوع أو أقل عدت إلى مونتريال، وقد أدهشني أن المستشفى لم تطلب مني أي شيء. وكل ما عرفته أنهم سيرسلون الفواتير إليّ في مونتريال. فإذا قارنا ذلك بمعاملات المستشفيات عندنا وجدنا الفرق كبيراً جداً. وعندما جاءتني الفواتير في مونتريال كان باستطاعتي أن لا أدفع، ولكني شعرت أن المعاملة الجيدة التي عوملت بها تستوجب معاملة جيدة بالمقابل. وعندما وجدت أن ما عليّ دفعه أكثر مما تعطيني إياه شركة التأمين، فأنا طالب منحة مؤمّن، تحدثت مع مدير المعهد فأجرى اتصالاته وسوّى الأمر.

في مونتريال فوجئت بوفاة جدة صديقتي، التي كانت الأسرة بأجمعها متعلقة بها. وقد تركت فراغاً كبيراً حتى بالنسبة إليّ فقد كنت أعزها وكانت تحبني.

ذكرت أنه كان عليّ أن أذهب إلى نيويورك مرة في الشهر على الأقل لحضور اجتماعات مجلس الإدارة من جهة ولرئاسة مجلس التحرير من جهة أخرى. كنت أستعمل كل وسائل الانتقال: القطار والطائرة والحافلة الكبيرة والسيارة الخاصة. وقد وقعت لي حوادث طريفة وأخرى جديرة بالتسجيل: من ذلك أنني أوقفت سيارتي قريباً من منزل رمزي دلول القريب بدوره من جامعة كولومبيا في شارع عام وواسع. وعندما عدت اكتشفت أن حقيبتي قد سرقت من السيارة، وكنت قد تركتها في السيارة

ظاهرة للعيان فتعلمت درساً من الدروس التي يجب أن يتعلمها كل قادم إلى نيويورك.

خلال العام الدراسي (١٩٦٦- ١٩٦٧) قمت بنشاط واسع، وكان من أهم الإنجازات تأسيس فرع جديد للمنظمة في جامعة مونتريال ـ البوليتكنيك. إلا أن الإنجاز الأهم كان ندوة فكرية في جامعة ماكغيل وهي من أهم الندوات التي عرفتها الجامعة. كانت الإمكانات ضعيفة، فقد كان عدد الطلاب العرب في جامعة ماكغيل لذلك العالم لا يزيد على سبعة عشر طالباً، أكثرهم في الآداب والدراسات العليا، ومع ذلك كانت ندوة مهمة. دعونا إليها البروفسور إسماعيل الفاروقي الذي اغتيل في منزله لأسباب سياسية على الأرجح واغتيلت معه زوجته وابنته. شارك في الندوة أساتذة مهمّون من المعهد كالبروفسور نيازي بركس والبروفسور إبراهيم أبو لغد إضافة إلى تشارلز آدامز وغير ذلك من الأسماء المعروفة من كندا والولايات المتحدة. ودامت الندوة يومين كاملين بما في ذلك حفل الافتتاح وحفل الاختتام. كان موضوع الندوة: النهضة العربية في القرن الماضي وأسباب عدم تطورها، وإمكانية ذلك الآن. وأذكر أن عريف الجلسة الختامية دافيد وينز (David Wins) قال لا بد من التنويه بالصامت الأكبر الذي كان وراء كل هذه الندوة وجلساتها الناجحة وكل الجهود التي كان من حصيلتها هذه الندوة الناجحة وهو معن زيادة. فأخجلني ذلك، ولم أكن معتاداً على المديح، والواقع أنني لم أعتد يوماً على المديح، إضافة إلى هذا كنت أقوم بواجباتي في المنظمة الأم. ولكن الأهم من هذا كله متابعة العمل السياسي وتأسيس الحلقات والخلايا.

مؤتمر الطلبة العرب السادس عشر وهو الثاني الذي حضرته، وهو

مؤتمر سنة (١٩٦٧ـ ١٩٦٨) كان أهم من المؤتمر السابق. وهو بلا شك من أهم مؤتمرات المنظمة إذا لم يكن المؤتمر الأهم. فقد شهد منعطفاً مهماً مع التطورات السياسية في البلاد العربية ونهوض حركة المقاومة الفلسطينية وبداية العمل المسلح الواسع ضد إسرائيل. فقد انعكس قيام المنظمات الفلسطينية كفتح والجبهة الشعبية لتحرير فلسطين على العمل الطلابي في كل مكان، وخاصة في الولايات المتحدة وكندا. كان هذا المنعطف الجديد بمثابة ولادة جديدة للحركة الطلابية للثورة الفلسطينية كما سميت.

إنعقد المؤتمر في ظل هذه الأجواء الجديدة. ودارت المفاوضات على هامش أعماله بين الأطراف الحزبية والسياسية، واختلفت التحالفات، فنجم عنها لائحة بين البعثيين والقوميين العرب من جهة، ولائحة الطلبة المصريين من جهة أخرى. وقد فازت قائمة البعثيين والقوميين العرب. وكان من أبرز وجوه البعثيين: وليد خدوري وصفوح الأخرس، وزياد الحسامي. كما كان من أبرز أسماء القوميين معن زيادة وعامر التميمي اللذين أعيد انتخابهما للمرة الثانية. ونجح زياد الحسامي بمنصب الرئيس كما نجحتُ بمنصبي السابق وهو رئيس مجلس التحرير مع المسؤوليات السابقة نفسها. وكان معي في مجلس التحرير: رمزي دلول، وقدري غريب العربي، وسليم تماري وهو الآن أستاذ معروف في جامعة بيرزيت في فلسطين، وكان لسنوات عدة صديقاً عزيزاً ضمن مجموعة أصدقائي المقربين.

كان أمام مجلس إدارة المنظمة مهمات جديدة ومهمة. فقد ارتفع عدد فروع المنظمة ووصل إلى أعلى مستوياته: حوالى ١٢٥ فرعاً.

وكانت هذه الفروع هي الفرق القتالية التي تواجه الطلبة الصهاينة من يهود وأميركيين. وقد نجحت المنظمة في إدارة نشاطات هذه الفروع، ولم تكن المهمة سهلة، فقد كانت الفروع تطلب المحاضرين والمتحدثين إضافة إلى الملصقات والصور والإعلام وغير ذلك من الأمور الكبيرة والصغيرة. وقد نظمنا أكثر من دورة محاضرين. كان المحاضر يقوم بدورة أوجولة على عدد من الفروع قد تصل إلى العشرات في الجولة الواحدة. وكان المحاضرون يتمتعون بالقدرة على الوقوف في وجه الصهاينة والرد عليهم وكسب الرأي العام الأميركي، الطلابي وغير الطلابي. وكان من بين أسماء المحاضرين: د. فايز صايغ، د. تحسين بشير، د. جورج طعمة (مندوب سوريا في الأمم المتحدة في ذلك الحين)، الحاخام ألمِرْ بِرْغِر (Elmer Berger) وغيرهم. وكان بعض الطلاب الذين يستطيعون إلقاء المحاضرات يقومون بتلك المهمات أيضاً.

كانت مكاتب جامعة الدول العربية في نيويورك وأوتاوا وسان فرانسيسكو وغيرها تتسابق لخطب ودّ فروع المنظمة ليدعي القائمون على أمور هذه المكاتب أنهم هم وراء نشاطات الطلاب. فقد كانوا على استعداد لتقديم بعض المساعدات للطلاب لتبرير ادعاءتهم. وكانت المنظمات اليسارية والمنظمات الحكومية وتلك التي تمولها المخابرات الأميركية، كل على حدة، تحاول التعاون مع المنظمة وإقامة نشاطات مشتركة. ففي سنة ١٩٦٧ على سبيل المثال وافق مجلس إدارة المنظمة على القيام بعمل مشترك مع إحدى المؤسسات الأميركية التي ورد اسمها على أنها من المنظمات التي تتلقى مساعدات مالية من المخابرات الـ (C.I.A). وقد تم ذلك عن طريق المداورة والخداع، فقد استُغل غيابي وغياب زميلي عامر التميمي. كنا معارضين بقوة للتعاون مع أي من هذه المؤسسات في

حين كان اسماعيل سراج الدين من أشد المتحمسين لهذا التعاون ـ وكان المشروع المشترك هو ورشة عمل لإعداد القادة. وكانت المنظمة التي تم الاتفاق معها هي أصدقاء الشرق الأوسط ولها مشروعات في الشرق الأوسط وهي تمول مدارس ومؤسسات خيرية فلسطينية بشكل خاص.

انعقدت الورشة أو المؤتمر في جامعة بركلي. وقد قررنا ـ عامر وأنا ـ أن نحضر الورشة لمراقبة ما يجري. وكانت ورشة العمل ناجحة في الواقع، ولكنها كانت في غير مصلحة المنظمة من الجهة التنظيمية. فقد أصرت منظمة الأصدقاء الأميركيين للشرق الأوسط: (American Friends of ME: AFME) على التعامل المباشر مع الفروع. واستطاعت الحصول على أسماء أعضاء الفروع وبالتالي أعضاء المنظمة كما استطاعت الاطلاع على الطلاب العرب والنشطاء بينهم والعناصر المحركة للمنظمة والفروع. وحصلت على كنز من المعلومات فيما بعد عبر أكثر الطلاب العرب وهو ما كانت المخابرات الأميركية تسعى إليه في كل مناسبة. وكان التعاون مع AFME وغيرها من أسهل الوسائل لجمع هذه المعلومات. وقد استطعنا بعد ذلك الحد من هذا التعاون تمهيداً لإيقافه، ولكن خسارة كبيرة كانت قد وقعت. ورغم أن ذلك كله كان يتم بدرجة خاصة من قبل الطلاب المصريين وفي عهد عبد الناصر لأن قيادة الطلبة المصريين لم تكن ناصرية واعية بدءاً بأسامة الباز الذي كان رئيساً للمنظمة قبل ذلك.

قضيت سنتي الثانية في مجلس إدارة منظمة الطلبة العرب (ASO) ناشطاً على مستوى الفرع والمنظمة ككل. وكانت منذ البداية تواجهني بعض الصعوبات عند الحدود الكندية ـ الأميركية. فقد كنت أنتقل شهرياً كما ذكرت. وأذكر مرة أنني سُئلت إلى أين

أنت ذاهب فقلت إلى اجتماع لمنظمة الطلبة العرب، فجاء الجواب في شكل سؤال، منظمة الطلبة العرب؟ ومنذ متى كان هؤلاء القوم منظمين؟ ثارت ثائرتي وكدت أفقد السيطرة على أعصابي وأجبت منذ الآن. ولم تعجب إجابتي موظف الأمن الأميركي إلا أنه اكتفى بذلك وانتهت تلك المواجهة. وأذكر أنني في مناسبة أخرى وكنت أصطحب زوجتي فتقدمت بجواز سفري اللبناني وكنت أدخن في آن. وكان التدخين في تلك الأيام شائعاً، بعكس هذه الأيام، فنظر إليّ الموظف شذراً وأشاح بيده في حركة وكأنه يقول ابتعد من هنا. فتبادلت بضع كلمات مع زوجتي، فإذا به ينقلب فجاة إلى إنسان متحضر. سأل زوجتي: هل أنتما معاً. فقالت له: نعم إنه زوجي، وكانت تحمل جواز سفر كندياً، ولم تكن بحاجة إلى أي مراجعة ولكنها آثرت أن تكون بجانبي. وما أن اكتشف ذلك حتى اعتذر وتغيرت معالم وجهه وأخذ يرحب بي وكأنني من طينة أخرى.

وذات مرة في مطار مونتريال استوقفني رجل الجمارك وسألني ماذا معي؟ فقلت لا شيء من الممنوعات، فابتسم ساخراً وقال: أعرفكم أيها القوم. فتركته يفتش وأخذ يفتش جيوبي وطلب مني أن أخلع معطفي وأن أخرج كل شيء. طبعاً كان باستطاعتي أن آخذ اسمه وأثير القضية على نطاق إعلامي وعند مؤسسات حقوق الإنسان. إلا أنني كنت أتعلم هذه الأمور وأخذت أدرك أهميتها لاحقاً. وأذكر بعد ذلك أنني اتصلت ببعض الأشخاص وتحدثنا بموضوع تأسيس منظمة لحقوق الإنسان تدافع عن المعتقلين السياسيين العرب. وكان من بين هؤلاء البروفسور إدوارد سعيد الذي تداولت معه ببعض الأسماء بعد أن أعجبته الفكرة. إلا أنه كان عليّ الانتظار ما يقارب خمسة عشر عاماً للانطلاق بهذه المؤسسة.

ساءت علاقتي تدريجياً مع المخابرات الأميركية، فمنعت من دخول الولايات المتحدة. فقد حدث أن كنت في طريقي لزيارة الدكتور أبو لغد في شيكاغو وأخذت معي في حقيبة السفر منشورات يسارية مؤيدة للمقاومة الفلسطينية. وتصادف أن قرر رجل الأمن والجمارك أن ينظر في حقيبتي، وكنت قد أنهيت كل إجراءات الدخول إلى الطائرة في طريقي إلى الولايات المتحدة. وبعد التداول في أمر هذه المطبوعات سمح الرجل لي بالدخول إلى الطائرة والسفر. ولكن وعند وصولي إلى مطار شيكاغو نودي على إسمي وجرى معي تحقيق حول هذه المطبوعات.

ومنذ ذلك التاريخ بدأت الصعوبات. ففي كل مرة كنت أريد فيها الدخول إلى الولايات المتحدة كان علي أن أقدم تعهداً أو التماساً، وفي نهاية الأمر منعت نهائياً. وما زلت حتى هذا التاريخ. ولكن أدخل أحياناً لأني كندي. فإذا حدث أن شك الموظف على الحدود في أمري فلا أدخل لأن اسمي ما زال ضمن الممنوعين من دخول الولايات المتحدة الأميركية.

وكنت قد حاولت مرة، قبل حصولي على جواز سفري الكندي، الحصول على تأشيرة دخول إلى الولايات المتحدة فذهبت إلى القنصلية الأميركية في مونتريال وتحدثت مع القنصل الذي أشار عليّ بالانتظام في صفوف مؤسسات ديموقراطية. وقد قصد بذلك أن أعمل مع المؤسسات التي تديرها المخابرات الأميركية فودعته وانصرفت إلى غير رجعة.

ففي العام الدراسي (١٩٦٧- ١٩٦٨) وقد شهد نشاطات كثيرة استمرت متزايدة يغلب عليها الطابع السياسي: المحاضرات والمناقشات والمواجهات مع الصهاينة. وكانت الغلبة دائمة للطلبة

العرب الذي تمكنوا تدريجياً من دحر الصهاينة بتعاون المنظمات اليسارية معهم من طلابية وغير طلابية. وقد شهد الجميع بذلك فاقتصر نشاط الطلبة الإسرائيليين واليهود على الدعوة لغداء أو عشاء إسرائيلي. والمقصود بذلك الفلافل والتبولة وما شابه، أو الدعوة لعرض أزياء. والمقصود بذلك الأزياء العربية اليمنية والمغربية خاصة. فقد قرر هؤلاء ترك الساحة مؤقتاً مع استمرار نشاطهم السياسي جزئياً فقط.

وجاء موعد المؤتمر في شهر آب/أغسطس، فشهدت قاعات المؤتمر في جامعة (MIT) في بوسطن مناقشات معمقة وصدر عن المؤتمر بيان شامل يعتبر وثيقة سياسية أساسية، وأدان المؤتمر الولايات المتحدة إدانة بالغة. ولكن لما كان كل ذلك في قاعات مقفلة فقد اكتفى رجال المخابرات بجمع الوثائق والمعلومات وتسجيل الوقائع. وفي اليوم التالي لم تصدر الصحف المحلية بأكثر من أخبار مقتضبة. الولايات المتحدة الأميركية تسمح للطلبة العرب بقول ما يريدون ضدها فهي دولة ديموقراطية، بل حامية الديموقراطية والديموقراطيات، شرط أن لا يزيد ما يقوله هؤلاء الطلبة والمعارضون عن كونه معارضة عنيفة في مكان مقفل. لا مانع من الصراخ، كلما زاد صراخ الطلبة والمعارضين فهذا أحسن. إنه يعني أن أميركا تقبل حتى الصراخ، أو بالأحرى خاصة الصراخ، على ألا يزيد عن كونه صراخاً في مكان مقفل.

آثرت بعد ذلك أن لا أترشح لانتخابات سنة ١٩٦٩. فقد بدأ العمل التنظيمي في الجبهة الشعبية يأخذ وقتي وقد احتللتُ منصباً قيادياً مع وليد الحسيني الذي كان يقود العمل في غرب شمال أميركا حيث كان يقيم في كاليفورنيا. وكنت أنا في الشرق، شرق

شمال أميركا أقوم بمهمة مماثلة. كنت أسهر مساء بعد أن تغفو زوجتي وأكتب الرسائل من جهة أو أقوم بالاتصالات الهاتفية اللازمة، وكان عندي روزنامة عمل يومي. كل هذا بالإضافة إلى دراساتي في النهار فقد كنت أريد إنهاء امتحان التعمق أولاً وكان عليّ أن أوازن بين دراستي المكثفة في النهار واتصالاتي المسائية، حتى أصبح ذلك نوعاً من الروتين اليومي. إلى أن جاء موعد الامتحان فتقدمت وكنت في عداد الناجحين وكان ذلك بمثابة الحمل الثقيل الذي انزاح عن كتفي.

كانت سنة (١٩٦٨ - ١٩٦٩) حافلة بالنشاط كغيرها من السنوات ولكن في نهايتها جدّ أمر جديد ومهم. وهو أن المعهد قرر إنشاء فرع له في طهران. وكان أستاذي أزوتسو قد اختير للذهاب إلى طهران بدلاً من مونتريال كما أن محقق كان هو مفتاح العلاقة بين الفرع والمعهد المركزي في مونتريال وكان هو وراء الفرع وكل شيء فيه تقريباً. ولم يبق لي في المعهد من يمكن أن يشرف عليّ فقررت أن أكون في عداد الباحثين الذي شكلوا نواة المعهد إضافة للأستاذين أزوتسو ومحقق.

طاب لي العيش في طهران، وكان فيها ميشال فراري الذي يعمل مديراً لمكتبة المعهد في مونتريال، وكنا صديقين. ولما كان ميشال ممنوحاً من قبل إحدى المؤسسات الأجنبية الأميركية، وكان أميركي الجنسية، وجاري في السكن في طهران فقد ترافقنا. وكنت أدخل معه إلى مطعم الجالية الأميركية، كما كنت أطلب منه ما أحتاج إليه من أغراض من تعاونية الجالية أيضاً. فقد كان لتلك الجالية امتيازات كثيرة لا حصر لها، وكانت تعاونيتها مقصورة على استخدام الأميركيين، وكان فيها ما يحتاجه الإنسان من البضاعة

الأميركية حتى رموش العيون للسيدات وأدوات التجميل على أنواعها، والحليب الطازج المستورد من كاليفورنيا. وكان أصدقاؤنا الإيرانيون يطلبون بعض الحاجات من أصدقائهم الأميركيين مما لا يتوافر في السوق المحلي، رغم أن إيران عموماً كانت مفتوحة لكل ما هو أميركي.

كانت طهران كأي مدينة شرقية إسلامية. فهي شبيهة بالقاهرة هذه الأيام من جهة الأجواء الاجتماعية والسياسية، وهي شبيهة بغير القاهرة كدمشق مثلاً من حيث الإعمار، والشكل المديني. وكانت تعجّ بالمتناقضات. وكانت حياة الزائر مثلي يمكن أن تكون ممتعة وجميلة. والإيرانيون ككل الشرقيين كرماء، إلا أنهم شديدو التمسك بتشيعهم، وهو تشيع خاص يختلف عن تشيع الإمامية عندنا، فقد اختلط تشيعهم بمعتقدات زرداشية وإيرانية قديمة. وتصادف أنني كنت في إيران أثناء عيد الأضحى فوجدت أن الإيرانيين لا يهتمون كثيراً بهذا، تعطل المدارس والدوائر الرسمية، إلا أن المحال التجارية تفتح أبوابها وكأن شيئاً لم يكن. لا تجد في طهران لعيد الأضحى أي بهجة خاصة. كما أن التشيع الإيراني اختلط بكثير من الكثلكة، أحد مظاهرها الاهتمام بالصور والتزين ولا سيما صور الإمام الحسين الذي تعارف الرسامون على ارتدائه عمة سوداء فوق شعر أسود وحاجبين كثيفين أسودين وشارب كثيف جميل أسود أيضاً.

لا يكتفي هؤلاء بصور الأئمة، بل وضعوا صوراً للنبي أيضاً، وتجد هذه الصور، ولا سيما صور الإمام الحسين، في كل مكان في المطاعم والحافلات والمحال التجارية والبيوت. تجدها على الورق وسط أطر جميلة وعلى الرخام وأحجار الموزاييك وقد أحضرت

بعضاً منها إلى لبنان. كما أني في زيارتي الأخيرة منذ سنوات قليلة، أحضرت قليلاً منها معي إلى مونتريال. وقد علمت أن الإمام الخميني منع تداول هذه الصور فأصبح العثور عليها صعباً. كما سعى إلى إلغاء الكثير من معالم التشيع الإيراني، فسمح بالأناشيد الدينية كما هي معروفة عندنا ولم يكن مأخوذاً بها في إيران. فقد كان الخميني يؤمن بالوحدة الإسلامية ويسعى إليها. ووفق نظرية ولاية الفقيه أعيد العمل بصلاة الجماعة وصلاة الجمعة. حتى أصبحت صلاة الجمعة واجباً مهماً. وأذكر أنني كنت في قم منذ سنتين أو ثلاث سنوات لحضور مؤتمر الشيخ المفيد، وكنت أتنزه مع زميل من الأردن هو فرحان، وقد غدرنا وكادت تفوتنا تلك الصلاة فإذا بمسؤولي المؤتمر يرسلون من يبحث عنا ليذكرنا بوقت صلاة الجمعة. فعجبت للأمر مع زميلي متذكراً المطاوعين السعوديين الذي يضربون الناس في الشوارع إذا تخلفوا عن الصلاة.

وعلى كل حال فقد قررت مغادرة طهران وإيران، والعودة إلى لبنان ثم إلى كندا. وقد ذكرت في مكان آخر كيف عدت إلى لبنان. إلا أنني بعد عودتي إلى طرابلس قررت الاتصال بقيادتي الجبهة الشعبية والجبهة الديموقراطية بعد انفصال نايف حواتمة ونفر من رفاقه وتأسيس الجبهة الديموقراطية لتحرير فلسطين.

ذهبت إلى بيروت أولاً وقمت ببعض الاتصالات الأولية، ثم ذهبت إلى عمان. وكان أول من قابلته الدكتور وديع حداد فرحب بي أجمل ترحيب. وبعد أن تركته ذهبت إلى مكتب الجبهة الديموقراطية فصداقتي مع نايف كانت أشد منها مع وديع أو أي شخص آخر في الجبهة الشعبية باستثناء الدكتور جورج حبش أو

الحكيم ـ كما كنا نسميه ـ وبعض قياديي الصف الثاني، صلاح صلاح ويونس يونس.

في مكتب الديموقراطية علمت أن القيادة مجتمعة في أحراج (أحراش إربد) في شكل مؤتمر تأسيسي. فذهبت إلى هناك والتحقت بالمجتمعين الذين كانوا ينامون في مغارة واسعة. وكان بعضهم ينام خارجها في العراء. ورغم أننا كنا في بداية الصيف فقد كان الطقس بارداً في الليل. كان من بين المجتمعين إضافة إلى نايف حواتمة ياسر عبد ربّه و«أبو ليلى» أو قيس السامرائي، وصالح وغيرهم كثير ممن فاتتني أسماؤهم الآن. كان عدد المؤتمرين يقارب الثلاثين قيادياً وبعض المقاتلين الذي يقومون بالحراسة والاتصالات وتأمين ما يلزم. وكانت تدور مناقشات مطولة طيلة النهار حول العمل الجبهوي والتحالفات والمواقف الأيديولوجية والمهمات التأسيسية. وفي محادثتي مع قياديي الصف الأول تقرر أن أقوم بجولة أوروبية تنظيمية وتأسيسية تبدأ بتركيا وتنتهي بألمانيا. وقبل عودتي إلى عمّان ثم إلى طرابلس، قمت بزيارة معسكر للتدريب التقيت فيه بعض المتطوعين الأجانب وتعرفت ببعض المدربين الأيديولوجيين والعسكريين وبعض الأسماء المعروفة عالمياً في نصرة الثورات.

كان كل شيء واعداً. كانت نصرة أسماء معروفة مثل صادق جلال العظم وجيرار شليان وأمثالهما للجبهة من العوامل المشجعة على الانضمام للجبهة الديموقراطية بدلاً من الشعبية. وهكذا لم أعد إلى عمّان لمعاودة اتصالاتي مع قيادة الجبهة الشعبية. والواقع أنني كنت قد حسمت الأمر قبل وصولي الأردن، رغم بعض السلبيات التي رأيتها في مكتب بيروت خاصة.

قضيت عدة أيام في لبنان ما بين بيروت وطرابلس. ثم بدأت رحلتي الأوروبية بدءاً باسطنبول حيث اتصلت بالعناوين المعطاة لي. ومن هناك عقدت عدة اجتماعات وشرحت معنى قيام الجبهة الديمقراطية. وبعد ما يقارب الأسبوع جمعت فيه بين العمل التنظيمي الحزبي والسياحة والزيارة تابعت رحلتي إلى صوفيا (عاصمة بلغاريا) حيث قضيت بضعة أيام فقط قمت فيها بأعمال حزبية وتنظيمية واجتمعت إلى الخلية الأولى وشرحت الموقف العام ومعنى قيام الجبهة. ثم أخذت القطار إلى بلغراد (عاصمة يوغسلافيا). كان التنظيم في يوغوسلافيا أكثر اتساعاً وقوة منه في بلغاريا. وفي جميع هذه الدول، كان العمل محصوراً في الطلاب العرب فقط. وقد سررت بزيارة يوغوسلافيا كثيراً. ولم تكن زيارة محصورة في بلغراد بل امتدت إلى لوبليانا (Lobliana) مروراً بزغرب. وقد انتهزتُ فرصة وجودي في لوبليانا وقمت بزيارة والدة زوجة صديقي الأميركي اريك هنسون (Eric Henson) الذي كان شريكي أو جاري في السكن في بيوت الطلبة في ماكغيل في السنة الأولى فيها (١٩٦٥- ١٩٦٦). وهو الآن عالم نفس مشهور يعمل في عيادة خاصة إضافة إلى بعض المستشفيات. من زغرب توجهت إلى سارايفو في حافلة ركاب عبرت الطريق الجبلية الضيقة والجميلة في آن. كانت رحلة جميلة لا تنسى بمناظرها الطبيعية الخلابة. ومع الاقتراب من سارايفو كانت المعالم الإسلامية تظهر تدريجياً، من شواهد القبور في القرى، ومن المساجد والمآذن ومن شكل ونمط البناء إلى أن وصلنا إلى سارايفو التي تشعرك وكأنك في أي مدينة إسلامية من مدن تركيا.

نمت ليلة في سارايفو. جلت في المدينة وتعرفت على معالمها. فكانت زيارة رائعة أعادتني إلى أجواء مجد الدولة العثمانية. شوارع

جميلة ونظيفة فيها أماكن خاصة وقفت فيها مياه الشرب لعابري السبيل «أو ماء السبيل» كما نسميها. وفيها مساجد يؤمها الناس في مواعيد الصلاة الخمسة لا كمسجد مدينة نيقوسيا. وفيها مكتبات عامة من الكتب العربية. ونسبة الذين يجيدون العربية مرتفعة، ليست تلك النسبة العالية كما هو الحال في إيران، ولكنها نسبة لم أكن أتوقعها.

في براغ تابعت مهمتيّ اللتين جئت من أجلهما. وحدث أن دعيت إلى محاضرة عامة ألقيتها في إحدى قاعات مقر الحزب الحاكم «حزب تيتو» حيث التقيت بأحد رجال الثورة والمقاومة السودانية. وقد سررت بلقائه والتعرف إليه والتحدث معه. وفي براغ أيضاً زرنا مركز قيادة الحزب الحاكم، وسمعت عبارات التأييد الواضحة.

كان الرفاق في بلغراد متقدمين سياسياً وعلى علاقات جيدة مع الرفاق اليوغوسلافيين في الحزب الحاكم. وكان ذلك من عوامل القدرة على العمل. وكان هؤلاء الرفاق على دراية تامة بالسياسة والحياة السياسية في يوغسلافيا. وقد سمعت منهم أكثر من مرة أن يوغسلافيا ستتفتت إلى ثلاث دول بعد موت تيتو. وسمعتهم يقولون إن الصرب هم أكثر القوميات في الاتحاد تعصباً وتشدداً. وكانوا يقدمون تحليلات جيدة أفدت منها كثيراً. وبعد أسبوع أو يزيد قليلاً، غادرت بالقطار إلى ألمانيا حيث زرت عدة مدن وكان آخرها برلين الغربية والشرقية. كنت أتوقع في برلين لقاء صديقي الحميم عادل الياس الذي كان يعمل مديراً لمكتب إحدى المجلات العربية، إلا أنه أخبرني هاتفياً أن ذلك غير ممكن لأنه أثناء وجودي في برلين سيكون خارج ألمانيا لأسباب تتعلق بعمله. وقد عرض

علي الإقامة في شقته إلا أني رفضت وقررت أن أقصر زيارتي لبرلين على السياحة فقط، وهذا ما كان.

زيارتي لألمانيا لم تختلف كثيراً عن زيارتي للمدن والدول الأوروبية الأخرى، مع فارق مهم أن ألمانيا لم تكن في المعسكر الشرقي. وقد شعرت بالفرق الواضح عند عبوري من أوروبا الشرقية إلى أوروبا الغربية عبر برلين بشقيها. فمعاملة البوليس للناس كان فيها الكثير من العجرفة والغطرسة. وكان الناس يتمتمون بالشتائم كلما ابتعد البوليس الألماني الشرقي. والآن سأترك موضوع علاقة الرفاق في الجبهة الديموقراطية مع الرفاق الألمان لوقت لاحق عندما أتحدث عن زيارة أخرى لي لألمانيا في جولة محاضرات مع يهودي إسرائيلي يساري.

عدت إلى مونتريال من برلين وكان صيف سنة ١٩٧٠ قد انتصف، بعد أن استغرقت جولتي أقل من شهر بقليل. وقد جاءت نتائج تلك الرحلة جيدة ومثمرة لي من جهة وللجبهة من جهة أخرى. أفدت كثيراً من تلك الجولة الأوروبية الأولى التي أقمت قسطاً كبيراً منها مع الرفاق في بيوتهم. وعلى كل حال فإنهم لم يتركوني وحيداً إلا في أوقات قليلة. وكانت الرحلة مفيدة جداً للجبهة. فقد كانت هذه الفروع ضعيفة. صحيح أن للرفاق فيها تجارب سابقة في الجبهة الشعبية إلا أن هذه الفروع كانت محتاجة إلى تنشيط وإلى من يقوم بذلك ويعطيهم الثقة في عملهم وأعتقد أنني قمت بذلك.

كان أمامي مهمة كبيرة، مهمة الاتصال بالرفاق في كندا والولايات المتحدة وتأسيس فروع أو وحدات وحلقات دعم للجبهة الشعبية الديموقراطية لتحرير فلسطين. وكان ذلك على

حساب الجبهة الشعبية أولاً في مونتريال. لم يكن هناك من صعوبة مطلقاً فقد انقلبت الحلقتان معي وكنت في الأساس مؤسس هاتين الحلقتين، وكذلك الحال في تورنتو. وكان على رأس العمل فيها س.ص. وكنت أنا من جنده للعمل التنظيمي. يضاف إلى ذلك «أوتاوا» وكان على رأس العمل فيها م.ز. وكنت قد جندته مع بقية الناشطين في الجبهة في كندا. ولم يعد في كندا أي حلقة تابعة للجبهة الشعبية، فقد كانت ميداناً لنشاطي واستطعت تنظيف كندا من أي عمل للجبهة الشعبية وجعله تابعاً للديموقراطية. ثم انتقلت للعمل في الولايات المتحدة فنجحت في مدن كثيرة ولكني فشلت في غيرها. نجحت في نيويورك وكسبت عناصر ذات كفاءة عالية. كسبت سيدة أصبحت رئيسة لمنظمة الطلبة العرب في الولايات المتحدة وكندا. وكانت لهذه السيدة وزوجها كفاءة عالية جداً. وقد أصبح لزوجها شأن في العمل في بيروت قبل الغزو الإسرائيلي بقليل. فقد كان عالم كمبيوتر وأستاذاً في الجامعة وخبيراً واسع المعرفة وشاباً يحترمه الجميع ويقدرون كفاءته. ومن خلاله وصلت إلى د. إدوارد سعيد الذي ناصر الجبهة لفترة طويلة. وعندما عقدنا مؤتمر الجبهة الأول في الولايات المتحدة وكندا حجز لنا البروفسور سعيد غرفة في جامعة كولومبيا بحجة عقد ندوة له مع طلابه.

ونجحت في فروع أخرى في جامعات وبلدات ومدن كثيرة في ولايات متعددة: كاليفورنيا وفيها عنصر ناشط جداً، بعثي سابق هو لنكولن مالك، وكان معروفاً بين الطلبة العرب بواشنطن. وواشنطن هي ولاية في الغرب وهي غير واشنطن العاصمة. وكولورادو وقد أسست فيها حلقة للطلبة السعوديين فقط وأخرى مطعمة. وأوهايو وخاصة في بلدة كولومبس كان فيها الفنانة سامية حلبي ورفيق عراقي، أصبح ذا شأن مهم وعضواً في الخلية القيادية الأولى. وقد

عقدنا الجلسات التأسيسية الأولى في بيت سامية الريفي. وفي مدينة شيكاغو عقدنا الجلسة القيادية الأولى وقد أسست القيادة على الشكل التالي: أنا شخصياً أمين التنظيم المشرف على كافة الفروع والوحدات. ن.ن. من كولومبس أوهايو. ولنكولن من كاليفورنيا. والرفيق «صالح» وهو رياض منصور الذي شغل منصب مدير مكتب فلسطين في نيويورك والفلسطيني الوحيد في القيادة. وكان ذلك الاجتماع على هامش عرس الرفيق لنكولن، حيث عقد القران في بيت أهل لنكولن وفي كنيسة الآشوريين وكنت إشبين العريس. وكان عليّ القيام ببعض الطقوس بصفتي إشبيناً. كنا نعقد الجلسات في الحدائق العامة وفي الغرف المقفلة بعد الاتفاق على بعض الرموز. وكنا نكتب على ورقات صغيرة دون التفوه ببعض الجمل أو الكلمات. وعقدنا إحدى الجلسات في مركب ذهبنا فيه بعيداً في البحيرة للتكلم بحرية بحجة القيام بنزهة.

قرر لنكولن وعروسه الرفيقة الأميركية التبرع بحصيلة العرس النقدية للعمل التنظيمي. وكانت العادات الآشورية تقضي بدفع بدل من المال عن الهدية. وكانت حصيلة ذلك العرس عدة آلاف من الدولارات صرفت لدعم التنظيم. وقد قمت بذلك العرس ببعض الطقوس كما ذكرت على الطريقة الآشورية، (والكنيسة الآشورية بالمناسبة هي من أقدم الكنائس) كمراقصة الإشبينة، وكانت أخت العروس. انخرطنا في رقص أشوري وبغيره من الطقوس والتقاليد المتبعة. وأعترف أنني لم أبرز بذلك كثيراً ولكني قمت بمهمتي دون فشل.

كان من نتيجة الحرص الشديد والاحتياط في العمل والخطوات الأمنية الصارمة أن تنظيمنا لم يخترق ولم تعرف المخابرات الكثير

عن عملنا، إلا في جانبه العلني. لم يعرف أحد أي شيء عن الطلبة السعوديين المنظمين رغم أنهم كانوا ناشطين وقد حضر بعضهم الاجتماع أو الجلسة التأسيسية العامة في كولومبس أوهايو. وكنت أشرت إلى خطواتنا الأمنية التي اتخذت عند عقد الاجتماع الأول للخلية القيادية على هامش عرس الرفيق لنكولن. وعندما حضرتُ جلسات الكونغرس مع الرفيق رياض في بيروت فوجئنا بالتهاون الأمني. فقد عقدت جلسات هذا الكونغرس في مكان ضيق وحضره العشرات. كل ذلك في بناء عادي وسط الناس. وكان من السهولة بمكان تسجيل كل ما يدور في الداخل بل وسماع الأصوات من الخارج، كما كان حضور العشرات. في وقت واحد تقريباً يلفت نظر الجيران والمخبرين الذين كانوا على علم بالاجتماعات وكانوا يراقبون الجميع. أحسست ذلك في عيونهم لأننا نحن الإثنين القادمين من الخارج كنا غير مألوفين لديهم.

في ربيع سنة ١٩٧١ دعونا أحد قياديي الجبهة الديموقراطية في الأردن للحضور أثناء عقد اجتماعنا التنظيمي التأسيسي الموسع في نيويورك. فأرسل لنا الرفيق أبو ليلى الذي جاء إلى كندا أولاً حيث ألقى محاضرة بالإنكليزية في مركز التروتسكيين في مونتريال كما عقدت اجتماعات تنظيمية في مونتريال مع الحلقات والخلايا فيها، وألقى محاضرة بالعربية في قاعة محاضرات مبنى الطلاب في جامعة ماكغيل. بعد ذلك انتقلنا إلى «أوتاوا» وكنت بصحبته، وألقى محاضرة في مطعم سهيل الغرزوزي وكانت محاضرة جيدة جداً، جمعنا بعدها مبلغاً جيداً من التبرعات ولكن في نهاية المحاضرة وصلتني برقية من عمّان موجهة إلى «أبو ليلى» تخبرنا بمقتل زوجته التي أصيبت بطلق ناري وهي تنقل أسلحة من مكان إلى آخر. فكان عليه أن يقطع زياراته ويعود من حيث أتى.

قررنا المضي في عقد الجلسة التنظيمية الموسعة في نيويورك فحجز لنا د. إدوارد سعيد قاعة واسعة في الجامعة كما أشرت قبلاً. كنا نتراسل عبر صناديق بريد تحمل أسماء مستعارة، فكان إسمي في دائرة البريد دين الفورد (Dean Alford) وهو اسم حقيقي لشخص حقيقي لأن دائرة البريد تطلب إسماً موثقاً أي إسماً ومعه بطاقة شخصية كرخصة قيادة السيارة. وكانت هذه الرخصة لا تحمل صورة شأن أكثر البطاقات الشخصية، ولم يكن الحال كما هو عليه الآن. كما كنا نتحدث عبر الهواتف العامة. يخاطبني أحدهم فأعرفه من صوته وبعد التحيات أقول له سأخبرك بعد قليل، فيقول لن أكون في البيت أو العمل مثلاً ولكن يمكنك مخاطبتي على رقم الهاتف هذا بعد ربع ساعة مثلاً، وهو وقت كاف لاختيار هاتف عام قريب. فقد كنا ننوع أمكنة التخاطب، ورغم كل هذا كنا نستعمل الرموز أيضاً في أكثر أحاديثنا والأسماء المستعارة وغير هذا وذلك من الخطوات الأمنية اللازمة.

أطلق اجتماع نيويورك العمل في كافة مجالاته وتوزعت المسؤوليات التنظيمية، وكنت قد تفرغت للعمل بسبب المسؤوليات الناتجة عن كوني أميناً للتنظيم. وفي هذه الأثناء انضم إلى الوحدة القيادية شاب هادىء ورائع من فلسطين الداخل كان يحمل الإسم الحركي المستعار وهو الآن أستاذ في إحدى جامعات فلسطين. وبالمناسبة كان اسم الحركي للنكولن هو «نمرود». وكنت أُعرف باسمي التنظيمي «أبو مروان». ومن الطريف أن إحدى صديقاتي في هارلم وهي سوداء كانت تطلق علي إسم «أبو» فقط باعتبار أن هذا هو إسمي الأول وأن «مروان» هو إسمي الثاني أو العائلي.

ولعله من الطريف أن أذكر هنا الواقعتين التاليتين: الأولى أنني كنت

أتجول مع صديقتي السوداء في حي هارلم، ثم دخلنا أحد المقاهي لتناول القهوة والمشاركة في جلسة روحية دعماً لإحدى السجينات المناضلات من السود. فجاءني النادل وهو شريك في المقهى قائلاً بصوت غاضب: لا مكان للأوروبيين هنا. وقد حاولت تهدئة روعه وأعترف أنني خفت قليلاً لأني عرفت قبلاً أنه من جماعة الماوماو العنيفة، فكان يردد عبارته دون الاستماع إليّ. ولم يهدأ تخوفي إلا عندما أخذته صديقتي جانباً وقالت له إني مقاتل أو مناضل من فلسطين، ثم أوصتني بأن أدفع مبلغاً سخياً كتبرع بدلاً من مجرد دفع ثمن قدحي قهوة، فكان ذلك. وبعدها جاء موعد الجلسة الروحية، فأقفل الباب الخارجي ثم بدأت الموسيقى الأفريقية الصاخبة، وبدأ الصوت يعلو تدريجياً والضوء يخفت تدريجياً، وبدأت التمتمات باسم المعتقلة ترتفع وسُمع صوت يصرخ وآخر يصاحبه الصراخ. وعندما انتهت الموسيقى كانت اثنتان من الحضور قد أصيبتا بحالة وجد فغابتا عن الواقع مغشياً عليهما. بعد ذلك قمت بجولات واسعة بهارلم وكنا نحاول إقامة علاقة مع السود وكنت أذكر لهم أن البطل الأول في الروايات الشعبية هو عنترة العبسي، الذي كان شاعراً من الشعراء السود!

والواقعة الثانية هي أن نمرود عندما كان بعثياً كان يغتاظ جداً من مواقفي الصلبة ولا سيما في المفاوضات وفي المناقشات العامة. وقد فكر في ضربي أكثر من مرة. وفي إحدى المرات أمسك به رفيقان من رفاقه القدامى ومنعاه من التقدم نحوي، وكان ذلك قبل أن أتمكن من تجنيده في صفوف الجبهة الديموقراطية.

كان اجتماعنا التنظيمي الموسع ناجحاً جداً حضر إدوارد سعيد بعض جلساته في أوقات فراغه لذلك النهار. وأدرت الجلسات

بكثير من الحكمة والحنكة، وكان يضم رفاقاً من كندا: مونتريال، أوتاوا، تورنتو، ورفاقاً من فروعنا في الولايات المتحدة: بوسطن وديترويت، وواشنطن، ونيويورك، وبافلو، وكانت أولى مجالات العمل، وأوهايو بمدنها المختلفة وباركلي في كاليفورنيا وغيرها.

كان تفرغي للعمل من أجل «الثورة» الفلسطينية كما كانت تسمى، ضرورياً لتأسيس تنظيم مساند للجبهة الديموقراطية لتحرير فلسطين. بدأ ذلك في صيف سنة ١٩٧٠ بعد عودتي من رحلتي الأوروبية الأولى، أقول الأولى، لأن هناك رحلة أوروبية ثانية وإن كانت قد اقتصرت على الدول السكندنافية. كان مجال العمل واسعاً جداً وخاصة في الولايات المتحدة الأميركية. وكنت أدعى كل أسبوع إلى اجتماع أو محاضرة أو ندوة أو مؤتمر لدرجة أني كنت أقضي أكثر من ثلثي عطل نهاية الأسبوع خارج مونتريال. وفي بعض الحالات كان غيابي يمتد عن مركز عملي الأساسي في مونتريال لأكثر من أسبوع. وكانت عائلتي الصغيرة المكونة من زوجة وطفل تتحمل ذلك بصبر ومحبة. وعندما أكون في مونتريال كنت أقضي الوقت الطويل في كتابة الرسائل وتحضير البيانات العامة وإعداد نشرة داخلية والإشراف على طبع ترجمات كتيبات الجبهة إلى الإنكليزية أولاً ثم إلى الفرنسية أيضاً. كان وقت عملي مصروفاً للجبهة وكانت أوقات راحتي القليلة معطاة للعائلة التي انضم إليها في نهاية السنتين طفل ثان بعد الأول الذي ولد في صيف سنة ١٩٦٩ قبل ذهابي إلى طهران. حصل هذا في النصف الأخير من الشهر الأخير من السنة نفسها (١٩٧٢)، فأصبحت العائلة أربعة أنفار.

عدا ما ذكرت من الندوات والمحاضرات والمناقشات والرحلات

والغياب عن المركز، فقد قمت بتوظيف أموال لمصلحة الجبهة الديموقراطية. كان معنا رفيق لبناني نشيط جداً، متعدد المواهب هو سهيل راشد من بنت جبيل. كان قد تعلم مهنة الطباعة تقريباً من تلقاء نفسه. فقررنا أن نشتري مطبعة عادية صغيرة أولاً، تكفي كبداية، ولكن العمل سرعان ما توسّع واحتاج إلى مطبعة أكبر إضافة إلى الأولى، فاشترينا له المطبعة الأخرى وساهمنا بجزء من ثمنها فقط لأنه استطاع تأمين القسط الأكبر. وكان الهدف الأول من اختيار المطبعة لتوظيف الأموال هو طباعة أدبيات الجبهة بعد ترجمتها إلى اللغتين الإنكليزية والفرنسية دون دفع نفقات، ومن مردود المشروع، وهكذا كان. فأصبحنا بذلك قادرين على القيام بالدعاية الواسعة وتوزيع الكتيبات على المؤيدين أو الأصدقاء أو غيرهم من الكنديين والأميركيين.

كان لنا في مدينة بافلو في ولاية نيويورك قريباً من الحدود الكندية، عند شلالات نياغارا، حضور قوي. وكانت بافلو من أولى المدن الأميركية التي أسسنا فيها حلقات وخلايا. وكان لنا في بافلو صديقان أميركيان من تنظيم «الطلاب من أجل مجتمع ديموقراطي» (Students for Democratic Society: S.D.S) وهو تنظيم طلابي واسع ومعارض. وعلى كل حال كان هذان الصديقان الغربيان يقومان بزيارتي دائماً وقد اتفقنا على أن يقوما بتحرير الترجمة، فوافقا فوراً متحمسين للمشروع الذي كانا قد فكرا فيه فعلاً. وبعد فترة وجيزة كان العمل يسير على أحسن ما يرام. وقد نجحنا في تقديم فكر الجبهة لليسار الأميركي، ولقي ذلك تأييداً شديداً ولا سيما من قبل التروتسكيين.

لم يكن عندي شك قليل في أن يكون هذان الشابان من العاملين

مع المخابرات، بل كنت أشك بكل شيء يقولانه. وقد نبهت رفاقنا إلى ذلك وكنت أشرح لهم كيف يعمل هذان الشابان، وأنه علينا أن نعطيهما الثقة ولكن دون أن نعطيهما أنفسنا، نأخذ القليل ونمنع الكثير. وكان الرفاق في بافلو لا يفعلون شيئاً ذا خطورة دون الرجوع إليّ. كنت أرفض جميع الأفعال التي تنطوي على عنف أو خطف أو ما يشبه. وقد جاءا بكثير من هذه المشاريع. كانت المشاريع مغرية في قليل من الحالات، ولكنها كانت جميعها بمثابة اختبارات لمدى استعدادنا، واستعدادي أنا شخصياً، لهذه المهمات. كانت جميع هذه الاقتراحات ترفض فوراً. وكنت أشرح الأسباب واستغل المناسبة لإبعاد شبهة الإرهاب عن عملنا وإعطاء بعض الدروس لرفيقينا العربيين اللذين كانا صلة الوصل مع هذين الشابين الأميركيين. كنت أقول للرفيقين العربيين أحدهما يمني والثاني مصري عن صدق وإيمان:

- لا نوافق على خطف الأفراد لأن ذلك ضد حقوق الإنسان أولاً وأخيراً، وهذا من أهم المخاطر التي يمكن أن يتعرض لها التنظيم. وكنت أشدد على حقوق الإنسان وتعارض الحجر القسري مع هذه الحقوق، وأتوسع في شرحها، خاصة عندما جاء الصديقان الأميركيان بفكرة خطف السفير الأردني الشريف عبد الحميد شرف الذي كنت أعرفه شخصياً وعملنا سوية عندما كان يساهم ببعض أفكاره في مجلة «الحرية» هو وأخوه الشريف فواز شرف. وكان الأول «عبد الحميد» قد تزوج زميلتنا في حركة القوميين العرب السيدة ليلى شرف أو ليلى نجار.

- لا نوافق على تهريب المخدرات لأن في ذلك ضرراً للأفراد في

أجسامهم، وهذا ليس من حق أحد. ومهما كانت وسيلة التهريب والاحتياطات المتخذة شديدة ولا تدين المهربين، فإن القضية ليست قضية حصول على أموال، وليست قضية خدعة المفتشين ولا قضية شطارة. فالعمل الذي يكسب مالاً على حساب ضرر الأفراد وانتشار المخدرات ولا سيما في صفوف الشباب وصغار السن، هو مال لا يمكن أن يوصف بأنه يخدم قضية مظلومين ومستضعفين، بل هو مال فاسد لأنه على حساب حقوق الناس في أبدانهم. ونحن نعرف أن هذا المال هو نتيجة حتمية لهذا الاعتداء على حقوق الآخرين فكيف نستطيع تبرير هذا الاعتداء في وقت ندعو فيه إلى رفض الاعتداء. ولو استطعنا أن نحل مشاكلنامع أعدائنا عن طريق السياسة والتفاوض لفعلنا، ونحن نعرف ونردد دائماً أن النضال المسلح هو دليل عجز النضال السياسي عن حسم الأمور. وهو آخر أشكال النضال عندما تفشل السياسة.

- لا نوافق على سرقة الأموال من البنوك والمؤسسات، ليس خوفاً من البوليس ورجال الأمن، فلا تقدموا أي حجج عن الاحتياطات التي يمكن أن تتخذ، بل لأن ذلك ليس حقاً لنا ولا نريد هذا المال لخدمة أهدافنا النبيلة. فالهدف النبيل يخدم بالأساليب النبيلة، لا بالأساليب السيئة والمرفوضة من المجتمع والمتعارضة مع مبادئنا القومية. إن مبادئنا إنسانية وهي في خدمة كل ما هو في خدمة الإنسان، وهكذا بتوسع وبتدرج.

وبذلك استطعت إفهام الرفاق قضايا مهمة في حين كنت أبعث عبره رسائل إلى المخابرات عبر الصديقين الأميركيين، وكنت أحاول

التخلص منهما بكل وسيلة ممكنة، ولكنهما كانا يعودان ويعودان ويعودان.

كنت أوجه الرفاق عبر النشرة الداخلية، وقد أثمر ذلك تكوين عناصر صلبة وواعية في آن، وبذلك كسبنا ثقة واسعة.

كان التروتسكيون حلفاءً لنا في عملنا السياسي، ولا سيما تروتسكيو نيويورك، حيث توجد قيادتهم كما علمت. وقد تمكنت من عقد صداقات شخصية مع بعض قيادتهم من المثقفين ثقافة عالية. ومهد هؤلاء الطريق إلى عقد عدة لقاءات مع المفكر الكبير نعوم تشومسكي. وكانت الجبهة الديموقراطية قد دعت إلى إقامة تحالف للقوى الوطنية واليسارية والديموقراطية الاجتماعية بل والليبرالية لدعم نضال الشعب الفلسطيني. وبناء عليه قمت بهذه الجهود وسعيت وراء هذه الجلسات مع تشومسكي ومع التروتسكيين ومع الـ«الطلاب من أجل مجتمع ديموقراطي» و«الجبهة ضد الفاشية».

قابلت تشومسكي عدة مرات في بوسطن وفي نيويورك. لخصت له فكر الجبهة الديموقراطية وأعطيته بعض الكراسات التي كانت قد طبعت في مطبعتنا في مونتريال. وكان معجباً بكل شيء وقد عرض لي موقفه من هذا الفكر ومن الصهيونية التي يعاديها. وأعتقد أن الحوار بيننا قد دام شهوراً زادت على السنة، كان مثمراً في حينه. ولا أبالغ هنا إذا قلت أنني في تلك المرحلة كنت خير من يمكن أن يحاور تشومسكي وأمثاله، على الأقل في صفوف التنظيم في أميركا الشمالية. أنا لا أنكر وجود عناصر ذات كفاءة عالية معنا في التنظيم ولكن خلفيتي الفلسفية وقراءتي لكتب تشومسكي في تلك المرحلة (قبل أكثر من ربع قرن) على أنه أستاذ ألْسُنِيّات

ولغويات ساعدني كثيراً في إقامة حوار بناء معه. إلا أن عدم تقدم الجبهة واتخاذ أي خطوة عملية في تطوير هذه العلاقات إلى جبهة مساندة كانت قد دعت إليها، والاكتفاء بالطلب إليّ القيام بهذه المهمة الكبيرة في أميركا الشمالية وتأسيس جبهة مساندة تضم عدة شخصيات نافذة ومعروفة وعدة تنظيمات تصل أعداد بعضها إلى مئات الآلاف، كما هو الحال مع الطلاب (S.D.S)، فإن ذلك كان فوق طاقتي وطاقة التنظيم الفتي الذي أسسته. ولم أكن أكثر من طالب أنهى دراسته وسيعود إلى بلاده عاجلاً أم آجلاً.

كانت مهماتي كثيرة: إدارة الوحدات التنظيمية إضافة إلى المشاركة في حلقة دراسية كان يشرف على القراءة والبحث فيها الدكتور محمد صفية وهو تونسي ماركسي مخضرم كان يدرس في جامعة مونتريال. إضافة إلى مراسلة كل الفروع في كندا والولايات المتحدة وكتابة البيانات وتحرير النشرة كما ذكرت. ولكن المهمة الأكبر كانت المساهمة في الندوات وإلقاء المحاضرات والمشاركة في المناقشات. على سبيل المثال فقد دعيت إلى مناقشة في جامعة أنديانا في كولومبس في مواجهة نائب إسرائيلي معروف هو يوري أفنيري مؤسس حزب «أقلية الواحد» (The Minorety of One) كان ذلك في قاعة كبرى من قاعات الجامعة، اكتظت بالحضور. وكان الجو حماسياً ومؤيداً للعرب وانطلقت أتكلم وأفحمه حتى تصبب منه العرق وراح يظهر تراجعه تدريجياً. ثم جاء دور الطلاب، وكان الطلبة الصهاينة وحدهم في الميدان، ولم يكن معهم جمهور يؤيدهم، وكنت أعرف كيف أردّ عليهم، فهم جميعاً يأخذون أسئلتهم من مصدر مركزي واحد. كلما ذهبت إلى مكان من تورنتو إلى لوس أنجلوس أجد الأسئلة نفسها مثلاً: يقول غسان كنفاني في «الهدف» سنلقي باليهود في البحر، وأنا أعرف أن أحداً

من هؤلاء لا يجيد العربية ولم يقرأ أي شيء عن غسان و«الهدف»، وكل ما في الأمر أنه أعطي هذا السؤال. وقد أجبت على الأسئلة والاعتراضات بكثير من الهدوء والثبات، ومن الحكمة والثقة بالذات. فكنت أقاطع بالتصفيق، ولا أذكر أني نجحت في مواجهة الصهاينة كما نجحت في أنديانا، وقد ذهبت بعد المناظرة مع الرفاق والأصدقاء نحتفل بذلك «الانتصار» العظيم.

وأذكر ويذكر الجميع ممن كان في مؤتمر منظمة الطلبة العرب في مؤتمر لوس أنجلوس كيف كنت أدير المؤتمر من بين الحضور وأوجه المناقشات كما أوجه سير العمل. أما عندما أكون على المنصة فغالباً ما أكون شديد الصرامة. واجهت المرحوم د. فايز صايغ، وكان مندوب الكويت في الأمم المتحدة. وأمام ضرباتي المتتالية مدّ يده إلى جيبه وأخرج بعض حبوب التهدئة لأنه كان مصاباً بالقلب، وكنت أحب الدكتور فايز جداً، كما أعز جميع إخوته، ولكن ما أغاظني منه أنه عمل عند الكويتيين وتعاون مع أهل النفط. والمهم أن المناقشة انتهت دون كارثة، ولم أتحمل وزر موت رجل عظيم عمل من أجل بلاده ووضع الكتب والمؤلفات التي ما زالت ذات فائدة عظيمة حتى اليوم.

ويبدو أن الجبهة الديموقراطية في بيروت كانت تفتقر إلى عناصر تستطيع أن تحاضر باللغة الإنكليزية، أو أن من كان مكلفاً القيام بجولة أوروبية، إسكندنافية كان غير قادر على ذلك. المهم أنه طلب إليّ أن أحضر نفسي لهذه الجولة في فترة وجيزة لإلقاء مجموعة من المحاضرات في مدن مختلفة في كافة أنحاء إسكندنافيا وألمانيا كما ذكرت قبلاً. كنت قد عُرفت كمحاضر ومناقش في الولايات المتحدة، وكانت لغتي الإنكليزية قد تحسنت،

فقد ملكت زمام اللغة، وكانت ثقتي عالية بقدرتي على التعبير، فكنت أحاضر باللغة الإنكليزية كما أحاضر بالعربية ودون نص مكتوب. فقط بعض رؤوس الأقلام، إلا في حالات خاصة كانت تقتضي النص المكتوب.

سافرت إلى الدانمارك، ستوكهولم وبدأت فيها وانطلقت منها. كنت تعباً عند وصولي إلى المدينة ليس بسبب السفر فقط، ولكن بسبب العمل المتواصل في مونتريال، ولكني سرعان ما استعدت قواي فانطلقت في مهمتي التي انتدبت لها.

كان يرافقني في بعض المحاضرات يهودي إسرائيلي ينتسب إلى أحد التنظيمات اليسارية الصغيرة. وكانت الجبهة قد بدأت تحالفات من هذا النوع. وكثيراً ما كانت المحاضرات تتحول إلى مناقشات بيننا. ولم يتابع هذا الرفيق برنامج الزيارة، وبقيت وحدي وكان ذلك خير ما فعل. ولعل سبب تركه وعدم متابعته أنني كنت أقاطعه مقاطعة دائمة. كان الجمهور غالباً متحيزاً إلى جانبي، ولعل هذا أحد الأسباب الكثيرة التي كانت تساعدني على مقاطعته. وعلى كل حال فقد مضيت بهذه الجولة حتى نهايتها، وقد أخذتني إلى أماكن بعيدة في أقصى الشمال، أخذتني مثلاً إلى مالمه (Malmo) وهناك رأيت الثلج القطبي الذي لم أره قبلاً.

بعد الانتهاء من البلدان الاسكندنافية انتقلت إلى ألمانيا. وهناك اكتشفت الفرق بين القوى الصديقة للجبهة في ألمانيا وتلك التي في اسكندنافيا. في اسكندنافيا أصدقاء ليبراليون يعملون من وحي مبادىء إنسانية عامة ويهتمون بدعم هادىء لحركات التحرير ويتحركون بهدوء وأدب، دون صخب أو عنف. تجارتهم الأولى الجنس ومتعلقاته. وهي مصدر الدخل القومي الأول، تتبعه تجارة

الأخشاب والحرف اليدوية، ولا سيما الخشبية. أما في ألمانيا فإن أعضاء التنظيم كانوا أكثر نشاطاً وحركة، وقد مالوا تحت تأثير زملائهم الألمان إلى الصرامة والشدة وإلى العنف في كثير من الحالات. أما الرفاق الألمان فكانوا حازمين حقاً، أذكر وجه أحدهم وقد كان قاسي التقاسيم حتى أنني كنت أشعر ببعض الرهبة كلما جلست إليه وأخذنا بأطراف الحديث. ولكن وفي نهاية الأمر كان هؤلاء الرفاق رائعين جداً، وقد أفدت منهم إفادة واسعة في الحزم والهمة والنظام الدقيق.

قادتني هذه الرحلة إلى المدن الألمانية المختلفة. ولا سيما الكبيرة منها، شتوتغارد وبون وميونخ. وحاولت جهدي أن أتفوق إلى أبعد الحدود، وأظنّني نجحت. ولهذا فقد أغدق عليّ الرفاق الألمان وزودوني بمواد إعلامية مثل الأوسمة التي تحمل شعار الجبهة وتثبت على الصدر. كما أعطوني مجموعة من الأشرطة الفارغة للتسجيل عليها وكانت الأشرطة المستخدمة في ذلك الحين هي الأشرطة الكبيرة التي توضع على آلات تسجيل كبيرة وثقيلة كهدية رمزية للتنظيم في كندا والولايات المتحدة. كما أهدونا أيضاً مجموعة كبيرة من الكوفيات أو الشالات أو الحطات كما تسمى وكنا بحاجة ماسة إليها. وبعد ذلك طلبنا هذه الحطات من الجبهة في بيروت وعمّان، فكانت أحد مصادر التمويل إضافة إلى بيع الكتب الملتزمة بما فيها الكتب الماركسية اللينينية الكلاسيكية.

عدت بعد ذلك إلى قاعدتي في مونتريال لمتابعة عملي لأجد أن المطبعة قد تطورت كثيراً وأن مردودها المادي كان في تحسن مضطرد، في حين أن مشروعاً آخر لم يكن يعطي إلا مردوداً ضيقاً. فقد وظفنا مبلغ خمسة عشر ألف دولار في محل تجاري لأحد

الأصدقاء، وكان المحل يسمى (A to Z) والإسم يدل على طبيعة التجارة، فقد كان محلاً يبيع كل شيء تقريباً من معجون الأسنان إلى السجائر إلى الأدوية المرخص بها إلى السكاكر وغير ذلك الكثير ما لا حصر له؛ مئات الأصناف قد تبلغ الألف عدداً. وكان المحل يعمل بشكل ناجح جداً، ولكن عندما اشتركنا فيه خف النجاح وأصبح محدوداً جداً. ولذلك تقرر أن يتسلم إدارته أحد أفراد التنظيم مؤقتاً للوقوف على الخلل. وهذا ما كان. وقد استمر ذلك مدة من الزمن ثم أعيد المحل إلى إدارته السابقة إلى أن بيع وحصلنا على حقوقنا كاملة.

كان المشروع التجاري الأنجح هو المطبعة. والسبب في ذلك أنه لم يكن تجارياً فقط؛ فمن جهة أقمنا علاقات مع اليسار الكندي وكنا نبيع لهم بأسعار منخفضة. ومن خلال المطبعة كانت علاقتنا مع هذا اليسار تتعمق. ومن جهة ثانية، كنا نطبع كل ما نحتاجه ونتفنن في ذلك وقد جندنا الكثير من إمكانات أعضاء التنظيم للترجمة من جهة، وللتصميم والأعمال الفنية من جهة أخرى، فعلى سبيل المثال أخذنا من إبداع سامية حلبي وطبعنا بطاقات معايدة رسوماتها مستوحاة من التراث. يضاف إلى ذلك أننا أخذنا نمد الرفاق في فرنسا بما ترجمناه إلى الفرنسية وطبعناه، فسروا بذلك كثيراً، علماً أن المجتمع الكندي ينقسم إلى ناطقين باللغة الإنكليزية وناطقين باللغة الفرنسية مما يجعله أكثر ثراء.

كانت مونتريال ساحة لعمل وطني واسع، فجالياتها الرئيسة الأربع: (اثنتان فرنسيتان واثنتان إنكليزيتان) والجالية العربية التي كانت دائماً كبيرة والتي تعود جذورها إلى مطلع القرن، بل ما قبل ذلك أيضاً، كانت مصادر مهمة لقوى إنسانية ناشطة. وفي ١٩٦٧

خرجت بفكرة تأسيس نادي عربي في المدينة يجمع الطلاب إلى أبناء الجالية ويكون ميداناً للنشاط السياسي. وهذا ما كان، فكانت الهيئة التأسيسية مكونة من أربعة أشخاص: طالبين ورجلين من أبناء الجالية على الوجه التالي: معن زيادة ودافيد وينز من الطلاب والأخير هو طالب كندي مرتبط مع خطيبة لبنانية من صيدا وقد تزوجها فيما بعد. وقد أرسلناه لاحقاً إلى فلسطين لوضع كتاب عن حرب ١٩٦٧. وقد صدر الكتاب بعنوان «الأرض غير المقدسة». يضاف إلى هذين السيد سامي سيف الدين وهو رجل أعمال لبناني معروف، وعبد المجيد قدير وهو جزائري مقيم في مونتريال يعمل في إدارة الفنادق.

كان للنادي شأن منذ بدايته، وقد أخذ مني الجهد الكبير، وخاصة في مرحلة التأسيس. ولم تمنع المخابرات تأسيس النادي، فلم يكن معروفاً كيف ستسير الأمور، ولم يتوقع أحد إنطلاق العمل الفلسطيني على الوجه الذي آل إليه. ومهما يكن من أمر فقد انطلقنا وكان ذلك على حسابي بالدرجة الأولى، وقتاً وجهداً وتحمل مسؤولية. وكان عزائي أن العمل يسير من حسن إلى أحسن. وإذا كان غرضي من تأسيس النادي هو أن يكون للجالية حضور، فقد لعب النادي ذلك الدور وزاد عليه. وعندما تأسست التنظيمات المساندة للنضال الفلسطيني، كان النادي حاضراً للقيام بدوره في هذا الميدان إضافة إلى ميادين أخرى. وهنا بدأت المخابرات تضع خطوات تقييدية لترغمنا على إقفال النادي ولكننا كنا حاضرين للتصدي وتلبية كل ما يطلبون من سلالم خلفية وغرامات إضافية وغير ذلك كثير مما لم يكن ضرورياً عندما ظنت المخابرات أن النادي ثقافي اجتماعي فقط، ثم أصبح ضرورياً عندما

تبين أن النادي بدأ يلعب دوراً سياسياً أيضاً. وهذه الأساليب معروفة وهي تستخدم دائماً إضافة إلى غيرها، كوسائل ضغط.

إستمر النادي وكان يقع في وسط المدينة في الشارع أمام المدخل الرئيسي للجامعة، شارع ماكغيل (McCgill). وقد دعونا شخصيات أذكر منها الشيخ سالم الصباح سفير الكويت إلى الولايات المتحدة وكندا. إلا أن نشاط النادي تمحور حول المحاضرات والندوات والاجتماعات. وأذكر ذات مرة أننا اشتركنا في حملة جمع ملابس للمحتاجين، ربما لراوندا أو لدولة أفريقية أخرى. فكانت أطنان الملابس تتجمع في القاعة الكبرى في النادي، ونحن لا ندري كيف نستطيع أن نتخلص منها.

ظل النادي حملاً من أحمالي لمدة تزيد على الخمس سنوات، إلى أن تركته عندما تركت كندا وشمال أميركا سنة ١٩٧٢ وعدت للالتحاق بالجامعة اللبنانية في بيروت. وهنا تحمّل أنصار المقاومة مسؤولية النادي الذي انتقل إلى شارع أوتاريو (Autario) وظل يعمل وبدرجات متفاوتة حتى انتهى تحت ثقل الأعباء المادية بعد عشر سنوات من تأسيسه.

لم يكن لنشاطنا حدود يقف عندها. وأذكر ذات مرة أننا قررنا الذهاب إلى السفارة اللبنانية في أوتاوا ومناقشة السفير في موقف لبنان من المقاومة الفلسطينية والاحتجاج على هذا الموقف. وكنا قد أعددنا لذلك اللقاء فذهبنا من مونتريال في عدة سيارات طالبين من الأصدقاء والرفاق في أوتاوا موافاتنا إلى السفارة في وقت محدد. ولكن عند وصولنا إلى السفارة تبين لنا أن السفير الأميركي إلى كندا كان في زيارة السفير اللبناني. وعند ذلك قررنا الاتصال بوسائل الإعلام ثم دخلنا السفارة عنوة فضجّت وسائل الإعلام

وتسارعت الاتصالات مع رجال المخابرات ومع الخارجية وبدأ يتردد أن اللبنانيين من أنصار المقاومة الفلسطينية يحتلون السفارة اللبنانية ويحتجزون السفيرين اللبناني والأميركي. وفي اليوم التالي ظهرت الصحف وعلى صفحاتها صورنا وأنا في الوسط أتحدث إلى الصحفيين.

لم تكن نتائج ذلك الاقتحام إيجابية بالضرورة. صحيح أنها لفتت أنظار الناس ووسائل الإعلام إلى المقاومة الفلسطينية ومعاناتها على يد السلطات اللبنانية وغيرها، ولكنها نبهت المخابرات خاصة إلى وجودنا وما يمكن أن نفعله في غفلة منها. وأظننا بدأنا نلحظ وجود المخابرات حولنا أكثر من قبل بعد تلك الحادثة.

المخابرات هي همي، هي مرضي الذي ضربني، وما زال يضربني بين حين وحين. كنت شاباً عند مستديرة العقد الثاني من عمري، وكنت طالباً في جامعة القاهرة عندما اصطدمت وزملائي في حركة القوميين العرب مع المخابرات. ورغم أن تلك المخابرات كانت تسمى عند البعض صديقة، وغير ذلك من النعوت غير الدقيقة إذ ليس هناك مخابرات صديقة. فالمخابرات تعمل من أجل نفسها، من أجل النظام الذي تقول إنها تحميه.. وإن كانت مقولة الحماية هذه محتاجة إلى دعم وتأييد. والواقع أن همّي مع المخابرات يعود إلى ما قبل المرحلة الجامعية. كنا في طرابلس نقوم بتوزيع المناشير المحظورة، أو تلك التي تدعو إلى الإضراب والتظاهر. وكانت المخابرات أو التحري كما تعرف في طرابلس تترصدنا. وكنا نعرف رجال التحري هؤلاء فنراقبهم ونتجنبهم. كان أحدهم يضع قبعة أجنبية على رأسه يميز نفسه بها. وكان لا يتورع عن إخراج مسدسه راكضاً وراء الطلاب، وقد يطلق العيارات النارية في الهواء.

وبالمناسبة نقل إليّ مؤخراً حديث الأستاذ سعدي خياط، وهوقومي عربي ـ وقد درّسني التاريخ في ثانوية طرابلس ـ قال فيه إنه لم يكن يرتاح لغيري في تأمين الحماية له عندما كان يوزع المناشير والبيانات، لأنني كنت يقظاً. وأذكر ذات مرة أن أحد رجال التحري قد رصده وجرى وراءه، وكان معي زميلي ظهير المرعبي فأوضحت له الموقف على عجل وسرنا مسرعين بخط معاكس لرجل التحري واصطدمنا به كتفاً بكتف وعرقلنا حركته متجاهلين معرفتنا بما يجري. فثارت ثائرته واشتبكنا معه في نقاش قصير، كان كافياً لإنقاذ زميلنا موزع الدعوة للإضراب والتظاهر.

ومنذ أيام التلمذة في طرابلس وأنا في كرّ وفرّ مع المخابرات، وخاصة أيام حلف بغداد في العقد الخامس من هذا القرن بين سنتي ١٩٥٧ ـ ١٩٥٨. وقد استمرت معاناتي مع المخابرات بأشكال ودرجات متفاوتة، واضطررت أكثر من مرة لإتلاف مجموعاتي ووثائقي، وكنت دائماً أحب تجميع الوثائق. ولعل أكثر ما آلمني أنني فقدت مجموعة وثائق حركة القوميين العرب الأولى، وكانت جميعها في حوزتي: من تعاميم داخلية ودراسات توجيهية ونشرات منتظمة وسريّة وكتب داخلية وغير ذلك كثير. وعندما سجنت في سجن الرمل في بيروت أتلف أهلي ما تبقى لي من وثائق فحزنت عليها وما زلت.

مواجهتي الثانية كانت مع المخابرات الأردنية، وهي مخابرات شرسة تتعاون معها المخابرات الأميركية والإسرائيلية. وقد تأكدت من ذلك من تجربتي الشخصية، فعندما استدعيت من قبل المخابرات الأردنية ١٩٧٠ طرحت عليّ أسئلة كثيرة كان منها ما لا تعرفه إلا المخابرات الأميركية والكندية فيما كنت أحسب، فكان ذلك

مفاجأة لي وإن كنت لم أبد أي حركة يمكن أن يفهم منها أنني قد تفاجأت، بل كنت أجيب على الأسئلة بهدوء وبوتيرة واحدة.

حاول رجال المخابرات الأردنيون أن يكونوا هادئين معي، وإن كانوا قد مارسوا أسلوب التكتيك طويل المدى. بدأوا بالأخوة والأخوات والدراسة وغير ذلك كثير. وكانوا بين لحظة وأخرى يدسّون سؤالاً مهماً. وبعد مقابلة دامت عدة ساعات تغير طابع الحديث وحاولوا أن يكونوا قساة وأن يلجأوا للتخويف والتهديد، ولكني لم أكن خائفاً على الإطلاق. ومع اشتداد التهديد والصراخ كنت أحافظ على رباطة جأشي، بل إن أحد الذين كانوا يستجوبونني غضب وزمجر ولوّح بشيء بيده، ثم قال متراجعاً: «معك أربع وعشرين ساعة. إجمع كل شيء ولا تُرِنا وجهك بعد الآن». فتركتهم للحال وذهبت. وكان لي لقاء آخر بعد سنوات، وكنت قد ظننت أن كل شيء قد تغيّر فعلاً في الأردن، ولكن مع الأسف لم يكن كل ذلك الانفراج إلا من تكتيكات السلطة.

المواجهة الثالثة مع المخابرات، كانت مع الكنديين. فقبل أن تنتهي السنتان اللتان تفرغت فيهما للعمل الحزبي بدأت المخابرات الكندية تحسّ بوجودي الناشط جداً. ويبدو أن التعليمات قد جاءت من الولايات المتحدة فقد ترافق ضغط المخابرات الكندية مع منعي من دخول الولايات المتحدة.

لست أدري كيف تم اتصال المخابرات الكندية الأول بي، هل كان عبر الهاتف أم بزيارة للمنزل. ومهما يكن من أمر فقد أخذ هؤلاء بإزعاجي لإعلامي بوجودي مراقباً من قبلهم أولاً. ثم أخذوا يترددون إلى المنزل دون مواعيد مسبقة. وعندما اعترضت على ذلك، طلبوا مقابلتي في أماكن يختارونها، وقد أخبروني ذات مرة،

أنهم يفضلون اللقاء في فندق هوليداي إن في الضاحية الجنوبية من مونتريال. وكنت أذهب إليهم إذا استدعوني، إلا إذا كانت ظروفي لا تسمح بذلك. وقد حاولوا مرة تجنيدي، فرفضت بأدب شديد. فطلبوا مني أن أقدم لهم نبذة عن حياتي، فلم أجد في ذلك ضرراً، خاصة وإن الصورة التي قدمتها لهم هي صورة الطالب العصامي المجتهد. فقلت إن قضية فلسطين هي قضية عادلة وإنني من هذا الموقع أؤيد حقوق الشعب الفلسطيني، وشرحت لهم مطولاً أنني لا أؤمن بالإرهاب ولا أدين به، ثم دعوتهم إلى عشاء في منزلي وكانوا إثنين أو ثلاثة يترددون عليّ كثيراً، ودعوت أهل زوجتي، وكان الجو عائلياً. وقد قصد أهل زوجتي إظهار اعتزازهم بي، وبعد أكل وشرب كان الجو خالياً من أي توتر، فذهبوا راضين، أو هكذا بدوا على الأقل، وخفّت مضايقتهم لي وتحولت إلى لقاءات عابرة إلى أن تركت البلاد.

في ذلك الوقت كان البروفسور ليتل (Little) يذكر لي من حين لآخر أن المخابرات سألته عني، وكانت المضايقات قد تحولت إلى النادي كما ذكرت، ولم أكن أنا المقصود بالدرجة الأولى، ولكني بحكم مسؤوليتي كنت معنياً بهذه المضايقات. وأظن أن المخابرات الإسرائيلية كانت قد دخلت على الخط منذ فترة. كما أن أنصار كاهانا كانوا قد شكلوا لهم تنظيماً وكانوا يطاردوننا. ومن ذلك أنني كنت مع السيد هداوي في حديث إذاعي نرد على أسئلة المستمعين فلم يسر الأمر الصهاينة وأنصار كاهانا. لذلك جاءوا إلى مبنى الإذاعة يبحثون عنّا، وعندما وجدونا خارجين سألنا أحدهم إذا كنا نحن الذين نجيب على الأسئلة، فأنكرنا ذلك، وانطلقنا نحو سيارتنا فرحين بإنقاذ نفسينا من الضرب.

ثم جاء وقت كانت المخابرات الإسرائيلية تتصيد مديري المكاتب والناشطين العرب في أوروبا. فكنت أعود إلى بيتي، وكان في ركن هادىء، فأطوف حوله مراقباً قبل أن أعود وأدخله. وقد استمر الحال كذلك لفترة من الزمن. ثم جاءني مدير معهد الدراسات الإسلامية فنصحني بمغادرة كندا والعودة إلى بلادي، ففكرت طويلاً ثم وافقت.

أخذت أعد العدة للسفر، فتسلم «صالح» أمانة التنظيم وتم ترتيب كل شيء أثناء وجودي. وفي كندا لم يتغير أي شيء سوى ربط الوحدات بوضعها السابق، بالمركز الجديد في الولايات المتحدة. وتم التخلي عن رئاسة النادي وانتخبت هيئة إدارية جديدة. وهنا أخذ البعض يشك باحتمال سفري، ولكني أنكرت الموضوع وتجاهلته. وكثفت جهودي في ترتيب أموري الشخصية، أغراض الأولاد والكتب والحقائب وكل ما يحتاجه السفر وما تحتاجه العودة.

كنت أتردد على معهد الدراسات الإسلامية كعادتي، فأقرأ وأناقش. وكنت في ذلك الحين أدرّس في المعهد. بدأ الأمر كمساعد لأستاذ اللغة العربية واسمه محمد عبد الرحمن باركر وهو أستاذ ضليع في اللغات ولا سيما الأردية والعربية، وكان يرأس فريقاً في المعهد ويعدّ لإصدار كتاب لتعليم اللغة الأردية مع قاموس وكتاب آخر لتعليم اللغة العربية. طبعاً كل ذلك للطلبة الأجانب. ثم إن المعهد كلفني بالتدريس خلال فصل الصيف. والتدريس في الصيف يعني برنامجاً مكثفاً لمدة شهر ونصف الشهر تبدأ في أيار/مايو وتنتهي في حزيران/يونيو. أما الصيف بمعنى الكلمة أي تموز/يوليو وآب/أغسطس فهو فصل الإجازات الحقيقية في كندا. ففي كندا تنحصر الدراسة في أشهر الخريف والشتاء. تبدأ في أول

أيلول/سبتمبر وتنتهي قبل أواخر نيسان/أبريل. ثم يبدأ الصيف وهو أربعة أشهر ونيف إلا بالنسبة لأولئك الذين يدرسون في فصل الصيف والذين يحصلون على إجازة صيفية أقصر، ولكنها تدوم أكثر من شهرين. وفي كندا يقدسون الإجازات الصيفية، ولعل السبب في ذلك هو طول الشتاء حتى إن الموظفين العاديين يعملون لمدة أربعة أيام في الأسبوع ويعطلون ثلاثة أيام، وذلك طيلة أسابيع الصيف تقريباً.

وفي الصيف تخلو القاعة العامة أو المشتركة إلا من بعض الطلاب. الكل يرحل وقد يبقى بعض من ليس له مكان قريب يرحل إليه. وصور طلاب المعهد ترسخ في المخيلة، أولاً لأنهم يبقون معاً لسنوات، وهم موزعون في صفوف صغيرة كما أن المعهد شبه معزول عن الجامعة، والطلاب مع الأساتذة مدعوون يومياً للقاء ظهراً وعصراً أو مساءً (بحسب فصول السنة) إلى لقاءات يومية، وأذكر من هؤلاء:

- روشن، سيزر أو قيصر. وهو تتري الأصل، وعميد طلاب المعهد. عندما التحقت بالمعهد كان طالباً متقدماً، وكان صديقاً مع أزوستو ثم مع محقق، وقد صاحبني في إقامتي في طهران في الفترة الأولى إلى أن غادرتها. ولم يتمكن روشن من إنجاز رسالة الدكتوراه لسنوات طويلة فقد تحول إلى كحولي وكان يواجه صعوبات في التركيز.
- عيد دافيد. وكان من الطلبة المتقدمين أيضاً. ذهب إلى طهران كما ذكرت، وهو الآن أستاذ مستشرق متنقل في شمال أميركا.
- عبد الرب. أو مستر رب، وكان قد ورد الحديث عنه.

- مشير الحق. وقد أصبح أستاذاً معروفاً في الهند، ودرّس في كلياتها ما قبل الجامعية حيث يستطيع الطالب أن يتخرج كفنيّ، وذلك توفيراً عن الجامعات.
- مولانا حميد الدين. وهو باكستاني أيضاً. وقد بقي في كندا بعد التخرج، ودرّس في كلياتها.
- توماس دافيد. وهو أميركي تخرج، ويدرّس في الولايات المتحدة الأميركية. كان أميركياً نموذجياً، وهو يذكرني برعاة البقر الأميركيين، فكان يدخل ويخرج دون أن يكلم أحداً في أكثر الحالات، في حين تجده ودوداً طيباً في حالات أخرى. وقد اشترك في إنزال قوات المارينز الأميركية في لبنان في الخمسينات. يميني متطرف يدافع عن كل سياسات الولايات المتحدة الخارجية.
- وينز دافيد. وقد كان الكندي الوحيد في المعهد. التحق معي في السنة نفسها. تخرج من المعهد ودرّس في الجامعة الأميركية في القاهرة، وهو الآن في جامعة مانشستر في بريطانيا منذ ما يقرب من العشرين عاماً. متحمس ومتفهم للقضايا العربية وقضية فلسطين أكثر من أبنائها.
- براون دافيد، وهو كندي آخر التحق بالمعهد بعدي. من المتفهمين للقضايا العربية. سافرنا سوية إلى مؤتمر الـ(AAUC)، العرب الأميركيون من خريجي الجامعات (Arab Americans Graduates Society) في متشيغن واعترضتنا عاصفة ثلجية عند عودتنا بعد أيام.
- أبو زيد عبد الرحمن. سوداني التحق بالمعهد قبلي بسنة. تخرج وسافر إلى تشاد وأصبح مستشاراً لعيدي أمين، ثم رجع

إلى السودان ودرّس في جامعة جبا حيث أصبح مديراً فيها. وهو الآن يدّرس في السودان، وقد التقيته في الخرطوم عند حضوري المؤتمر الثاني للمنظمة العربية لحقوق الإنسان.

- الشرقاوي عفت. مصري من جامعة عين شمس، تخرج وعاد إلى القاهرة ودرّس في عدة جامعات عربية، وقد زرته في بيته في مصر الجديدة.

- منصور سعيد. مصري من جامعة الإسكندرية، تخرج بعد صعوبات. وسبب الصعوبات أن الممتحن الخارجي رفض رسالة الدكتوراه، وعندما يرفض الممتحن الخارجي لا يمكن قبول الموضوع. وقد جرى تعديل على الموضوع، وأعيدت كتابة الفصول فتمت الموافقة على الرسالة. والدكتور منصور يدرس الآن في جامعة الإسكندرية وقد زرتها بدعوة من قسم الفلسفة في جامعتها وألقيت فيها محاضرة.

هذه عينة من إثني عشر خريجاً من خريجي المعهد كانوا معي أثنا الدراسة فيه. وهي تعطي فكرة عن طبيعة التنوع في الطلاب، أسو بالتنوع بالأساتذة وبرامج الدراسة. وقد عرف المعهد لبنانيين غيري قبلي وبعدي وأثناء دراستي. ومن اللبنانيين من قبلي هشام نشابه الذي حصل على درجة الماجستير من المعهد ثم على درجة الدكتوراه في التاريخ من الجامعة نفسها. وأثناء دراستي كان معي شاب لبناني طريف جداً اسمه اندريه درلك. تخرج من المعهد ثم درّس في الكلية الحربية الكندية وقد تقاعد منذ سنوات. وهو يطوف العالم مع زوجته اللبنانية أيضاً السيدة رجاء.

قضيت صيف سنة ١٩٧٢ في أونتاريو، الولاية الكندية الأكبر، حيث يملك أهل زوجتي بيتاً صيفياً بنوه بأنفسهم قدماً قدماً[١].

ذلك أن الدولة توزع بين الحين والآخر على السكان أرضاً مجانية، بشرط فتح طريق بين الغابات لهذه الأرض، أو بشرط بناء غرفة على الأقل، أو غير ذلك من الشروط ممكنة التحقيق دون صعوبات كبيرة. وكنت أساعد منذ سنتي الأولى في كندا في بناء هذا البيت الصيفي حتى أصبح يتسع لعائلة من عدة أفراد مع ضيوف قلائل. وكنا نقضي الأوقات في القراءة والمطالعة والاستماع إلى الموسيقى الكلاسيكية، وتأمل جمال الطبيعة، والسباحة، أو التحلق حول النار في الليالي الماطرة الباردة. وهي ليال تخترق الصيف الحار فيتحول النهار الحار إلى ليل بارد، وقد يدوم ذلك أياماً، ويمتد إلى أسابيع فيفسد على المصطافين صيفهم وعلى طلاب اللهو لهوهم. فيعوضون عن كل ذلك بالأكل والتسلية الداخلية إلى أن تأخذ الطبيعة مجراها.

مع انتهاء الصيف عدت إلى مونتريال، وحزمت حقائبي وسافرت دون أن أخبر إلا نفراً قليلاً من الناس عن سفري. ومع ذلك فعند وصولي إلى النمسا عبر أمستردام وهي محطة سفري الأوروبية، وجدت شرطياً يقف على باب الطائرة وسمعت المضيف يقول له: هذا السيد زيادة. كانت المفاجأة كبيرة، فقد كنت مراقباً على الطائرة، وكان المضيف يعرفني بالإسم ويعرف مكان جلوسي في الطائرة، وكان البوليس ينتظرني، وقد أخذت إلى غرفة خاصة فطفقت أتأملها وقرأت أسماء عربية على الجدران. وعندما جاء رجال المخابرات سألوني عن بعض الأوراق في حقائبي، وكانت حقائبي مقفلة بمفتاح خاص كان في جيبي، ومع ذلك فقد عرفوا مضمون الأوراق التي في حقائبي والتي من المفترض أن أتسلمها في بيروت. وعندما اعترضت على كل هذا وطلبت حضور السفير اللبناني قيل لي إنني لست في أرض لبنانية. فقلت إنني في منطقة

ترانزيت وإني لم أنوِ السفر إلى النمسا، أو الإقامة فيها فأنا على متن الطائرة أو في الترانزيت، ولكن كل كلامي واعتراضاتي ذهبت سدى.

أحضروا حقائبي وفتشوها مجدداً، فلم يعثروا فيها على أي شيء خطير. وطرحوا الكثير من الأسئلة، وأخذوا بصمات أصابعي ويديّ، ولم يعبأوا بكل اعتراضاتي، وعندما ذكرتهم بأن موعد طائرتي يقترب، قالوا إن هناك طائرات أخرى. وانتهى الأمر بعد وقت طويل وأقلعت إلى بيروت وأنا أفكر بإثارة الموضوع في الصحف ووسائل الإعلام. ولكنني بعد تفكير طويل قررت كتمان الموضوع لأنني لم أشأ أن أنبه الناس في بيروت إلى أنني كنت منخرطاً في عمل اعتبرته بعض الدول إرهابياً فمنعتني من دخول أراضيها كما هو شأني مع الولايات المتحدة الأميركية.

تحدثت مع نايف حواتمة في الموضوع وأخبرته بقراري فوافق. قلت له إنني لا أريد أن أعرف هنا كعضو في الجبهة الديموقراطية، فقال نبحث لك عن مهمات غير ظاهرة. في هذا الوقت كنت أرى مسيرة الجبهة الديموقراطية وأسمع آراء الناس فيها، فوجدت أن كل التعديلات النظرية التي كانت تصلنا والتي كنا نترجمها ونقدمها للناس هي مجرد تمارين نظرية. وأن الجبهة على أرض الواقع لم تكن متقدمة على ما عداها، بل إنها كانت تسير في فلك فتح وتتقوى بدعم ياسر عرفات الذي كان يهمه أن لا يكون لليسار الفلسطيني تنظيم واحد وقوي.

كانت سرقة السيارات ظاهرة شائعة وقد شاهدت ذلك بنفسي. وكان هذا النوع من السرقة هو أبسطها. وكان شباب الجبهة الصغار يتصرفون كالآلهة وخاصة عندما يتخذ أحدهم لنفسه

صديقة أجنبية من الدول الاسكندنافية. وكنت أجلس وأراقب تصرفات الصغار والكبار وكانت النظافة عدو هؤلاء الشبان. وقد حاولت مرة أن أنظف المكان بنفسي لأضرب لهم مثلاً فلم يعبأ أحد بي ولا بما أفعل، وكانوا جميعاً يدخنون، وكأن المقاتل الثوري يجب أن يكون مدخناً ليستحق لقب المقاتل الثوري. فإذا تركنا هذه الأمور، وهي معبرة جداً، وصعدنا مع القيادات من الأدنى إلى الأعلى وجدنا ظواهر مماثلة في ما هو أهم وأخطر.

طبعاً كانت هناك معسكرات تثقيف وكان يدعى إليها محاضرون ومتكلمون ماركسيون لينينيون قادمون من كافة أصقاع الأرض. كانت البذور جيدة إلا أن التربة لم تكن مستعدة تماماً.

أما القضايا الأمنية فحدث ولا حرج. اجتماعات سرية مكشوفة. تنقلات دون تخطيط وتغطية. فباستثناء بعض الحالات الفردية القليلة كان من السهل معرفة كل شيء، الاجتماعات والتنقلات، ومن هو وفي أي موقع. كانت الجبهة في بيروت تتخذ لها مقراً إحدى البنايات متعددة الطوابق قرب المدينة الرياضية، فكانت أول ما وصل إليه الإسرائيليون، ففجروها مع ساعات الصباح الأولى وولوا مدبرين... هكذا... وهكذا.

لست هنا لأعدد مثالب الجبهة الديموقراطية. ويكفي أن أقول إن التحليلات النظرية كانت في واد ومسيرة الجبهة في واد آخر، ولكني أريد أن أقول إنني أصبت بالإحباط الشديد ليس من الجبهة الديموقراطية فقط، ولكن من كل التنظيمات الفلسطينية. كنا في شمال أميركا نعيش تجربة مثالية خططنا لها بأنفسنا. وإذا كنت قد تحدثت عن هذه التجربة بشيء من التفصيل العملي فلأني أردت أن أقول إنني استطعت ومنفرداً إلى حد بعيد، أن أنشىء تنظيماً

مثالياً، ومع أن التنظيم كان فتياً عندما اضطررت إلى تركه ينمو وحيداً فإن خلق تنظيم من لاشيء تقريباً لم يكن مهمة هينة يمكن أن تتكرر كل يوم. صحيح أن الظروف كانت مساعدة إلا أن الظروف وحدها لا تكفي ولا بد من الإنسان وهو العنصر الأهم في كل عمل من هذا النوع. فإذا توفر الإنسان وتوافقت الظروف أجترحت المعجزات.

ليس الابتكار والإبداع موهبة فقط، وكم من أصحاب المواهب أضاعوا مواهبهم فذهبت أدراج الرياح. إن الموهبة هي الجهد المتواصل والممارسة الدائمة حتى إذا ما تراكم الجهد والممارسة أثمرا إبداعاً وابتكاراً. إن الكثير من أصحاب المواهب يعترفون أن إبداعهم إنما هو ثمرة جهود متواصلة، وكم سهروا الليالي يعيدون ويعيدون سواء في ميدان الإبداع الفنّي أو الأدبي أو العلمي أو غير ذلك. وفي السياسة كما في كل ميدان آخر لا ينجح العمل الحزبي أو العمل الشعبي أو الجماهيري أو أي عمل يحتاج إلى إعداد وتنظيم دون العمل الدؤوب والالتزام الثابت والتفرغ لإعطاء الوقت الكافي للسعي والمزيد من السعي. وفي النهاية لا بد للجهود من أن تثمر، ولقد أثمرت الجهود وأينعت مواسم عدة، وككل عملية إثمار كان لا بدّ دائماً من يد البستاني. ولقد عملت أيدٍ كثيرة ولكن دون تقدم كبير، ولعل السبب هو عدم ملاءمة الرياح لوجهة المركب.

ولكن لماذا الجبهة الديموقراطية؟

عندما انفصل نايف حواتمة ورفاقه عن الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين، قدّم هو ورفاقه تحليلات نظرية متقدمة، وكان كل شيء يبدو واعداً. كان هناك ما يشبه الوعود عن تأسيس جبهة صلبة لا

تلين: عن كوادر تعد إعداداً مركزياً صارماً، عن مدرسة للكوادر، عن إعداد المقاتلين بشكل مختلف، عن علاقات مع اليسار العربي والعالمي بحيث تكون الجبهة طليعة القوى المقاتلة الفلسطينية والعربية والعالمية وعن أمور كثيرة أخرى.

وسارت الجبهة الوليدة في طريق وعودها، وعدتُ أنا إلى مركزي في مونتريال وبدأت العمل. وكتبت لمن أعرفهم ولمن سمعت عنهم، عن الظاهرة الجديدة في حركة المقاومة الفلسطينية، وكان البعض قد سمع كل ذلك من هنا وهناك. وتأسس التنظيم المساند للجبهة الديموقراطية كما ذكرت بشيء من التفصيل. ونما هذا التنظيم بعيداً عن مشكلات الواقع، فكنا نعيش في عالم خاص، عالم يمكن القول إنه كان مثالياً. وكانت الأخطاء العملية التي تمارسها مؤسسات الجبهة في الوطن تُبرر رغم فداحتها في كثير من الحالات. ومن الأمثلة على ذلك أنني تلقيت برقية تقول: «سلطات الأردن الخائفة اعتقلت الرفيق الزبري. جندوا قواكم». فإذا ذكرنا أن هذه البرقية وسواها كانت تقرأ عبر الهاتف في دائرة البريد، ثم ترسل نسخة منها بالبريد لصاحب العلاقة وأن قسم البرقيات لا يمكن أن يتلقى برقية من هذا النوع دون إعلام المخابرات أو البوليس، فإننا نتصور ما يمكن أن يترتب على برقية من هذا النوع من نتائج سلبية، في وقت كنا نتخذ فيه خطوات أمنية مبالغاً فيها. وكنت أنا شخصياً رغم تفرغي للعمل أظهر كالآخرين وكأنه ليس لي علاقة بالسياسة إلا تلك التي تعني أكثر الناس. إن الأخطاء من هذا النوع كانت تتكرر رغم التنبيهات، وكان قسم العلاقات الخارجية يتعامل معنا وكأننا فرع من فروع الجبهة داخل الأردن. وكان القائمون على هذا القسم لا يعون كيف نعمل. وقد قابلت

بعضهم فيما بعد وأدركت أن التخلف الذي يعيشه بعض هؤلاء لا يمكنهم مما هو أحسن مما كانوا يفعلون.

عندما عدت إلى لبنان وقفت على الخطأ البنيوي الذي تقوم عليه الجبهة الديموقراطية بالذات، التي كانت تعيش في ظل فتح ومنظمة التحرير الفلسطينية التي أرادها ياسر عرفات دولة أو سلطة فلسطينية يحكمها منفرداً على طريقة الحكام العرب الآخرين. وهذا كله يتناقض مع منطق الثورة التي تقوم على أسس مختلفة وبنى مغايرة. فإدارة ثورة مسلحة أطلق عليها اسم «الثورة الفلسطينية» غير إدارة دولة ديكتاتورية. أما أن تدار المؤسستان بطريقة واحدة، فهذا لا يمكن أن يؤدي إلى النصر الموعود الذي تحول إلى شعارات ترددت حتى فقدت معناها.

عندما أدركت كل هذا ورأيته، قررت الانسحاب والانصراف إلى عملي من جهة وإلى المشاركة في الحياة السياسية في الجامعة. وهذا ما كان.

وكان ذلك سنة ١٩٧٢ منذ خمسة وعشرين عاماً أو قبل ربع قرن من تاريخ كتابة هذه السطور.

(١) القدم هي وحدة قياس، وهي معتمدة في كندا.

الفصل الرابع

بيروت

إلى بيروت، بقي من الوقت ساعتان. كم هي طويلة مسافة الساعتين هذه فوق بيروت. ويخفق القلب قليلاً. يقف بعض الركاب متطلعين يمنة ويسرة، وترتفع الهمهمات، وتشرق الوجوه.

المطار يقترب والمدينة تبدو هادئة من تحت، ومع ذلك فالوجع يبدو على وجهها ويزداد مع الاقتراب من المطار فوق البيوت الإسمنتية المبنية على عجل دون أي تنسيق حتى بدت إسمنتاً فوق إسمنت. ولولا الهوائيات التي تلتقط الصور التلفزيونية وبعض المارة لحسبتها بقايا مدن مهجورة. إنه حزام البؤس الذي يزنر بيروت من أطرافها الثلاثة: الأوزاعي ومدخل بيروت الجنوبي، والكارنتينا الشمالي والمكلس، ومدخل بيروت الشرقي. أما الغرب فالبحر أمامك معقد الآمال ومصدر النكبات.

وتحط الطائرة... وترتفع الأصوات، إنها الأصوات نفسها التي تسمعها كلما حطت الطائرة في مطار بيروت... صراخ ومناداة وتدافع... وتسير الحافلة حتى المدخل... ويزداد الصخب

ويتراكض المسافرون إلى الوقوف في صفوف بانتظار تأشيرات الدخول. وتنتظر مع المنتظرين والحمّالين، ثم تخرج والكل ينادي على ليلاه.

وتتراجع قليلاً وأنت مصدوم، الصدمة إيّاها التي تعود إليك في كل مرة تخرج فيها من المطار إلى الباحة الخارجية، وفي كل مرة ترى الأمور أكثر تدهوراً فتعرف من ذلك أن الأمور في الوطن تتدهور وتتدهور.

في المسافة التي تفصل المطار عن ساحة البرج حيث السيارات إلى طرابلس كنت أتطلع يمنة ويسرة لأرى هل من جديد. إنهم بائعو الخضار على العربات يتوزعون على الطرقات والمفارق وأبواق السيارات تعوي في كل الاتجاهات والسيارات المتسارعة تكاد تصطدم بين لحظة وأخرى فأزم نفسي قليلاً وعند الاقتراب من الأونسكو يخفق القلب قليلاً. فإلى اليمين كلية الآداب التي سأتقدم للتدريس فيها. وكنت كتبت إلى عميدتها التي تعرفني منذ أيام جامعة بيروت العربية والتي أوصاها زوجها المرحوم العميد د. محمد عبد السلام كفافي بي، ولم أكن بحاجة إلى توصية عندها. وكان ذلك منذ أكثر من ثلاثين عاماً.

من طرابلس كنت آتي إلى بيروت أتابع أعمالي لتعييني في الجامعة اللبنانية، كلية الآداب، قسم الفلسفة. وقد كان حظي كبيراً. فقد تصادف وجود رئيس للجامعة لم تحظ بمثله وقد لا تحظى وهو الدكتور أدمون نعيم. في عهده وهو أحسن العهود كان ثمة مجلس للجامعة ومجالس للكليات ومجالس للطلاب. وقد تصادف أيضاً أن يكون في مجلس الجامعة مجموعة من أصدقائي الشخصيين كالدكاترة حسن مشرفية عميد كلية العلوم ونزار

سلهب رئيس اللجنة القانونية ونزار الزين ممثل الأساتذة عن كلية الآداب وزاهية قدورة عميدة كلية الآداب وحسن صعب وغيرهم. وقد تحدث د. حسن صعب بإسهاب عني وعن المعهد الذي درست فيه وعن شهاداتي وكل ذلك بحماسة شديدة حتى جاءني د. حسن إبراهيم وحدثني عن الخطبة العصماء التي ألقاها د. حسن صعب في مجلس الجامعة.

من جهة أخرى كان د. كمال الحاج رئيس قسم الفلسفة حريصاً جداً على إبعاد العناصر اليسارية والعروبية، فنظر في ملفي وخُدع. فمن جهة درست في جامعة كندية وفي معهد إسلامي فيها، ومن جهة أخرى تزوجت كندية ونتيجة خطأ لعله مقصود كتب القنصل اللبناني في مونتريال أن زوجتي كاثوليكية ولكننا في الواقع تزوجنا زواجاً إسلامياً كما أشرت سابقاً، وهي في الأصل لم تكن كاثوليكية بل بروتستانتية دون علمي أو علمها أو علم أحد. ولم أعرف ذلك إلا بعد سنوات كثيرة. وهذا النوع من الأخطاء المقصودة كثير في القنصليات والسفارات اللبنانية وغيرها من المؤسسات. إلا أن هذا الخطأ أفادني وجعلني مقبولاً في نظر كمال الحاج أحد روّاد الطائفية المنادي بها والداعي إليها. كان دائماً يروج للطائفية ويحاول فلسفتها، أي وضع نظرية فلسفية للطائفية في لبنان، وسنعود إلى هذا لاحقاً.

وهكذا دخلت قسم الفلسفة وقد سمعت مناقشة جرت أمامي بين كمال الحاج والأب د. فريد جبر، قال الأب جبر: كيف أدخلته إلى القسم؟ ألم نتفق على عدم إدخال مسلم دون مراجعة ملفه مراجعة تامّة؟ قال كمال الحاج: لقد راجعت ملفه وهو على ما يرام، فأجابه فريد جبر: هل أفهمته أني أريد مواد الإسلاميات

كالفلسفة العربية وغيرها، ثم موجهاً الحديث إليّ: أنا أريد تدريس الفلسفة العربية وكل الإسلاميات فأرجو أن لا يكون هناك مجال للقيل والقال. ومن جهة أخرى أريد أن أسدي إليك نصيحة لا ضرورة لأن نقول «صلى الله عليه وسلم» كلما ذكرنا إسم «محمد» أو نبدأ الدرس بعبارة «بسم الله الرحمن الرحيم» أو غير ذلك. فنحن في جامعة هنا ولسنا في مسجد، فقلت له خيراً إن شاء الله، سوف نرى ما سنفعل.

لقد عانيت من أمثال هذه الأحاديث كثيراً، وكان همي في البداية تثبيت قدميَّ فقد دخلت قسم الفلسفة بصفة متعاقد متفرغ، وكان أمامي سنتان لاختيار مدى صلاحيتي للبقاء في القسم. كان من الطبيعي أن ينكشف أمري خلال هاتين السنتين وأن يعرف عني كمال الحاج الشيء الكثير وأن يعرف أنني أمثل خطاً معادياً تماماً لما يمثله هو.

كان كل ما أسمعه في القسم غريباً على أذنيّ. صحيح أنني ولدت ونشأت في لبنان وفي طرابلس. إلا أنني لم أعتد سماع هذه الأحاديث الصريحة في نزعتها الطائفية حتى الصفاقة والوقاحة:

١ ـ خلال السنة الأولى من تدريسي في الجامعة كنت عضواً في ندوة الدراسات الإنمائية التي أسسها وترأسها المرحوم د. حسن صعب. وبسبب إيماني بالإنماء وصداقتنا التي أشرت إليها عملت معه أميناً للشؤون الثقافية. وفي تلك السنة أعدّت الندوة لمؤتمر كبير ومهم عن الجامعات في لبنان، وقد أسهمت فيه ببحث نشر أكثر من مرة لأهميته، ولكن الأهم أنني كنت أحد المنظمين الأساسيين لهذا المؤتمر، وكنت فيه ساعد حسن صعب اليمين. وعند توزيع الدعوات أخذت الدعوة الموجهة

لقسم الفلسفة بيدي إلى غرفة رئيس القسم وهو كمال الحاج. وكانت غرفة يلتقي فيها الأساتذة نظراً لعدم وجود غرفة أخرى لهم. كنت أصل يومياً إلى القسم في الساعة الثانية إلا عشر دقائق من بعد الظهر، فقد كانت الدراسة محصورة في فترات الظهيرة، وكان يحضر هذا الوقت كل من كمال الحاج والأب فريد جبر. كان أول ما يفعله كمال الحاج هو الإطلاع على البريد الوارد وكان يقرأ بعضه بصوت مرتفع عندما يخص الأمر القسم. وعندما قرأ الدعوة من ندوة الدراسات الإنمائية لحضور المؤتمر عن الجامعات ودورها في المجتمع سأل الأب فريد جبر إذا كان يستطيع تمثيل قسم الفلسفة لأنه لم يكن قادراً على الحضور بنفسه. فأجابه الأب جبر أنه مشغول أيضاً ثم أردف لماذا لا يمثلنا معن زيادة؟ فما كان من كمال الحاج إلا أن قال: لا، إن معن زيادة مسلم وهذا قسم مسيحي يمثله مسيحي، وعجبت كل العجب لهذا التصنيف، ولهذا المنطق الجديد، ولهذه الصفاقة، وقلت لنفسي هل ما أسمعه حقيقي؟

٢ ـ في حادثة أخرى مماثلة ثبت لي مدى تعمق الطائفية في رأس كمال الحاج وسعيه الحثيث إلى تقسيم المجتمع على أسسها. عندما دخلت قسم الفلسفة تصادف أن أمين سرّ القسم كان مسلماً، وقد أراد الاستقالة لحصوله على عمل أحسن، فتساءل كمال الحاج عن البديل. ولما كان أمين السر يختار في بعض الحالات من الطلاب الذين تخرجوا من القسم اقترحت إسم حنا الشاعر، وكان صديقاً لكمال من جهة كما كان يدعي التقدمية والانفتاح من جهة ثانية. فتعجب كمال الحاج لاقتراحي إلا أنه أعجبه وهذا ما كان.

ولكن تصادف أن حنا الشاعر أراد أن يترك العمل، فسألني كمال الحاج رأيي فاقترحت آخر جيداً صادف أنه مسلم. فما كان من د. الحاج إلا أن قال: هذا غير ممكن فالمنصب مسيحي. فعجبت كل العجب وقلت ولكنه كان لمسلم قبل ذلك وأنا الذي اقترحت حنا الشاعر أتذكر؟ فقال هذا صحيح ولكن عندما يتسلم مسيحي وظيفة تصبح الوظيفة مسيحية ولا تعكس. وكان فريد جبر يستمع إلى الحديث فوافق مع رئيس القسم.

٣ ـ طبعاً، كثيرة هي الأحاديث الغريبة التي سمعتها من د. الحاج، منها أن الجامعة اللبنانية هي من أكبر الأخطار على لبنان فقد بلغ تعداد طلابها تعداد الجيش الأول، الطلاب يهددون المجتمع والجيش يحميه. أما أحاديثه عن المعجزات التي تقوم بها السيدة العذراء، مثل التفات تمثالها في حريصا نحو الجنوب لحمايته في إحدى المرات التي دخلت فيها إسرائيل إلى لبنان، وغير ذلك كثير، فهو مما ليس له حدود عند المرحوم د. كمال الحاج.

ولعل من أخطر ما في تفكيره سعيه ومحاولته تأسيس نظرية وفلسفة للطائفية. وقد وجّه الطلاب لإعداد أطروحات ماجستير في هذا الاتجاه. فالشيعي يكتب عن الفكر الشيعي، والسني عن المفكرين السنة، والماروني عن الكنيسة المارونية ودورها في تأسيس فلسفة لبنانية. وهكذا وهكذا. ولعل من أخطر ما قال به صاحب كتاب «الفلسفة اللبنانية» إن لبنان يواجه ثلاثة أخطار متمثلة في ثلاث نظريات أو فلسفات، وهي الصهيونية، والقومية العربية، والشيوعية. والنظرية

الأساس في دفع هذه الأخطار هي الفلسفة اللبنانية ممثلة القومية اللبنانية. أما معين هذه الفلسفة الذي لا ينضب فهو الكنيسة المارونية ورجالاتها منذ قيام الكنيسة وقيام لبنان.

وكما أشرت كان من الطبيعي أن يعرف كمال الحاج من أنا وماذا أمثل من فكر قومي عربي تقدمي، بل ويساري هو على طرف النقيض تماماً من فكره الطائفي اليميني الصريح والمكشوف. وكان هذا الفكر يفرز تصرفات لا تقل عنه تخلفاً وتخطياً لكل الأعراف الجامعية والأكاديمية المعروفة. كان يعطي الأسئلة للطلاب الذين يريد لهم النجاح ويريد لهم معدلات عالية من أجل التلاعب بالمنح ولا سيما منحة التخصص في الخارج. وكانت منحة واحدة للتخصص في الخارج تعطى لأحد الطلاب في كل عام. كان يصر على تسلم الأسئلة مكشوفة، وكان يتلاعب بعلامات الطلاب. كان المرحوم الأب جيروم غيث أستاذاً محترماً في القسم يدرس الفلسفة اليونانية، وهو الأستاذ المعروف محلياً وعالمياً ولا سيما في دراسته عن أفلاطون. وكان الأب غيث دقيقاً في علاماته، فكان الدكتور الحاج ينظر إلى المسابقة ويعرف مسابقة من، ويمسك بالقلم ويقول للأب غيث، أعطيته سبع علامات من عشرين، ماذا لو جعلناها سبع عشرة علامة من عشرين، ويضع واحداً إلى يسار السبعة ثم يوقع المسابقة ويفتحها مع المسابقات الأخرى بعد تعديل علامات بعضها، ويضع الجدول ويطلب إلى الأب غيث التوقيع. كنت أرى كيف كان الأب غيث يتألم ويستشيط غيظاً. ولم يكن يعاند الدكتور الحاج إلا قلة من الأساتذة منهم روز حاوي أخت الكتائبي المغدور وليم حاوي، وكانت تتصدى للحاج وكنت أتقوى بموقفها إلا أنني كنت أعرف أن كمال الحاج يكمن منتظراً الفرصة السانحة لتوجيه ضربة غادرة تضعني خارج الحلبة.

مضت السنة الأولى في قسم الفلسفة سنة (١٩٧٢- ١٩٧٣) ثم جاءت الثانية، وكان كل شيء يبدو هادئاً. ولكن مع السنة الثانية جاءت الفرصة السانحة لكمال الحاج وثارت العاصفة. فقد تصادف موعد انتخابات عمادة كلية الآداب، وكان العميد يُنتخب من قبل قلة من الأساتذة، الأساتذة الداخلين في الملاك ورؤساء الأقسام. ولما كانت الدكتورة زاهية قدورة مرشحة للعمادة وكان الدكتور نزار الزين مرشحاً أيضاً، وكانت تربطني بكل منهما روابط شديدة فقد خافت د. قدورة أن تكون ميولي مع خصمها الوحيد لأسباب سياسية وفكرية. وجاء كمال الحاج يلعب على هذا الوتر، وكاد يقنع العميدة أنني أقف إلى جانب نزار الزين ضدها. إلا أن هذا لم يكن إلا بداية المعمعة.

مضت الأيام وكمال الحاج يصول ويجول محاولاً إثارة د. قدورة ضدي صارفاً الكثير من وقته محاولاً التشهير بي. ثم جاء إلى د. قدورة بموقف علني وصريح: أنا وزملائي في الكتلة أحمد مكي وسعيد البستاني وحارث شهاب وجميع أعضاء التكتل نعطيك أصواتنا في معركة العمادة إذا أعطيتنا وعداً بعدم التجديد للدكتور معن زيادة وبإنهاء عقده. وأعطتهم الدكتورة وعداً غير صريح وغير محدد، وقالت سأعمل للمواجهة. فبعد أن جرت انتخابات العمادة وفازت د. قدورة بالتزكية. جاءها كمال الحاج يطالبها بوفاء الوعد، فقالت أنا لم أعدكم وعداً قاطعاً، وقد فكرت في الموضوع فوجدت أن معن زيادة ليس بالرجل السهل وأنا عاجزة عن إخراجه. وراءه نصف البلد. لقد حاولتم مع أدونيس وفشلتم ومعن زيادة أقوى من أدونيس في هذا الميدان فلا تحاولوا لأنكم لن تنجحوا. وأنا لن أحاول لأني لن أنجح. قد أطير قبل أن يطير هو، على كل لن أتخلى عنه.

خرج كمال الحاج غاضباً بعد أن حاول أن يشرح لزاهية قدورة من أكون مؤكداً أنني شيوعي وأنني أتقاضى أموالاً من السفارة الليبية في بيروت وقد شوهدت مراراً داخلاً إليها وخارجاً منها. وأكتفي هنا بالقول إنني حتى هذه اللحظة أحاول أن أستجمع ذهني لأعرف من كان السفير الليبي في بيروت؟ وأين كانت هذه السفارة الليبية؟ والأهم أنني لم أقبض في حياتي كلها من أي سفارة أو سفير أو رجل مخابرات أو ما يشبه. وقد يستغرب البعض أنني لم أصادق الديبلوماسيين وكل من له علاقة بهم، بل كانت طباعي معادية لطباعهم. كنت صريحاً في مواقفي ولم أحب الدبلوماسية والدبلوماسيين يوماً. إلا أن ما يهمني أن أقوله هنا إنني مرتاح الضمير. عشت حياتي كلها وفق مبادىء قاتلت وناضلت على أساسها. وكنت أقول لطلابي في السياسة وفي الحياة الأكاديمية، إن الإنسان يستطيع أن يبني خلال سنوات وسنوات، وإن كل هذا يمكن أن يهدم مرة واحدة وفي لحظة واحدة إذا أخطأ هذا الإنسان في حق مبادئه. فشكراً لله أنني لم أهدم ما بنيت وها أنا أقترب من حتفي مرتاح الضمير.

ولا أنكر هنا أن عروضاً قد جاءتني دون أن أسعى إليها، ولو قبلت بها لكنت من الأثرياء الآن. إلا أن هدفي كان غير هذا. كان أن أعيش وفق مبادئي. ما سعيت إليه هو ما آمنت به وهذا ما أفخر به أمام نفسي قبل أن أفخر به أمام الناس.

وبدأت المعركة.

في سنتي الثالثة في قسم الفلسفة، قرر كمال الحاج أن يخوضها معركة سافرة ضدي، وقررت أنا أيضاً أن أخوض المعركة ضده ولكن بهدوء، فخير وسيلة للدفاع هي الهدوء. هذا ما كنت قد

تعلمته من تجاربي الخاصة. وكلما كان المهاجم هادئاً بارد الأعصاب لا يعلن عن خططه، بل يترك نتائجها تعلن عنها، كان الهجوم أبلغ وأفعل.

خاض كمال الحاج معركته طائفياً وسياسياً، واستخدم كل الوسائل المشروعة وغير المشروعة. وكاد يستنفد كل الوسائل المتاحة له نظيفة وغير نظيفة:

- ذهب إلى رزو حاوي واجتمع معها في بيتها في الحمراء وقال لها: إن قرار ترشيح معن زيادة ضدي لرئاسة قسم الفلسفة اتخذ في بيت السفير الليبي. وابتسمت روز حاوي وقالت: إن قرار ترشيحه تم في بيتي هنا. وبالفعل كنت قد ذهبت إلى بيتها برفقة أستاذين آخرين، وكنت أعرف أنها ستطلب من أحدنا أن يترشح ضد كمال الحاج. فقد كانت قد عانت منه الكثير. كان يقول للطلاب علناً، إنها امرأة عانس، والمرأة العانس تحتاج إلى معاشرة الرجال لئلا تنشف أعصابها. وكان يقول إن المرأة العانس تكون جافة المعاملة بسبب نشافة العروق. وكان بعض الكتائبيين ينقل إليها الكلام وكانت تعرف خصال كمال الحاج وأعماله داخل القسم. وقد سعت لدعم أحد الأساتذة كي يترشح ضد كمال الحاج إلا أن أحداً لم يجرؤ. وهكذا استمر رئيساً للقسم سنوات وسنوات. وعندما عرضت روز حاوي أن يترشح أحدنا ورسا الأمر على ترشيحي أنا وكنت أعرف هذا وأخطط له. وقد أظهرت بعض التردد وأخذت أستعرض عدد الناخبين ومن منهم يمكن أن يكون معي أو ضدي، أظهرت الآنسة حاوي كل قواها وكيف يمكن أن تؤثر على هذا وذاك. فكانت كسباً كبيراً

كسرت به الطوق الطائفي الذي حاول كمال الحاج أن يقيدني به.

- وكان الأب غيث قد أعلن تأييده لي، ولكنه بعث إليّ أن أزوره في الدير حيث يقيم. فذهبت برفقة أحد الزملاء فقال لي الأب غيث إنه يؤيدني ولكنه لن يشارك في الانتخاب، فقد أمره رؤساؤه أن يصوت إلى جانب الحاج، ولكنه رفض وقال: إذا شاركت في الانتخابات سأصوت إلى جانب معن زيادة مباشرة وإلا فلن أشارك. وهكذا خسر كمال الحاج صوتاً دون أن أكسبه مباشرة وتحطم الطوق الطائفي.

- ترددت على الصحف في بيروت، وكان يرافقني في بعض زياراتي للصحف والمجلات شقيقي خالد. وكان قد بدأ يشق طريقه إلى الصحافة في بيروت، وكان طالباً في قسم الفلسفة إلا أن قلة كانوا يعرفون ذلك لأنه لم يكن منتظماً في الحضور. كنت أحكي لأصدقائي في الصحافة والإعلام عن أفكار كمال الحاج، وكنت أعرف ما سيكتبون في الأعداد القادمة، فكنت أدير الحملة ضد خصمي دون أن يعرف هو أو غيره أنني أدير حملة. كنت أحدث الصحفي المهتم عن إيمان كمال الحاج بالمعجزات وقد دفعت بأكثر من صحفي لأن يجري حديثاً معه بهذا الخصوص. فكان كمال الحاج يستجيب ويورط نفسه أكثر فأكثر بهذه الأفكار الغريبة. وكنت أكتب بعض الملخصات عن فكر الحاج وفلسفته اللبنانية واستخرج الاقتباسات وأعطيها للصحفيين المهتمين. فكانت تخرج مقالات مقتضبة ومطولة، وكنت أبعث لهذا ولذاك، فدارت المعركة ضد الحاج وأنا متفرج كغيري نراقب ما يدور.

- كنت، إضافة إلى ذلك، أجتمع مع زملائي في قسم الفلسفة وغيره، وقد أخذت عهداً من محمد رضوان حسن وعلي زيعور بالتصويت إلى جانبي. وكان للدكتورة قدورة اليد الطولى في ذلك. وكان كلاهما يخشى الحاج ويخافه ويتجنب المعارك والمواجهة ويهرب منها، إلا أنه أسقط في أيديهما هذه المرة نظراً لأهمية المعركة ونظراً للعهد الذي أخذاه كل على نفسه. وقد انضم إلى جانبي منذ البداية ولأسباب أيديولوجية كل من موسى وهبة وحسين حرب وكانا جديدين في القسم. وبهذا ضمنت ستة أصوات إضافة إلى جيروم المنسحب. وكان قد بقي مع كمال الحاج كل من الأب جورج كرباج، والسيدة ناديا عون والأب فريد جبر ود. مهدي فضل الله الذي انتزع منه عهداً على نفسه بتأييده في محل البقالة الذي كان يملكه والد مهدي. وكان مهدي واحداً من الطلاب الذين أرسلهم كمال الحاج في منحة دراسية مع موضوع عن الفكر الشيعي. وبهذا اختل التوازن لمصلحتي ولكني كنت أخشى المفاجآت وكنت أحسب لها ألف حساب.
- وكان من الطبيعي أن يدخل الطلاب في المعركة، وكان بشير الجميل رئيساً لمصلحة الطلاب الكتائبيين ثم مسؤولاً عن تحالف طلاب اليمين. وكان في ذلك الحين في طريقه إلى العمل السياسي والتنظيمي في الحزب. وقد شوهد مع بعض الطلاب ينقل أسلحة أمام كلية الآداب وبلغ الخبر د. زيعور ود. محمد رضوان حسن، وكانا يؤثران الانسحاب ويفضلان عدم المواجهة فكادا يجدان الذريعة للهرب. وفي المقابل سمع طلاب اليسار بموضوع التلويح بالأسلحة فحضر السلاح إلى

كافيتيريا كلية الآداب. وارتفعت وتيرة التلويح بالسلاح، وكان شقيق زوجة كمال الحاج ضابطاً في الجيش فأخذ يتردد على كلية الآداب ويطوف مع بعض جنوده الشوارع المحيطة بكلية الآداب. كل ذلك في عمليات تدل على الفشل أكثر مما تدل على النجاح. وكان يوم الحسم يقترب وثّاب الخطى. وكانت خشيتي من المفاجآت على درجة عالية من المبالغة وكان ذلك قبل بداية الحروب اللبنانية.

- ومع ذلك حافظت على هدوئي وكنت أعمل ببرودة أعصاب ظاهرة. والواقع أن التزامي من جهة، وشجاعتي المعروفة، التي كنت أدعّمها دائماً بعدم الاهتمام بالخسارة. فلو خسرت فلن تكون تلك الخسارة نهاية العالم. وكان ذلك الموقف من الخسارة هو سبباً من أسباب الربح. وأذكر هنا مثلاً حياً على هذا. كانت اللجنة التأسيسية لرابطة الأساتذة المتفرغين قد عينت موعداً لإجراء الانتخابات، كما كانت قد عينت في كل كلية مندوباً لمراقبة الانتخابات وإجرائها بحسب الأصول. وكان المندوب المكلف في كلية الآداب ـ كان ذلك قبل تفريع الجامعة في محاولة لشرذمتها ـ قد تأخر عن الحضور فدارت مناقشة حول تأجيل الانتخابات بسبب تأخر حضور الزميل المكلف وكان د. أحمد مكي وأساتذة اليمين كمال الحاج وسعيد البستاني وحارث شهاب يريدون تأجيل الانتخابات على أمل إلغائها خوفاً من نتائجها ومن قيام الرابطة أصلاً. فقال أحمد مكي: لنؤجل الانتخابات حرصاً على قانونيتها. فسكت الجميع مترددين، فنهضت وقلت بصوت عالٍ وواضح: أنت يا دكتور مكي تريد التأجيل لعلك جئت من أجل هذا، إلا أن الأمر ليس على ما تريده أنت. فثار لأني

أكلمه بهذه الطريقة وهو العميد السابق الذي كان يخشاه الأساتذة قبل خشية الطلاب له، واقترب مني بخطى متحدية وكأنه يريد أن يتشابك معي دون أن يفعل، فقلت له: أنت تتحداني وتتحرش لكي أضربك فتتعطل الانتخابات وينقلب الموقف لمصلحتك أنت وجماعتك، ولكني لن أفعل ولن أحقق لك ما تريد. فجّن جنونه وازداد وجهه اصفراراً على اصفرار ودهش جميع الحضور لجرأتي وشجاعتي، ولا سيما الذين كانت ترتعد فرائصهم عندما كان يصرخ فيهم. وكان الجميع يعرف أنه سيعود إلى العمادة مرة أخرى لأسباب إدارية، وقد عاد فعلاً. وعندما دخل الدكتور المكلف مراقبة الانتخابات معتذراً، حسم أمر إجراء الانتخابات، وقد فزت بأعلى الأصوات بسبب شجاعتي ووضوح موقفي.

ملاحظة: انتقل د. معن زيادة إلى رحمة الله بعد أن عانى الكثير من مرض عضال، ودون أن يكمل هذه المذكرات. فجاءت مبتورة على هذا النحو (الناشر).

صدر للمؤلف

مؤلفات

ـ «معالم على طريق تحديث الفكر العربي» عالم المعرفة ـ الكويت

ـ «الحركة من الطبيعة إلى ما وراء الطبيعة» عند ابن باجة الأندلسي.

تحقيقات وترجمات

■ **تدبير المتوحد**، لابن باجة الأندلسي

■ **السماع الطبيعي**، لابن باجة الأندلسي.

■ **أقوم المسالك في معرفة أحوال الممالك**، لخير الدين التونسي

■ **مفهوم الحرية في الإسلام**، لفرانتز روزنتال بالاشتراك مع رضوان السيد

■ **مسائل الخلاف بين البصريين والبغداديين**، للنيسابوري.

إشراف

□ رئيس تحرير **الموسوعة الفلسفية العربية** (ثلاثة أجزاء في أربعة مجلدات).

□ رئيس تحرير مجلة **«الفكر العربي»**.

فهرس الأعلام

ق

ك

ل

م

ن

فهرس الأماكن

ت

ح

خ

د

ر

س

ش

ص

ط

ع

ف

ق

ك

ل

م

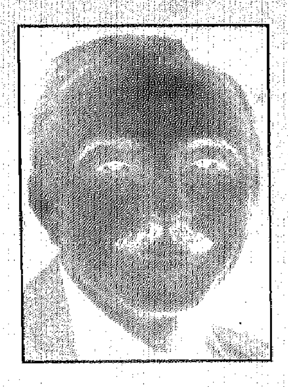
ن

هـ

و

ي

معن زيادة



هذا الكتاب «الفصول الأربعة» كناية عن مذكرات كتبها الراحل الدكتور معن زيادة، وهو يعاني آلام المرض.

يروي د. زيادة في مذكراته نتفاً من مراحل حياته في مدينة طرابلس بداية حيث التكوين الأول ثم مدينة القاهرة، حيث الدراسة والعلاقات السياسية مروراً بمدينة بيروت التي عمل فيها في مجال التدريس والصحافة وصولاً إلى كندا، حيث التكوين النهائي والنشاطات الأكاديمية والثقافية.

وفي هذه المذكرات يستعرض المؤلف رحلة عمر بكل ما فيها من تحولات ومحطات ومرافىء مثلت مسيرة حافلة لهذا السندباد المعاصر.

